أناتول فرانس

الآلهة عطاش

ترجمة

عادل زعيتر

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها: حسن ويوسف محمد واخوتهما
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٢

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M. OLIN LIBRARY
ITHACA, N.Y.

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 063 149 854

الآلهة عطاش

Ex Libris
J. Heyworth-Dunne
D. Lit. (London)

No 9957

هدية الحضرة لذو الاستاذ
الحاج محمد عثمان المتقاعد
١٩٥٢/١٢/١٧
عبد عمر

أناتول فرانس

الآلهة عطاش

ترجمة

عادل زعيتر

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها: حسن ويوسف محمد واخوتهما
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٢

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
ITHACA, N.Y.

OLIN
LQ
2254
D5
1952

مُقدّمة المترجم

« أناتُول فرانسُ » من أئمة الأدب فى العالم، ولم تَعْرِف فرنسة من يفوقه أسلوباً وإنسانيةً منذ نحو مئتى عام ، و « الآلهةُ عِطاشٌ » من أروع ما كتبه البُلَغاء عن الثورة الفرنسية ومن أدقِّ ما صوَّروها به ، وفى هذا الكتاب ، البعيد المقاصد والأهداف ، تبدو هذه الثورة سافرةً لا تغشاها الغُيُوم التى توجَد فى أسفار التاريخ عادةً ، وفى هذا الكتاب كَشَفَ أناتُول فرانسُ النِّقابَ عن غُلاَة الثورة الفرنسية فكان شديدَ الوقْع عليهم مع ما نعْلم من اشتراكيته ، فلعلَّ القارئ العربىَّ يُغيِّر كثيراً من آرائه حَوْلَ هـذه الثورة التى اتصفت بالجَوْر وسفكِ دماء الأبرياء إذا ما طالع كتابَ « الآلهة عِطاش » .

(نابلس) عادل زعيتر

186024

١

كان تلميذُ داڤيـدَ [١] المصوِّرُ والعُضْوُ فى قِسْمِ البُونْ نُوف ، أى قِسْم هنرى الرابع سابقاً ، كان إيڤارِسْتْ غَمْلَانُ هـذا ، قد ذَهب باكراً إلى كنيسة البَرْنَابيين [٢] القديمةِ التى اتُّخِذَت منذ ثلاث سنين ، أى منذ ٢١ من مايو سنة ١٧٩٠ ، مركزاً لمجلس القسم العامِّ ، وكانت هذه الكنيسة قائمةً على ميدان ضيِّق قاتم قريب من سِيَاج الپاله ، وكانت الرموزُ الدينية قد طُرِقت [٣] فى المُقَدَّم المؤلَّفِ من دِعامتين كِلَاسيِّيْن [٤] ، والمُزَيَّنِ بمَساندَ مُنَكَّسةٍ و بأساطينَ لإطلاق الأسهم النارية ، والحزينِ مع الزمن ، والمُهَانِ بالإنسان ، فكُتِبَ فوق المْدخَل بحروفٍ سُودٍ شعارُ الجُمهورية : « الحرية والمساواة والإخاء أو الموت » ، ويَدْخُلُ إيڤارِسْتْ غَمْلانُ صَحْنَ الكنيسة ، ويَرَى أن القِبـاب ، التى كانت تَسْمَعَ ترتيلَ رجال الدين ومَحْفِل القـدِّيس بولس للأدعية مع لُبْس حُلَل الإكليروس ، تُبْصِر الآن اجتماعَ الوطنيين اللابسين قلانِسَ حُمْراً لانتخاب حُكَّام البلدية وللتشاور فى أمور القِسْم ، وكان القِدِّيسون قد جُرُّوا من كُوَاهم واسْتُبْدِلَتْ بهم تماثيلُ نِصْفِيةٌ لبروتوس [٥] وجان جاكْ [٦] ولُو پِلْتِيه [٧] ، وكانت مِنْضَدَةُ حقوق الإنسان منصوبةً على الهيكل المُسْتلَب .

---

(١) دافيد : مصور فرنسى مشهور (١٧٤٨ — ١٨٢٥) .
(٢) البرنابيون : رهبان منظمة مار بولس .
(٣) طرقه : دقه بالمطرقة .
(٤) Classique
(٥) بروتوس : أحد قاتلى قيصر ، مات سنة ٤٢ ق . م .
(٦) جان جاك : هو جان جاك روسو الكاتب الفرنسى المشهور (١٧١٢ — ١٧٧٨)
(٧) لوپلتيه : من أعضاء مجلس العهد الفرنسى (١٧٦٠ — ١٧٩٣) .

وكانت المجالسُ العامة تُعْقَدُ كلَّ أسبوع مرتين فى ذلك الصحن ، وذلك فيما بين الساعة الخامسة والحادية عشرة مساءً ، وكان الكرسىُّ المزيَّن بالعَلَم ذى الألوان الوطنيـة يُتَّخَذُ مِنبَراً للخُطَب ، وكانت تقوم فى الأمام من ناحية الرسالة مِصْطَبَـةٌ خشبية غليظة مُعَدَّة لجلوس النساء والأولاد الذين كان يَحْضُر هـذه الاجتماعاتِ عددٌ غيرُ قليـل منهم ، وكان نَجَّارُ ميدان تِيُونْفِيل الوطنىُّ الشائبُ دوبُون ، وهو من رجال الرَّقابة الاثنى عشر ، يظهر صباحاً هنالك ، أمام المكتب وعند أسفل المِنْبر ، لابساً قَلَنْسُوَةً حمراء وسُتْرَةً قصيرة ، وكان يوجد على المكتب قارورةٌ وأقداحٌ ومَحْبرةٌ ودَفترٌ مشتملٌ على نَصِّ العريضة التى يُدْعَى بها مجلس العهـد إلى إقصاء الأعضاء الاثنين والعشرين الأَرْدِياءِ من بينه .

وقد تناول إيڤارِسْت غَمْلانُ القلمَ ووَقَّع .

قال الحاكم الصانع : « أَعْلَمُ ، أيها الوطنىُّ غَمْلانُ ، أنك آتٍ لتُسَمِّىَ نَفْسَك ، أنت نَقِىٌّ ، ولكن القِسْم غيرُ غيور ، وتُعْوِزُه الفضيلة ، وقد افترحتُ على لجنـة الرَّقابة أَلَّا تُسَلِّم شهادةُ الوطنية إلى مَنْ لم يُوَقِّع العريضة » .

غَمْلان : « ترانى مستعدًّا لأن أوقِّع بدمى أوامرَ قتـل الاتحاديين الخائنين ، فقد أرادوا قَتْلَ مارَا[1] ، وَلْيَهْلِكوا » .

دُوبُون الشائب : « عدمُ الاكتراث سببُ خُسْرِنا ، ولم يحضر مجلسَ القسم ، المشتملَ على تسعمئة وطنىٍّ لهم حَقُّ التصويت ، غيرُ خمسين ، وقد كنا أمسِ ثمانيةً وعشرين » .

غَمْلان : « والآن يجب فَرْضُ غرامةٍ على من لم يَحْضُر من الوطنيين » .

---

(١) مارا : ثائر شعبى فرنسى مشهور (١٧٤٣ – ١٧٩٣) .

النجارُ عابساً : « هَهْ ! هَهْ ! لو حَضَرُوا كلُّهم لأصبح مُحبُّو الوطن أقلية . . . أَوَتريد ، أيها الوطنيُّ غَمْلان ، أن تَشْرَب نَخْبَ السَّانْ كُولُوت[1] الصالحين ؟ . . . »

وكانت تُقْرَأ على جِدار الكنيسة من ناحيـة الإنجيلِ هذه الكلماتُ المُصْحَبَةُ يداً سوداءَ دالَّةً بسَبَّابتها على المَمَرِّ المؤدِّى إلى الزُّواق ، والكلماتُ هى : « اللَّجنـة المدنية ، لجنة الرَّقابة ، اللَّجنـة الخيرية » ، فإذا ما سِرْتَ بضعَ خُطُواتٍ بَلَغْتَ باب مخزن الأمتعة الذى تَعْلُوه كلمة : « اللَّجنة العسكرية » ، ويَدْفَع غَمْلانُ البـابَ ، ويلاقِى أمينَ اللَّجنة وهو يكتب على مِنْضَدةٍ كبيرةٍ مُثْقَلَة بالكتب والأوراق وسبائك الفولاذ ولفائف البارود ونماذجِ النطرون .

« سلامٌ عليك أيها الوطنيُّ تروبر ، كيف صحتك ؟ » .

— أنا ؟ . . . صحتى جيدة جدًّا .

هذا هو جوابُ أمين اللَّجنة العسكرية فُورْتُونه تروبر الثابتُ عن سؤال جميع مَنْ يستفسرون عن صحته ، وذلك اختصاراً لكلِّ حديث حول هذا الموضوع وزُهْداً فى إطلاعهم على حاله ، وقد كان هذا البالغُ من العُمر ثمانية وعشرين عاماً جافَّ البَشَرة مُتفَرِّق الشَّعر أحمر الوَجنتَيْن أحدبَ الظهر ، وقد كان بَصَريًّا[2] على رصيف الصَّاغة مالـكاً بيتاً قديماً إلى الغـاية فتنزَّل عنه لمستخدَم شائب حتى ينقطع إلى وظائفه البلدية ، وعن أمه الفاتنة ، التى تُوُفِّيتْ فى العشرين من سِنِيها والتى لا يزال بعض الشِّيب يَحْفَظُون ذكراها المؤثّرة ، أخذ جمالَ عينيه وعُذُوبتَهما وإغراءهما كما أخذ شُحُوبَه وحياءه ، وعن أبيه المهندس البَصَرىِّ ومُجَهِّزِ الملك ، والذى مات لذاتِ العِلة

---

(١) Les Sans Culottes أى اللاسرواليون ، وهو اسم أطلقه الأريستوقراطيون على الثوريين سنة ١٧٨٩ .

(٢) Opticien

قبل بلوغه الثلاثين ، أخذ أصالةَ العقل وخَصْلةَ الجِدّ ، ويقول مداوماً على الكتابة : « وأنت ، كيف صحتك أيها الوطنىّ ؟ » .

— جيدة ، وهل من جديد ؟

— لا ، لا ، وأنت ترى أن كلَّ شىء هادئ هنا .

— وما هو الوَضْع ؟

— الوضعُ هو هو دائما .

كان الوضع هائلاً ، فقد أحيط فى ما يانس[1] بأروع جيوش الجمهورية ، وقد حُصِرت ڤَلانْسِين[2] ، واستولى الڤانْديُّون[3] على فُونْتِنِه[4] ، ورَفَعتْ ليونُ رايةَ العصيان ، وثارت الفتنة فى سيڤين[5] ، وبَدَتْ الحدود مُفتَّحة أمام الإسپان ، وغُزِىَ ، أو تمرَّد ، ثُلُثا البلاد ، وسُلِّطَت مدافع النمسويين على باريسَ المحتاجة إلى الخبز والمال .

وكان فُورْتُونه ترُوبِر يكتب هادئاً ، وكان فُورْتُونه هذا يَخُطُّ أوامرَ جَمْعٍ ، وتسليحٍ ، الفَوْج الذى يجب على « اليُون نُوف » ، أو « هنرى الرابع » سابقاً ، أن يُجَهِّزَه وَفْقَ قرار الهيئة الثورية الذى يَفْرِض على الأقسام أن تَحْشُدَ اثنى عشرَ ألفَ رجل ليُوَجَّهُوا إلى ڤانْده ، ويُؤْمَرُ بأن تُسَلَّم جميعُ البنادق الحربية إلى الجنود ، وبأن تُسَلَّم بنادق الصيد والحِرَابُ إلى الحَرس الوطنى .

---

(١) مايانس : من مدن ألمانية .
(٢) فلانسين : من مدن فرنسة .
(٣) نسبة الى ڤاندة ، وهى مديرية فرنسية كانت شديدة المقاومة للثورة الفرنسية انتصارا للنظام الملكى .
(٤) فونتنه : هى من مدن مديرية فاندة .
(٥) سيڤين : جبال فرنسة الوسطى .

ويقول غَمْلان : « أنا آتيك بجدول الأجراس التى يجب أن تُرْسَل إلى اللُّكْسَنْبُرْغ[١] حتى تُحَوَّلَ إلى مدافع » .

ومع أن إيڤارِسْت غَمْلان لم يَمْلِك فَلْساً فقد سُجِّل بين أعضاء القِسْم العاملين ، وقد كان القانون لا يجعل هـذا الامتيازَ لغير الموسِرين من أبناء الوطن القادرين على دفع ضريبة تَعْدِلُ عَمَلَ ثلاثة أيام ، وقد كان القانون يشترط دفع ضريبة تعدل عمل عشرة أيام ليُمْكِنَ النـاخبَ أن يكون منتخَباً ، بَيْدَ أن قِسْمَ اليون نُوفَ الوَلُوعَ بالمساواة والنُّزُوعَ إلى الاستقلال رأى أن يكون كلُّ وطنىّ ناخباً ومنتخَباً إذا مادَفَع ثمنَ بِزَّتِه حارساً وطنياً ، وكانت هـذه هى حال غَمْلان الذى كان وطنيًّا عاملاً فى قِسْمه وعُضْواً فى اللجنة العسكرية .

ويَضَعُ فُورْتونه تُرُوبِر قلمَـه ويقول :

« إذَنْ ، اذهبْ إلى مجلس العهد ، أيهـا الوطنىُّ إيڤارسْت ، والتمسْ تزويدَنا بتعليماتٍ نَحْفِر بها أرضَ السَّرَاديب ونَغْسِلُ التُّرابَ والرِّضام[٢] ونَجْمَعُ النَّطْرون ، فالأمرُ لا يقوم على حيازة مدافعَ فقط ، بل يجب أن يكون عندنا بارُودٌ أيضاً » .

وَيَدْخُل مخزنَ الأمتعة السابقَ أحدبُ قصيرٌ واضعٌ قلماً على أُذُنه ومُمْسِكٌ ورقاً بيده ، يَدْخُله عُضْوُ لجنة الرَّقابة الوطنىُّ بُوڤِيزَاج ، ويقول :

« بنى وطنى ! لقد تَلَقَّينا أخباراً سيئة ، فقد جَلاَ كُوسْتِينُ[٣] عن لانْدُو[٤] » .

غَمْلان صارخاً : « كُوسْتِين خائن ! » .

بُوڤِيزَاج : « سيُقصَل رأسُه » .

---

(١) اللكسنبرغ : من أشهر مبانى باريس ، أنشىء بين سنة ١٦١٥ و ١٦٢٠ .
(٢) الرضام : حجارة للبناء غير منحوتة .
(٣) كوستين : قائد فرنسى (١٧٤٠ — ١٧٩٣) .
(٤) لاندو : من مدن بفارية .

تُروبر مُعْرِباً عما فى نفسه لاهثاً قليلاً هادئاً كعادته :

« لم يُوجِد مجلسُ العهد لجنةَ السلامة العامة للتَّرَّهات ، وسيُبْحَث فيها عن سلوك كُوسْتين ، فيُرى هل هو خائن أو غيرُ كَفِيّ ، وسيَحُلُّ محلَّه قائدٌ عازمٌ على النَّصر ، ولا ضيْرَ ! » .

ويتَصفَّح أوراقاً ، ويُحِيلُ نظرَه التَّعِبَ فيها ويقول :

« قيامُ جنودنا بواجبهم من غير كَدَر ولا خَوَر يتوقَّف على عِلْمهم أن نصيبَ من تَرَكوا فى المنزل مضمون ، فإذا كنتَ ، أيها الوطنىُّ غَمْلان ، على هذا الرأى طلبتَ معى فى الاجتماع القادم أن تَبْحَث اللَّجنةُ الخيرية واللَّجنةُ العسكرية فى إعانة الأُسَر المُعْسِرة التى لها قريبٌ فى الجيش » .

ويَتَبسَّم ويَتَغَمَّم :

« لا ضَيْرَ ! لا ضَيْرَ ! » .

ويَعْمَل أمينُ لجنةِ القِسْمِ الوضيعُ هذا كلَّ يومٍ اثنتى عشرةَ ساعةً أو أربع عشرةَ ساعةً أمام المِنْضَدة الخشبية السوداء للدفاع عن الوطن الذى أصبح فى خَطَر فلا يَرَى تفاوتاً بين عِظَم العمل وصِغَر وسائله ما شَعَر بمشاطرته جهادَ جميع أبناء الوطن وما أَحَس اتحادَه بالأمة وما اختلطت حياتُه بحياة شعب كبير ، وقد كان من أولئك الخُمْسِ الصُّبُرِ الذين يُعِدُّون النصرَ المتعذر المؤكَّد بعد كلّ هزيمة ، ولا مَعْدِل لهم من النَّصر ، وقد كان هؤلاء الهُدَرَةُ (١) الذين قَضَوْا على النظام الملَكىّ وقَلَبُوا العالَم القديمَ ، وهذا المهندسُ البَصَرىُّ القصيرُ تُرُوبر ، وهذا المصور الغامض إيڤارِسْت غَمْلان ، لا ينتظرون رحمةَ أعدائهم ، ولا مناص لهم من الخِيَار بين النصر والموت ، ومن هنا كانت حميَّتُهم وكان انتباهُهم .

---

(١) الهدرة : الساقطون الذين ليسوا بشىء .

٢

يَخْرُج إيڤَارِسْت غَمْلان من عند البَرْنابيين ويَقْصِدُ ميدانَ دُوفين الذى صار ميدانَ تيُونْڤيل[١] إكراماً لهذه المدينة الحصينة .

وكان هذا الميدان الواقعُ فى أكثر أحياء باريسَ أَهْلاً قد أضاع حُسْنَ تناسقه منذ قرن ، فبعد أن كانت الفنادق التى أقيمت أيامَ هنرى الرابع على نَمَطٍ واحدٍ فى الجوانب الثلاثة ، وذلك من آجُرٍّ حُمْرٍ مع سلاسلَ من حجارةٍ بيض ، وذلك لحُكَّامٍ عِظام ، حُوِّلَتْ سُقوفُها الأَرْدُوازية العالية إلى طبقتين أو ثلاثِ طبقاتٍ هزيلة من الجِبْس أو هُدِمت وسُوِّيت بالأرض فاسْتُبدِلت بها ، مع عدم إعزازٍ ، منازلُ سيئةُ التكليس غيرُ منتظمة الوِجْهات حقيرةٌ قَذِرَةٌ ذاتُ منافذَ متفاوتةٍ ضيقة كثيرة ضاحكةٍ بآنية الزهور وأقفاص الطيور وبما يُجَفَّف من مَغْسُول ، وهناك يقيم جُمهورٌ من الصناع والصُّوَّاغ والنَّقَّاشين والسَّاعِيِّين[٢] والبَصَرِيين والطابعين والبَزَّازات[٣] والغَسَّالات وبائعات القُبَّعَات وفريقٌ من رجال القانون الشِّيب الذين لم تَجْرُفهم العاصفةُ مع الحكم المَلَكِيِّ .

والوقتُ صباحٌ ، والفصلُ ربيعٌ ، وتَنْضُر الجدرُ بشُعَاع الشمس الفَتِيِّ المُسْكِر كالرَّاح العَذْب والذى يَجْرِى فى المنافذ بهيجاً ، وكانت أُطُرُ المِقْصَلة

---

(١) تيونفيل : من مدن فرنسة الحصينة .

(٢) Horlogers

(٣) البزازة : بائعة البز ، وهو الثياب من الكتان أو القطن .

قائمة ، وكانت رؤوسُ رَبَّاتِ البيوت الشُّعْثُ تُرى فى الأسـفل ، ويَخْرُج مسجِّلُ المحكمة الثورية من منزله ذاهباً إلى محلِّ خدمته ، ويُرَبِّتُ ، وهو يَمُرُّ ، على خُدُود الأولاد الذين يَلْعَبون تحت الشجر ، ويُسْمَعُ هُتافٌ صارخٌ فى البُونُ نُوف حَوْل خيانة الرَّذيل دُومُورْيه (١) .

وكان إيڤارِسْت غَمْلان يَسْكُن بيتاً على رصيف الساعة يَرْجع إلى عهد هنرى الرابع ، ولولا قيامُ طبقةٍ صغيرةٍ تحت السقف مستورةٍ بالآجُرِّ أيامَ الطاغية الأسـبق لبدا هذا البيتُ على شىء من حسن المنظر ، وقد زِيدَ عددُ الفواصـل والحُجَيْرات فى منزل أحد الشيوخ البرلمانيين ليلائم مَنْ يقيم به من الأُسَرِ البُرْجُوازية والصُّنَّاع ، وهكذا كان البوَّاب الخَيَّاطُ الوطنىُّ رِمَاكل يُكَنكِن (٢) فى طبقةٍ أرضيةٍ ضيقةٍ ارتفاعاً وعَرْضاً فيُرَى من الباب الزجاجىّ مُتَربِّعاً على مِنْضدته مُسْـنِدًا قفاه إلى القاطع خائطاً بِذْلةً للحرس الوطنىّ ، وذلك على حين كانت الوطنيةُ رِمَاكل ، التى لم يَكُن لمَوْقِدها مَدْخنةٌ غيرُ الدَّرَج ، تُسَمِّم المستأجرين بدُخان يَخْنَتها وقَليَّتها ، وذلك على حين كانت ابنتُهما جُوزِفين الصـغيرةُ المُلوَّثةُ بالدِّبْس والباهرةُ الحسن تلاعِب كلبَ النَّجَّار ، مُوتُونَ ، وتَمُرُّ الوطنيةُ رِمَاكل الوافرةُ قلباً وصدراً وكُلْيةً لتُنْعِمَ بألطافها على الشائب الوطنىّ دُوپون الذى كان أحد أعضاء لجنة الرَّقابة الاثني عشر ، وتشـتدُّ شُبُهاتُ زوجها حَوْلَها فيملأ الزوجان رِمَاكل منزلَهما بضجيج تخاصمهما وتصالحهما مناوبةً ، وكان يَسْكُنُ طبقات المنزل العليا الوطنىُّ الصائغُ شاپيرون الذى له دُكانٌ على رصيف الساعة كما كان يَسْكُنها ضابطٌ للصحة وأحدُ رجال القانون وطَرَّاقٌ للذهب وكثيرٌ من مستخدمى البالهْ .

---

(١) دوموريه : قائد فرنسى (١٧٣٩ – ١٨٢٤) .
(٢) كنكن : قعد فى بيته .

ويَرْقَى إيڤارِسْت غَمْلان فى السُّلَّم القديم حتى الطبقة الرابعة والأخيرة حيث مُحْتَرَفُه وغرفةٌ لأمِّه، وهنالك تنتهى الدَّرَجُ الخشبيةُ ذاتُ الترابيع التى كانت تَعْقُب دَرَجَ الطبقات الأولى الحجرية، وتؤدِّى سُلَّمٌ مُرَكَّبَةٌ على الجدار إلى طبقةٍ تحت السقف كان يَنْزِل فيه وقتئذ رجلٌ عَبْلٌ[1] أشيبُ ذو وجهٍ جميلٍ وردىٍّ نَضير وحامِلٌ مُحْتَضِنٌ رِزْمَةً ضَخْمَةً بمشقة مع ترديده نَغْمَةَ : « خَسِرْتُ خادمى » .

ويَكُفُّ عن التنغيم ويَتَمَنَّى لغَمْلان نهاراً سعيداً بلُطْفٍ، فيُحَيِّيه غَمْلانُ تحيةَ إخاءٍ ويساعده على إنزال صُرَّته فيَشْكُرُ له الشائبُ ذلك .

ويقول إذْ يستردُّ حِمْلَه : « ترانى ذاهباً لتسليم صُوَرٍ رَقَّاصةٍ إلى بائع اللُّعَب فى شارع اللُّوَا حيث تتزاحم الأقدام، فهى من صنعى، وقد نَهَكنى عملُها وَصَبًا وألماً، ولم أُبالِ بذلك ما دمتُ رَبًّا صالحاً » .

وهذا هو الوطنىُّ مُوريس برُوتُو الذى كان جابياً من الأشراف فيما مضى، وكان أبوه، الذى أَثْرَى فى الأحزاب، قد شَرَى لقب الشَّرَف، ويُلَقَّب مُورِيس برُوتُو بمسيو دِيزِلِّتْ، ويُقَدِّم فى فُنْدُقه الواقع على شارع الشِّيزْ أَعْشِيَةً فاخرة كانت تنيرها بعينيها زوجةُ أحد المدّعين العامِّين السيدةُ رُوشْمُور الحسناء الكاملةُ التى لم يُنْكَرْ وفاؤها العزيز ما تركت الثورةُ لمُورِيس برُوتُو دِيزِلِّتْ وظائفَه ورواتبَه وفُندقَه وأَرَضِيه واسمَه، وتَنْزع الثورةُ جميعَ هذا منه، فصار يَكْسِب عيشه من رَسْم الصُّوَر تحت الرُّتُج[2] ومن صُنْع القَطائر والقطائف على رصيف الميجِيسِّرى ومن تأليف الخُطَب لممثلى الشعب ومن إعطاء الفَتيات الوطنيات دروساً فى الرقص،

(١) العبل : الضخم .
(٢) الرتج : جمع الرتاج، وهو الباب العظيم، أو الباب المغلق وفيه باب صغير

والآن يكون مُوريس برُوتُو فى بيته الذى يُبْلَغ بمرقاةٍ ولا يُمْكِن الانتصابُ فيه ، فيَظهَرُ مُزَوَّداً بإناءِ غِرَاءٍ ورِزْمةِ لِيفٍ وعُلْبةِ صِبَاغٍ وقُصاصات ورقٍ ، ويَصْنَع صُوَراً رَقَّاصة زاهيةً تلائم ذوق الأولاد ليَبيعها من تُجَّار اللُّعَب وليبيعها هؤلاء ثانيةً من البائعين الجائلين الذين يَطُوفُون بها فى الشَّانْزِلِيزِه مُعَلَّقةً على رأس خَشَبة طويلة ، ويحافظ بين الفِتَن العامة ، وفى أثناء البَلِيَّة الكبرى التى أصيب بها ، على صفاء نَفْسه قارئاً مُتَلَهِّياً دِيوانَ لُوكْرِيس الذى يَحْمِله دائماً فى رَدِنْغُوته البُرْغُوثىِّ اللونِ والفاغِر جيبُه فاه .

ويَدْفَع إيڤَارِسْت غَمْلان بابَ بيته فيُفْتَح حالاً ، ويقيه فَقْرُه هَمَّ الأقْفال ، وكان يقول لأمِّه إذا ما جَرَّت المِزْلاجَ عن عادةٍ : « وما فائدةُ ذلك ؟ فلا يُسْرَق غَزْلُ العنكبوت . . . وكذلك تصاوير » ، وفى مُحْتَرَفه كانت ألواح أوائل عمله مركومة تحت طبقة كثيفةٍ من الغُبار أو مردودةً إلى الحائط ، وفى محترفه كان يلاعب مناظر ظريفةً وَفْقَ المُوضَة [1] فيداعبُ بريشةٍ ملساءَ هائبةٍ جِعاباً واهنةً وطيوراً طائرة ، وألعاباً خَطِرة ويَخُوضُ أحلامَ سعادةٍ ويَجْمَع حارساتِ إوَزٍّ ويُخْرِج زهراً على صدر راعيات .

بيد أن هذا النَّمَط لم يلائم مِزاجه قَطُّ ، وكانت هـذه المناظر التى يعالِجُ أمرُها بفُتُور شاهدةً على طُهْرِ المصوِّر العُضَال ، ولم يَضِلَّ الهُوَاةُ فى ذلك ، ولم يُعَدَّ غَمْلانُ متفنناً غَزَلِيًّا فى زمانٍ ما ، واليومَ ، وإن لم يَبْلُغ الثلاثين من سِنيه ، يَلُوح له أن هذه الموضوعاتِ تَرْجع إلى زمن قديم ، وهو يَتَبَيَّن فيها مفاسدَ الملَكية وتأثيرَ دَعَارة البَلاَطات الفاضحَ ، وهو يَلُوم نفسه على أنه وهبَ هذا النوعَ الحقير وأبْدَى فيه

(١) La mode

عبقرية أذلّتها العبودية ، والآن إذ صار ابنَ شَعْبٍ حُرٍّ فإنه يُسَوِّدُ برسم حازمٍ ضروباً للحريات وحقوقاً للإنسان ودساتيرَ فرنسية وفضائلَ جُمهورية وجبابرةً شعبيين يُرْهِبُون ثُعْبانَ الطُّغيان ذا الرؤوس السبعة مُظْهراً فى جميع هـذه التراكيب حَمِيَّتَه الوطنية ، واهاً ! إنه لا يَكْسِب عيشَـه من ذلك ، فالوقتُ غيرُ ملائم للمتفننين ، ولم يكن هـذا ذَنْبَ مجلس العهد لا رَيْبَ ، فهـذا المجلس كان يُلْقِي جيوشاً لقتال الملوك ، وكان هذا المجلس ، المختالُ الثابتُ الجَنانِ العازمُ أمام أوربة المؤتمِرة الغادرة الظالمةِ نفسَها ، يتمزّق بيده ويَجْعَلُ الهَوْلَ من أعماله اليومية ويؤلّف محكمةً فاقدةَ الرحمة لمجازاة المؤتمِرين فلم يَلْبَثْ أن قَدَّم إليها أعضاءه لتفترسهم ، وكان هذا المجلس يَظْهَرَ فى الوقت نفسه هادئاً مُفكّراً محبّاً للعـلم والجمال فيُصْلِح التقويمَ ويُنْشِيء مدارسَ خاصـةً ويأمر بإقامة مسابقاتٍ للتصوير والنحت ويُعيِّنُ جوائزَ لتشجيع المتفننين ويُنَظِّمُ رِداهًا سـنوية ويَفْتَح المُتْحَف ويَضَعُ سِمَةً ساميـةً للاحتفال بالأعياد والمآتم العـامة على غِرار أثينة وروما ، ولكن الفنَّ الفرنسيَّ الذى كان كثير الانتشار فى إنـكلترة وألمـانية وروسية وپولونية صار غيرَ رائجٍ فى الخارج ، ولا غَرْوَ ، فهُواةُ التصوير والفنِّ وأمراء الإقطاع ورجالُ المال قـد افتقروا وهاجروا وتوارَوْا ، وقد اغتنى رجال الثورة ، ولم يَجْرُؤ شُرَاةُ الأملاك الوطنيـة وسماسرةُ البُرْصَة ومتعهِّـدو الجيوش ووكلاء الپاله رُوَيَّال [١] بَعْدُ على إظهـار ثَرَائهم ولم يكترثوا للتصوير فضلاً عن ذلك ، فـكان لا بُدَّ من شُهْرَة رِنْيُو [٢] أو مهـارة جِيرار [٣] حتى يُمكِن بيع لَوْحٍ ، وقد أَعْوَزَ غرُوزُ [٤] وفَراغُونار [٥] وأُوِين ، وكان

(١) الپاله رويال : من مبانى باريس المشهورة ، أنشىء سنة ١٦٢٨ للكردينال ريشيليو . (٢) رنيو : مصور فرنسى (١٧٥٤ — ١٨٢٩) .
(٣) جيرار : مصور فرنسى (١٧٧٠ — ١٨٣٧) .
(٤) غروز : مصور فرنسى (١٧٢٥ — ١٨٠٥) .
(٥) فراغونار : مصور ونحات فرنسى (١٧٣٢ — ١٨٠٦) .

برُودون[١] يَقُوتُ زوجَه وأولادَه بمشقةٍ مصوِّراً أموراً يَنْقُشُها كُوبْيَا مُنَقَّطةً ، وكان المصوِّرون المحبُّون للوطن : إنِّكَنْ[٢] وڤِيكار وتوبِينُو لُوبْران[٣] ، يَتَضَوَّرون جُوعاً ، وكان غَمَلانُ العاجزُ عن القيام بنفقات أحد الألواح غيرَ قادر على دفع بَدَل النَّمُوذَج وابتياع الأصْباغ فلا يكاد يَرْسُم لَوْحَه الواسع : « يُجَرُّ الطاغية إلى الجحيم بصولة » ، وكان يَسْتُر نصفَ مُحْتَرفه بصور ناقصةٍ هائلة زائدة على ما فى الطبيعة وبجماعةٍ من الأفاعى الخُضر قاذفةٍ كلٌّ منها لسانين حادَّيْن أحجنين ، وكان يُمَازُ فى الصفِّ الأول من الشمال زَبَانِيَةٌ ضامرةٌ نافرةٌ فى قاربها ، أى قطعةٌ مليئةٌ جميلةُ التصوير ، ولكن مع مَسْحَةٍ مدرسية ، وكان يُرى نُبوغٌ وقُرْبٌ من الطبيعة أكثرُ من ذلك فى لوحٍ ناقصٍ ضَيِّقٍ مُعَلَّقٍ فى مكانٍ من المحترَف أنورَ من غيره ، وهذا هو لوحُ أُورِسْت[٤] الذى تَرْفَعُه أختُه إلكْتِر[٥] على فِرَاشه عن أَلَمٍ ، وفيه تُرَى الفتاةُ وهى تَفْرِزُ ، بحركةٍ مؤثِّرة ، شَعْرَ أخيها المشتبك الذى يَحْجُب عينيه ، وكان رأسُ أُورِسْت مُحْزِناً رائعاً ، وكان يبدو مشابهاً لوجه المصوِّر .

وكان غَمْلان يَنْظُر إلى ذلك التركيب بعين حزينة غالباً ، وكانت ذراعاه المهتزَّتان شَوْقاً إلى التصوير تمتدان أحياناً نحو وجه إلكْتِر المرسوم واسعاً ، ثم تَهْبِطان واهنتيْن ، وكان المتفنن ينتفخ حماسةً ، وكانت نفسُه تميل إلى الأمور العظيمة ، ولكنه كان عليه أن يَضْنَى بما يُوصَى به من آثار يصنعها بَيْن بَيْن ،

---

(١) برودون : مصور فرنسى (١٧٥٨ – ١٨٢٣) .
(٢) انكن : مصور ونحات فرنسى (١٧٧٣ – ١٨٦٣) .
(٣) توبينولوبران : مصور وثورى فرنسى ، أعدم لائتماره ببونا بارت سنة ١٨٠١ .
(٤) أورست : ابن أغاممنون ، وقاتل أمه كما جاء فى الأساطير اليونانية .
(٥) الكتر : ابنة أغاممنون .

وذلك لِمَا عليه أن يُرضِيَ ذوقَ العوامّ ، وذلك لما يَجْهَلُه من طَبْع سِمَة العبقرية على أصغر الأشياء ، وكان يَرْسُم تراكيبَ رمزيةً صغيرة ويَدْفَعُهَا إلى رفيقه دماهى ليَدْهُنَها بالأسود أو لينَقُشها بالألوان ماهراً ، فيَبيعها بثمنٍ بَخْسٍ من تاجر الصُّوَر المطبوعة الوطنىّ بليز فى شارع أُنُورِه ، غير أن تجارة الصُّور المطبوعة كانت تَسير من شرٍّ إلى شرّ كما يقول بليزُ الذى لم يُرِدْ شِراءَ شىءٍ منذ زمن .

وتَجْعَل الضرورةُ غَمْلانَ شاطراً فى هذه المرة على الخصوص ، فَيعِنُّ له اختراعٌ جديدٌ سعيدٌ ينالُ به هو والمُلوِّنُ وتاجرُ الصُّوَر المطبوعة بعضَ الغِنَى ، يَعِنُّ له وضعُ ورق لعبٍ تقوم فيه صُوَرُ العبقريات والحريّات والمساواة مقامَ الملوك والسيدات والخدم فى العهد الماضى ، ويُخَطِّط جميعَ صُوَرِه ويُتِمُّ كثيراً منها ، ويُسْرِع فى تسليم ما هو صالحٌ منها للنقش إلى دِماهى ، وتُمَثِّلُ أحسن صورة لديه متطوعاً لابساً قَلَنْسُوَةً ذاتَ ثلاث قُرَن وثوباً أزرقَ ذا حَوَاشٍ حُمْرٍ وسِرْوالاً أصفر ومِسْمَاةً (١) سوداء وجالساً على صُنْدوق وواضعاً رجليه على رُكامٍ من قذائف ، وجاعلاً بُنْدُقيته بين ساقيه ، وكان هذا هو « وطنىّ القلب » الذى يُسْتَبْدَل بخادم الفؤاد ، وما فَتِئَ غَمْلان يَرْسُم منذ ستة أشهر متطوعين مع وِدَادٍ على الدوام ، وقد باع بعضَ رسومهم أيامَ الحماسة ، وقد كان كثيرٌ من هذه الرسوم معلَّقاً على جِدار المُحْتَرَف ، وقد كان خمسةٌ أو ستةٌ منها مُلوَّنةً بأَصْبَاغٍ مائية وبقلمَىْ رَصاصٍ مجرورةً على المِنْضَدة وعلى الكراسى ، ويَحِلُّ شهرُ يوليه سنة ٩٢ ، وتُنْصَبُ فى جميع ميادين باريسَ مصاطِبُ للتجنيد ، ويُدَوِّى فى الحانات المُزَيَّنة بالغُصُون هُتَافاتُ « عاشت الأمة ! حياةٌ حُرَّة أو موت ! » ، ولم يَسْطِعْ غَمْلانُ أن يَمرَّ على البُونْ نُوفْ ، أو أمام دار البلدية ،

---

(١) Guêtre ، وهى تعرف بالطماق .

من غير أن يَهْفُوَ فؤادُه نحوَ الخيمة المزدانة بالأعلام والتى يُسَجِّلُ الحكّامُ ذوو الوُشُح تحتها أسماءَ المتطوّعين على ألحان المَرْسِلِيزْ ، ولكن غَمْلان يَتْرُك أُمَّه بلا عَيْش إذا ما لَحِق بالجيش .

ويَسْبِقُ الوطنيةَ الأيِّمَ غَمْلانَ صوتُ نَفَسها العسير وتدخل المُحْتَرِفَ عارقةً حمراءَ الوجه خافقةَ القلب معلِّقةً إشارةَ الوطن على قَلَنْسُوَتها مع إهمالٍ مستعدَّةً للفرار ، وتَضَعُ سَلَّتَها على كُرْسِيّ وتنتصب لتتنفّس جيداً وتئن من غَلاَء القُوت .

وكانت سَكَّانَةً [١] فى شارع غرينِلْ سانْ جِرْمَنْ ، مع إشارة « مدينة شاتِلْرُو [٢] » ، ماعاش زوجُها ، والآن إذ غَدَت الوطنيةُ غَمْلان فقيرةً فإنها صارت تعيش منزويةً فى منزل ابنها المصوِّر الذى هو أكبرُ ولديْها ، وأما ابنتُها جُولْيه ، التى كانت فتاةَ أزياءٍ فى شارع أُنُوره فإن من المستحَبِّ ألاَّ يُعْرَف ماذا أصبحت ، فليس من الخير أن يقال إنها هاجرت مع رجل من الطبقة الأريستوقراطية .

وتَزْفِرُ الوطنيةُ دالَّةً ابنَها على قُرْصِ عجينٍ ثخينٍ أسمرَ وتقول : « رَبَّاه ! إن الخُبْزَ غالٍ ، وهيهات أن يُصنع من القمح الخالص ، وقد خَلا السوق من البَيْض والخُضَر والجُبن ، وسنصبح كَسْتَنَاءَ من كَثْرَةِ أكل الكستناء » .

وتَصْمُتُ طويلاً ، وتقول :

« لقد رأيتُ فى الشارع نساءً ليس عندهن ما يُغَذِّين به صِغارهنّ ، وقد زاد بؤسُ الفقراء ، وستدوم هذه الحال مالم تَرجِع الأمور إلى مجاريها » .

غَمْلانُ زاوياً ما بين عينيه : « والدتى ! إن ما نعانيه من سَغَبٍ هو من عمل

---

(١) السكان : صانع السكاكين أو بائعها .
(٢) شاتلرو : من مدن فرنسة .

المحتكرين والمضاربين الذين يُجيعون الشعب ويواطئون العدوّ على تقويض الحرية وجَعْلِ الأهلين يمقتون الجمهورية، وهذا ما تودِّى إليه مؤامراتُ أنصار بريسّو [١] وخياناتُ بِسْيُون [٢] ورُولاَن [٣] ! ومن السعادة أيضاً ألاَّ يأتى الاتحاديون المسلَّحون ليَذْبَحُوا فى باريسَ مُحِبى الوطن الذين لا تَقْضى المجاعة عليهم بسرعة ! ولا ينبغى أن يُضاع الوقت، فيجب تسعير الدقيق وضربُ رقاب من يضارب على قُوت الشعب ويُثير الفتنة ويحالف الأجنبىّ، وقد أنشأ مجلسُ العهد محكمةً فَذَّةً لمحاكمة المؤتمرين، وهى مؤلَّفةٌ من وطنيين، ولكن هل يكون لدى أعضائها من الصَرَامة ما يكفى للدفاع عن الوطن ضِدَّ جميع أعدائه ؟ ولنعتمد على رُوبسْپيرْ [٤]، فهو صالح، ولنعتمدْ على مارَا خاصَّةً، فهو محبٌ للشعب ويَميزُ مصالحه الحقيقية ويقوم بها، وهو أولُ مَنْ فَضَح الخَوَنَة وأحبط المؤامرات، وهو عفيفٌ غيرُ هَيَّاب » .

وتَهُزُّ الوطنية غملانُ رأسها، وتُسْقِطُ علامتَها المهملة من قَلَنْسُوَتها وتقول :

« دَعْ عنك هـذا يا إيڤَارِسْت ! إن مارا هو كالآخرين، وليس خيراً من الآخرين، أنت شابٌ، أنت واهمٌ، وما تقوله اليوم عن مارَا كنْتَ قد قلتَه عن مِيرابو [٥] ولا فَايِت [٦] و بِسْيُون و بريسّو » .

« كلاَّ ! » ، هذا ما صَرَخَ به غَمْلانُ نَسِيًّا [٧] مع سَلامة قلب .

---

(١) بريسو : من أعضاء مجلس العهد (١٧٥٤ — ١٧٩٣) .
(٢) بسيون : سياسى فرنسى (١٧٥٦ — ١٧٩٤) .
(٣) رولان : سياسى فرنسى (١٧٣٤ — ١٧٩٣) .
(٤) روبسبير : محام ومن أعضاء مجلس العهد (١٧٥٨ — ١٧٩٤) .
(٥) ميرابو : أعظم خطباء الثورة الفرنسية (١٧٤٩ — ١٧٩١)
(٦) لافايت : قائد وسياسى فرنسى (١٧٥٧ — ١٨٣٤) .
(٧) النسى : كثير النسيان .

وتُخْلِي الوطنيةُ طَرَفاً من المِنْضَدة الخشبية البيضاء الزاخـرة بالأوراق والـكتب والفراجين[١] والأقلام الرَّصَاصِيَّة، وتَضَعُ عليه صَحْفَـةً من القاشانيّ وطاسيْن من القَصْدِير وشَوْكَتَيْن من الحديد وقُرْصَ خبزٍ أسمرَ وقارورةَ خَمْرٍ.

ويَشْرَبُ الابن والأمُّ حَسَاءَهما صامتيْن، ويَخْتِمان عَشَاءهما بقِطعةٍ صـغيرة من الشَّحْم، وكانت الأمُّ تَضَعُ يَخْنَـتَها على خبزهـا وتَحمِـل القِطَعَ على رأسِ مُدْيةِ جيبها وتَنْقُلها إلى فَمِهـا الأَثْرَمِ[٢] وقوراً، وكانت الأمُّ تَمْضُغ أغذيةً غاليةَ الثَّمن مع الإجلال.

وقد تركت الأمُّ أحسنَ قطعةٍ فى الصَّحْن لابنها الذى ظَلّ حالِماً ذاهلاً.

وكانت تقول له فى فَـتَرات متساوية: «كلْ، يا إيڤَارِسْت، كلْ».

وكان هذا القول يَتَّخذ بين شفتيها اتزانَ المبدأ الدينيّ.

وتَعُودُ فتتوجَّع من غَـلاء القُوت، ويطالب عَمْـلانُ بالتسعير مُجَدَّداً كعلاجٍ وحيدٍ لهذه الشُّرور.

ولـكنها تقول:

«لقد توارى المال، وأخذ المهاجرون كلَّ شىء معهم، وضاعت الثقة، ويوجب هذا قُنُوطاً من جميع الأمور».

عَمْـلان صارخاً: «صَهْ، صَهْ، يا والدتى! فمـا هى قيمة حِرْماننا وآلامنا زمناً قصيراً؟ وتؤدى الثورة إلى سعادة النوع البشرىِّ قروناً».

وتَغْمِس المرأةُ البسيطة خبزَها فى خمرها وتَصْفُو نَفْساً، وتُفَـكِّـر باسمةً فى زمان صِباها حينما كانت تَرْقُص على الـكلأ فى عيد الملك، وتَذْكُرُ اليومَ الذى طلب فيه

---

(١) Brosses (٢) الأثرم: المكسور السن.

السَّـكانُ جوزيف غَمْلان أن يتزوَّجهـا ، وتَقُصُّ مُفَصَّلاً كيف كانت الأمور تجرى ، وكانت أمُّها قد قالت لها : « الْبَسِي ثيابَكِ ، فسنذهب إلى ميـدان غريف لنرى من مخزن الصـائغ مسيو بيانَسِّيس تمزيقَ دَمْيان [١] » ، وقد وَجَدَتا عُسْراً فى شَقّ طريقٍ لهما بين جُمهور المستطلعين ، وقد لاقت الفتاةُ جوزيف غَمْلانَ فى مخزن مسيو بيانسِّيس لابساً ثوباً جميلاً ورديًّا ، وقد أدركت من فَوْرها عَمَّ يَبْحَث ، فبينما كانت واقفـةً عند النافذة لتشـاهد طاعن الملك المُعَذَّبَ بالـكَلاَّب والمَنْضُـوح بالرَّصَاص المُذَاب والمجرورَ بأربعةِ أحصنةٍ والمقذوفَ فى النار كان مسيو جوزيف غَمْلانُ واقفاً خَلْفَهَا فلم ينفكَّ يَمْدَح لَوْنَهَا ومَشْطَهَا وقَوَامَها .

وتَشتفُّ [٢] ما فى قَدَحها ، وتداوم على ذِكْر حياتها ، وتقول :

« لقد وضعتُك ، ياإيڤَارِست ، بأسرعَ مما كنتُ أنتظر نتيجةَ ذُعْرٍ اعترانى وأنا حُبْلَى ، وذلك أننى كنت فى البونْ نوف فـكِدْتُ أُصْرَع من قِبَل المستطلعين الذين كانوا يَرْكُضون ليَحْضُروا إعدام مسيو دُولاَلّى [٣] ، وقد كنتَ من الضَّـآلة عند وِلادتك ما كان الجَرَّاح يعتقد معه أنك لاتعيش ، ولـكننى كنت أعْرِف أن الله سيَمُنُّ علىَّ بحِفْظِكَ ، ولم آلُ جهداً فى تربيتك ، ولم أُقصِّر فى العناية بك والإنفاق عليك ، ومن الإنصاف أن يقال ، ياإيڤارِسْت ، إنك قمتَ بالشُّـكْر لى ومكافأتى بما لديك من وسائل ، وقد كنتَ وَدُوداً هادئاً عن طَبْع ، ولم تـكن أختُك سيِّئةَ الفؤاد ، وإنما كانت أَثَرِيَّةً [٤] عنيفة ، وقد كنتَ أرحمَ بالبائسين منها ، ولما كان

---

(١) دميان : فرنسى طعن لويس الخامس عشر بمدية (١٧١٤ – ١٧٥٧) .

(٢) اشتف ما فى القدح : شرب كل ما فيه .

(٣) دولالى : حاكم ممتلكات الهند العـام الفرنسى ، كسره الانكليز فاتهم بالخيانة وأعدم فى باريس (١٧٠٢ – ١٧٦٦) .

(٤) Egoïste

أولادُ الحيِّ الطائشون يأخذون الفِراخَ من الأَوْكار على الأشجار كنتَ تجتهدُ فى نَزْعِها منهم وردِّها إلى أُمَّاتها ، ولم تكن لتُقْلِع عن ذلك فى الغالب إلاَّ بعد أن تُدَاسَ وَتُضْرَبَ بقسوة ، ولما بلغتَ السابعة من سِنيك كنتَ تَسِيرُ ساكناً فى الشارع مستظهراً دروسَ الدِّين بدلاً من مشاجرة الفاسدين ، وقد كنت تأتى إلى المنزل بجميع مَنْ تُلاقى من الفقراء لتساعدهم ، فَأُضْطَرُّ إلى جَلْدك حَمْلاً لك على ترك هذه العادة ، وما كنتَ لتستطيع أن ترى متوجِّعاً من غير أن تَسْكُب دَمْعاً ، ولَمَّا تَمَّ نُموُّك صرتَ جميلاً جداً ، ومن دواعى حَيْرتى أن كنت لاتَعْرِف ذلك ، فكنت تختلف فى هذا عن مُعْظَمِ حِسَانِ الفتيان من ذوى الدلال والزَّهْو بالوجوه » .

والحقُّ ما قالته الأمُّ العجوز ، فقد كان لإيڤَارِسْت ، فى العشرين من عمره ، وجهُ فاتن رزين ، وجمالٌ نِسْوىٌّ زاهد معاً ، ومِثْلُ ملامح مِنرْڤا[1] ، والآن تَنِمُّ عيناه الدَّجناوان وخَدَّاه الشاحبان على نفس حزينة عنيفة ، بيد أنه إذا ما أدار بصره إلى أمه استردَّ وَداعةَ شبابه الأول .

وتُتابع حديثها :

« أَجَلْ ، كان يمكنك أن تنتفع بمحاسنك فى تَتَبُّع البنات ، ولكنك كنتَ تُسَرُّ بالبقاء قريباً منى فى الدُّكان ، ومما كنتُ أقوله لك أحياناً أن تتركنى قليلاً وأن تذهب لإنعاش نفسك مع رفقائك ، وسأشهد لك حتى الممات بأنك كنت ابناً صالحاً يا إيڤَارِسْت ، وقد كَفَلْتَنى بعد موت أبيك شجاعاً مع عدم إنتاجك ، وأنت لم تُحْوجنى إلى شىء قطّ ، وإذا ما كُنَّا اليوم مُعْوِزَيْن بائسيْن فإننى لا ألومك على ذلك مطلقاً ، فالذَّنْبُ ذنبُ الثورة » .

---

(١) منرفا : الهة الذكاء والحكمة والفنون كما جاء فى الأساطير .

ويقوم بحركة تأنيب ، وترفع كتفيها تهكماً ، وتداوم على حديثها :

« لستُ أريستوقراطية ، وقد عرفتُ الكبراء فى إبّان سلطانهم ، فيمكننى أن أقول إنهم أساءوا استعمالَ امتيازاتهم ، وقد رأيتُ خدمَ دُوك كنَاليل يضربون أباكَ بالعِصِيّ لأنه لم يصطفّ مع الناس بسرعة حين مرور سيدهم ، وكنتُ لا أحبُّ النمسوية [١] مطلقاً ، فقد كانت مُختالة مِتْلافاً ، وأما الملكُ فكنت أظنه صالحاً ، فكان لا بُدَّ من محاكمته والحكم عليه حتى أغيِّر رأيى فيه ، ثم إننى لا أتحسَّر على النظام السابق وإن قضيتُ فيه أوقاتاً لطيفة ، ولكن لا تقُلْ لى إن الثورة تُوَطِّد المساواة ، فالناسُ لن يكونوا متساوين ، والمساواةُ أمرٌ متعذّر ، ومن العَبَث أن قُلِبَت أوضاع البلد رأساً على عَقِب ، وترى صِغَاراً وكِبَاراً وسِمَاناً ونِحَافاً فى كلِّ زمن » .

وكانت تُرَتِّب الآنية وهى تتكلّم ، وعاد المصوِّر لا يُنْصِت لها ، فقد كان يحاول رَسْمَ رجلٍ من السَّانْ كُولُوتْ لابسٍ قَلَنْسُوَةً حمراء وسُتْرَةً قصيرة ليستبدله فى ورقِ لَعِبه بالخادم الأسود المحكوم عليه .

ويُحَكُّ الباب ، وتَظْهَرُ فتاةٌ ريفيةٌ رَبْعَةٌ شقراء حدباء ، وتَسْتُر غُدَّةٌ عينَها اليُسْرى ، وتَبْلُغ عينُها اليمنى من الزُّرقة الضاربة إلى صُفْرَة ما تَبْدُو معه بيضاء ، وتَفِيضُ أسنانها على شَفَتيْها الغليظتين .

وتسأل غَمْلانَ عن كونه المصورَ وعن استطاعته رَسْمَ صورةٍ لخاطبها المتطوعِ فى جيش الأَرْدِين [٢] : جُولْ فِرَّان .

---

(١) النمسوية هى ملكة فرنسة مارى أنطوانيت (١٧٥٥ — ١٧٩٣) .
(٢) الأردين : من ولايات فرنسة .

ويجيبها غَمْلان بأن مما يَسُرُّه أن يَرْسُم هذه الصورة عند عَوْدِ المقاتل الباسل .

وتُلِحُّ الفتاةُ عليه بلطفٍ أن يَصْنع ذلك حالاً .

ويَتَبَسَّم المصور على الرُّغم منه ، ويَعْترض على ذلك بأنه لا يقدر أن يفعل شيئاً من دون النَّموذج .

ولم تُحِرِ الفتاةُ جواباً ، ولم تكن لتُبْصِر هـذا العائق ، وتُميلُ رأسَها نحو كَتِفها اليُسرى وتَجْمَعُ يديها على بطنها ولا تُبْـدِي حَرَاكاً ، وتَظَلُّ صامتة وتَلُوح حزينةً ، وتؤثِّر هذه السذاجةُ فى المصور وتُسْلِيه فيرى أن يُلْهِيَ العاشقةَ البائسة فيَضَعُ فى يدها صورةً لأحد المتطوعين الذين رسمهم بأَصباغٍ مائية ويسألها عن مشابهة خاطبها المجاهد فى جيش الأَرْدِين لِمَا فيها .

صَوَّبَت إلى الورقةَ عينَها المُغْتَمَّة التى انتعشت رويداً رويداً ثم التمعتْ وبَرَقَتْ ، وانبسطت أسارِيرُ وجهها العريض بابتسامة زاهرة .

وأخيراً تقول: « هذا هو شبيهه حقًّا ، هذا هو جُولْ فِرَّان طبيعةً ، هذا هو مَثِيلُ جُولْ فِرَّان تماماً » .

وتَطْوِى الورقةَ عانيةً بأصابعها الحُمْر الغليظة قبل أن يفكِّر المصور فى استردادها ، وتَجْعَل منها مربَّعاً صغيراً وتضعه على فؤادها بين المِشَدِّ والقميص ، وتَدْفَع إلى المصور ورقةَ خمس ليرات ، وتتمنى للرفقاء مساءً سعيداً وتخْرُج عرجاء خفيفة .

٣

فى عصر ذلك اليوم زار إيڤارسْتُ تاجرَ الصُّوَر المطبوعة جانْ بليزْ ، الذى كان يبيع عُلَباً وأدراجاً ولُعَباً منوَّعَةً أيضاً ، فى «مصوّر الغرام» المقابل للأُراتْوَار[١] والقريبِ من المِسَّاجيرى بشارع أُنُوره ، وكان المخـزنُ نافذاً إلى الطبقة السفلى من منزلٍ أُقيم منذ ستينَ عاماً، وذلك من باب يشتمل غَلَقُـه[٢] على وجهٍ غليظ مُقَرَّن ، وكان عَقْدُ هذا الباب زاخراً بتصويرٍ زيتىّ يُمَثِّـل « سيسيلْيان أو مصورَ الغرام[٣] »، وذلك وَفْقَ رَسْمٍ لبُوشِه[٤] كان الأبُ جانْ بليزْ قد حَمَـل على وضعه سنة ١٧٧٠ فمُحِي منـذ ذلك الزمن بفعل الشمس والمطر ، وفى كلّ ناحيـة من المدخل يَعْرِض على الأبصار بابٌ مماثلٌ ، مع رأس حُوريَّـة فى العَـقْد ، ومُجَهَّزٌ بزجاجٍ كبير ، صُوَراً مطبُوعة ملائمةً للمُوضَة ولآخرِ ما أُحْـدِث فى فنّ النقش ، وكانت تُرَى فى ذلك اليوم هنالك مناظرُ ظريفةٌ رَسَمَها بوَالِّى[٥] بلطفٍ مع قليل جفاءٍ كدروس الحُبّ الزوجىّ والمصاعب العَذْبة حيث أُغيظ اليعاقبةُ فاشتكى الخُلَّصُ إلى جمعية الفنون ، وكانت تُرى النُّزْهةُ العامة لدِبُوكُور[٦] مع معلّم قصيرٍ ذى سِرْوَالٍ أصفرَ منشورٍ على

---

(١) الأراتوار : كنيسة بروتستانية بباريس .
(٢) الغلق : عند البنائين حجر يجعل فى وسط العقد .
(٣) سيسيليان أو مصور الغرام : من روايات الشاعر الهزلى الفرنسى موليير (١٦٢٢ — ١٦٧٣) .
(٤) بوشه : مصور فرنسى (١٧٠٣ — ١٧٧٠) .
(٥) بوالى : مصور فرنسى (١٧٦١ — ١٨٤٥) .
(٦) دبوكور : مصور فرنسى (١٧٥٥ — ١٨٣٢) .

ثلاثة كراسٍ ، وكانت ترى خيلُ الشابّ كارل ڤرنه [١] ومناطيدُ ، وحمّامُ ڤرجيني ، ووجوهٌ مصورة على منهاج القدماء .

و بين الوطنيين الذين كانوا يزدحمون أمام المخزن يقفُ ذوو الثياب الرثّة أكثر من غيرهم أمام الواجهتين [٢] الجميلتين للتسلية وعن ولَعٍ بالصُّوَر وطمعٍ في أخذ نصيبهم من نِعَم هذا العالَم بعيونهم على الأقل ، وكانوا يُعْجَبُون بذلك دَهِشين على حين يُلْقِي الأريستوقراطيون نظرة ويزْوُون ما بين عيونهم ويَمُرُّون .

ومن أبعد ما يُمْكِنُ إيڤارِسْتَ أن يُبْصِر يَرْفَع ناظريه إلى إحدى النوافذ التي تُفْتَح فوق المخزن ، إلى النافذة اليُسْرَى التي يُوجَد فيها إناءٌ قَرَنْفُلٍ أحمرَ وراء الشُّرْفة الحديدية ذات الصَّدَف ، وكانت هذه النافذة تُنير غرفة إلُوديَة بنت جانْ بليزْ ، وكان تاجرُ الصور المطبوعة يَسْكُن مع ابنته الوحيدة طبقة المنزل الأولى .

ويَقِفُ إيڤارِسْت ثانيةً أمام « مصوّر الغرام » كَمَنْ يريد أن يَتَنَفّس ، ثم يُديرُ قبضة المِزْلاج ، ويَجِدُ الوطنيةَ إلُوديَة التي باعت نقوشاً وأثرينَ من صُنْع فراغُونارَ الابن [٣] ونيجُون [٤] انتُخِبا بعنايةٍ من بين آثار أخرى فدَقّقَتْ بعينيها الجميلتين في الأوراق النقدية التي قبضتها ، وذلك قبل أن تُخَبّئها في الصُّندوق ، وذلك لِتَتَبَيَّن الخطوطَ والرُّسوم والصُّوَر ما وُجد من الأوراق الزائفة ما يَعْدِل الأوراقَ الصحيحة وما ظَهَر هذا ضارًّا بالتجارة ، وكان القتلُ جزاءَ من يُقَلّد نقود الوطن كما كان القتلُ جزاءَ من يُقَلّد إمضاءَ المَلِك فيما مضى ، ومع ذلك كان يُعْثَرُ على

---

(١) كارل فرنه : مصور فرنسي (١٧٥٨ — ١٨٣٥) .

(٢) Vitrine

(٣) فراغونار الابن : مصور فرنسي ، وهو ابن فراغونار الذي مر ذكره (١٧٨٠ — ١٨٥٠) .

(٤) نيجون : أديب فرنسي (١٧٣٨ — ١٨١٠) .

مطابعَ للأوراق النقدية فى جميع السراديب ، وكان السّويسريُّون يُدْخِلون الملايين من الأوراق الزائفة فيُقْذَف بِرزَمها فى الفنادق، وكان الإنكليز يُنزِلون إلى شواطئنا فى كلّ يوم طُرُوداً [١] إسقاطاً لنفوذ الجمهورية وإفقاراً للوطنيين ، وكانت إلُوديّة تَخْشَى قبضَ أوراقٍ زائفة ، وكان أخوفَ ما تخافه أن تُعَدَّ شريكةَ بيتَ [٢] ، وذلك مع رُكُونها إلى حَظّها واطمئنانها إلى الخلاص من الورطة عند كلّ مصادفة .

وينظر إيڤارِست إليها بذلك العُبُوس الذى يُعَبّر عن الغرام أكثر من كلّ ابتسام ، وهى تنظر إليه شَزْراً مع شىء من السُّخْرِية ترتفع به عيناها السوداوان ، ويأتيها هذا البَيَان من الوَلَع بها ومن عدم كُرْهها ذلك ومن كون هذا الوجه هناك يُهَيِّج العاشقَ ويَدْفَعه إلى الشَّكْوى ويُغْرِيه بعَرْض نفسه إذا لم يكن قد صَنَع ذلك بَعْدُ ، وهذه هى الحال التى كان عليها إيڤارِسْت .

وتَضَع الأوراق النقدية فى الصُندوق ، وتتناول من سَفَط الأشغال وِشاحاً أبيضَ كانت قد بدأت بتطريزه ، وتَعْمَل فيه ، فقد كانت مجتهدةً مِغْناجاً ، وبما أنها كانت تشتغل بالإبرة عن غريزةٍ لتَرُوقَ ولتَصْنَع حَلْياً فإنها كانت تَتَفنن فى الوَشْى على حَسَب من ينظرون إليها ، فتُطَرِّز متأنِّقةً أمام مَنْ تَوَدُّ أن تُبْدِىَ لهم ارتخاءً عَذْباً ، وتُطَرِّز جامحةً أمام مَنْ تَتَلهى بغَمِّهم قليلاً ، وقد أخذت تُطَرِّز لإيڤارِسْتَ عانِيَةً راغبةً أن تُلْقِى شعورَ جِدٍّ فيه .

ولم تكنْ إلُوديّة كثيرةَ الشباب ولا باهرةَ الجمال ، وقد تُرَى شَنْعاءَ أولَ وَهْلة ، فهى سمراءُ زَيْتُونيةُ اللون وتُجَمِّر عيناها الناريتان مَحْجَرَيهما تحت المِنْديل الأبيض الكبير المعقود حَوْل رأسها فتُفْلِت منه خُصَلُ شَعْرها السَّمَنْجُونىّ [٣] ، ويَجِد

(١) Ballots (٢) بيت : سياسى انكليزى (١٧٥٩ – ١٨٠٦) .
(٣) السمنجونى : ما كان بلون السماء .

المصورُ بوجهها المُدَوَّرِ ، الباسمِ والبارزِ الوَجنتين مع قليلٍ خُثْمة[١] والخشنِ الشَّهْوانيِّ ، رأسَ بُرْغِيز[٢] الذى كان يعجَب بفَرَاهته[٣] الرَّبَّانية على قالَب ، وتجعَل سَبَلَتُها[٤] الصغيرة حركةً لشفتيها الملتهبتين ، ويرفع صدرُها الذى يَلُوح انتفاخُه حَنَاناً منديلَها المُشَبَّك وَفْقَ مُوضَة[٥] العام ، ويهتزُّ قَوَامُها الأغيد[٦] وساقاها الرَّشيقتان وجميعُ بدنها المتين اهتزازاً لطيفاً لذيذاً ، ويَنْشُد نظرُها ونَفَسُها وارتجافُ جسمِها قَلْباً وغراماً ، وتُوحِى من وراء مكتب التاجر بصورةِ حُورية الرقص أو براقصة الأُبِرَا المُتَجرِّدة من جِلْد فَهْدها ومن عَصاها الباخوسية[٧] وأكاليلها اللَّبْلابية والمحتبسةِ المستترةِ عن افتتانٍ ضِمْنَ غِشاءٍ متواضعٍ كما فى رَبَّة المنزل لشَارْدَان[٨] .

وتقول للمصور : « ليس أبى فى البيت ، فانتظره قليـلاً ، ولن يتأخر عن الحُضُور » .

وكانت تُولِج بيديها الصغيرتين إبرتَها فى الشَّفِّ[٩] .

« أَوَيلائم هذا الرسمُ ذوقَكَ يا مسيو غَمْلان ؟ » .

كان غَمْلَانُ عاجزاً عن إخفاء ما فى نفسه ، فالحُبُّ يُلْهِب ثباتَ جَنَانه ويُثير صراحتَه .

---

(١) الخثمة : عرض الأنف أو غلظه .
(٢) برغيز : زوج بولين أخت نابليون (١٧٧٥ – ١٨٣٢) .
(٣) الفراهة : المهارة والحذق والنشاط .
(٤) السبلة : ما ينبت على الشفة العليا من الشعر .
(٥) La mode (٦) الأغيد : اللين الأعطاف .
(٧) نسبة الى اله الخمر باخوس كما جاء فى الأساطير .
(٨) شاردان : مصور فرنسى (١٦٩٩ – ١٧٧٩) .
(٩) الشف : الثوب أو الستر الرقيق .

« أَجَلْ ، أيتها الوطنية ، إنكِ ماهرةٌ فى التطريز ، ولكنكِ إذا كنتِ تريدين أن أُبيِّن لكِ قلتُ إن الرسمَ الذى خَطَطْتِهِ ليس بسيطاً عارياً بما فيه الكفاية ، وهو يُشْعِر بالذوق المُمَوَّه الذى ساد فرنسة طويلَ زمنٍ فى فنِّ تزيين النَّسائج والأثاث والسُّقُوف ، وتُذَكِّر هذه العُقَد والأكاليل بالطراز الصغير الحقير الذى كان مَرْعِيًّا فى عهد الطاغية ، والذوقُ يُبْعَث ، واهاً واهاً ! إننا نُشْفَى من مَرَضٍ عُضَال ، وقد كان الزُّخْرُف ينطوى على شىء من الصينية فى عهد المُتهتك لويس الخامسَ عشرَ ، فتُصْنَع الخزائنُ فيه ذوَاتَ أجوافٍ كبيرة وأكواعٍ مُلْتوية يُثير منظرُها السُّخْرِية ، ولا تَصْلُح لغير قَذْفها فى النار تدفئةً للوطنيين ، ويتجلَّى الجمال فى البساطة وحدَها ، ويجب الرجوع إلى القرون القديمة ، وها هو ذا داڤيد يَرْسُم السُّرُرَ والكراسىَّ على حسب الآنية الإتْرورية [١] وفنّ التصوير فى هِرْكُولاَنُوم [٢] » .

إلودية : « لقد رأيتُ بعض هذه السُّرُر والكراسىّ ، فما أحسنها ! وقد لا يُطْلبُ غيرها عما قليل ، وأَعْبُد القرون القديمة مِثْلَك » .

إيڤارِسْت : « والآن ، أيتها الوطنية ، لو كنتِ قد زَخْرَفْتِ هذا الوِشاحَ على الطِّراز الإغريقىِّ فرَسَمْتِ فيه أوراقَ اللَّبْلاب والثَّعابينَ والنّبالَ المشتبكة لكان جديراً بإسپارطية ... وبكِ ، ومع ذلك يُمْكنكِ الاحتفاظُ بهذا النَّمُوذج مُبَسِّطَةً إياه راجعةً به إلى الخط المستقيم » .

وتسأله عَمَّا يَجبُ أن يُحْذَف .

ويميل إلى الوِشاح ، ويَلْمِسُ بخديْه خُصَلَ إلودْية ، وتلتقى أيديهما على الشَّفِّ

---

(١) نسبة الى أترورية ، وتقع بين نهر التيبر وجبال الأبنين فى ايطالية .

(٢) هركولانوم : من المدن القديمة بايطالية كان بركان فيزوف قد طمرها سنة ٧٩ فأظهرت منذ سنة ١٧١٩ .

وتختلط أنفاسُهما ، ويَشْعُرُ إيڤارِسْتُ فى هذه اللحظة بجَذَلٍ لاحَدَّ له ، ولـكنه إذ يُحسُّ دُنُوَّ شَفَتَيِ الفتاة الوَدْية من شفتيه يخشى الذنْبَ معها فيتجنبها بغتةً .

كانت الوطنيةُ بليزُ تُحِبُّ إيڤارِسْتْ غَمْلان ، فهى تَجِدُه جميلاً بعينيه النَّجْلاوين الأَحْوَجَيْن ووجهه البيضىِّ الحَسَن وشُحُوبه وشَعْره الأسود الـكثير المُسَوَّى على جبينه والمُرْسَلِ على كَتِفَيه وبوقاره وفُتُوره وصرامةِ مقابلته وكلامه القوىِّ الذى لايُدَارِى به مطلقاً ، وبما أنها تُحِبُّهُ فإنها ترى فيه متفنناً عبقريًّا فخوراً يُنْتِج من الأوابد ذاتَ يومٍ ما يَذيع به صِيتُه وتَزيد به حُبًّا له ، ولا تُضْمِر الوطنيةُ بليزُ احتراماً للعِذَار الرُّجُولىّ ، ولا يُنْتَهك أدبُها إذا ما سار الرجلُ مع أهوائه وشَهَوَاتِه وتوَقَانه ، وهى تُحِبُّ إيڤارِسْتَ الطاهرَ ، وهى لاتُحِبُّهُ لأنه طاهرٌ ، غير أنها تجدُ سبيلاً إلى مالا يتمثل به الغَيْرَةَ والظِّنَّةَ ويخشى به الأقران .

ومهما يكن من أمر فإنها تَعُدُّهُ كثير الاحتراز فى ذلك الحين ، وإذا كانت أريسى راسين (١) التى تُحِبُّ هِيپُوليت (٢) تُعْجَب بفضيلة هـذا البطل الشابِّ الجافية فذلك عن أَمَل الفوز به ، وهى لم تَلْبَث أن أَنَّت من شِدَّة طبعه التى لم يُلِنْها فى سبيلها قَطّ ، وهى عندما لاحت لها الفُرْصة عَرَضت نفسها حَمْلاً له على عَرْض نفسه ، وتقتدى الوطنيةُ بليزُ بالغَيْداء أريسى هذه فلا تبتعد كثيراً عن الاعتقاد القـائل إن المرأة فى الحُبِّ مُلْزَمةٌ بأن تمهِّد السبيل ، وهى تقول : « إن أشـدَّ الناس حُبًّا هم أكثر الناس حياءً ، وهم يحتاجون إلى العون والتشجيع ، ومن سلامة طَوِيَّتهم أن

---

(١) أريسى : أميرة أثينية تزوجهـا هبوليت ، وقد رسم راسين لها صورة مؤثرة فى احدى مآسيه ، وراسين شاعر فرنسى مشهور (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) .

(٢) هبوليت : ابن البطل اليـونانى تيزة وملكة المترجلات أنتيوب كمـا جاء فى الأساطير .

تستطيع المرأةُ تمهيدَ نصف الطريق أو أكثرَ من غير أن يُشْعَر بذلك ، وذلك بأن تُدَبِّرَ لهم مظاهرُ هجومٍ جرىءٍ ويُهيِّأَ لهم مجدُ الفتح » ، والذى يُسكِّنُ رَوْعَها حَوْلَ الخروج من الوَرْطة هو أنها تَعْلَمُ عِلْمَ اليقين (ولا ريب فى هذا) كونَ إيڤارِسْتْ قد أحبَّ امرأةً عن إنسانية قبل أن تَجْعَلَ الثورة منه بطلاً ، أحبَّ امرأةً وضيعةً ، أحبَّ بوَّابةَ الأكاديمية .

وتَتَمثَّل إلودية ، التى لم تكن ساذجة قَطُّ ، أنواعاً للحُبِّ كثيرةً ، وكان الشعور الذى يوحى به إيڤارِسْتُ إليها بالغاً من العمق ما تُفكِّر معه وَقْفَ حياتها عليه ، أَجَلْ ، كانت مستعدةً للزواج به ، ولكنها كانت تتوقَّعُ ألاَّ يوافق أبوها على قِرَان ابنته الوحيدة بمتفنِنٍ غامضٍ فقير ، وكان غملان مُعْدِماً ، وكان تاجر الصور المطبوعة يتعامل بمبالغَ عظيمةٍ من المال ، وكان « مصوِّر الغرام » يَعُود عليه بالمال الوافر ، وكانت المضاربةُ على الأوراق المالية تَعُود عليه بأكثرَ من ذلك ، وكان شريكَ متعهدٍ بتقديم حُزَمِ الحَلْفاء[١] والهُرْطُمَان[٢] المُرَطَّب إلى فُرْسان الجمهورية ، ثم إن ابن سَكَّان شارع سانْ دُومينيك كان هزيلاً بجانب ناشر الصُّور المطبوعة المشهور فى جميع أوربة والقريبِ من بليزُو وبازَان وديدُو[٣] والعشيرِ للوطنيين سانْ پيير وفلورْيان[٤] ، ولم يكن عن غير إطاعةٍ عَدُّ قبولِ أبيها ضروريًّا لزواجها ، وقد آمَ الأبُ باكراً ، فظَهَرَ شهوانيًّا خفيفاً ساعياً وراء البنات ورجلَ أعمالٍ فلم يبالِ بابنته قَطُّ ، فنشأت طليقةً ولم يَحْبُها بنصيحة ولا صداقة ولم يكترث لرَقابتها ، ولكن

---

(١) الحلفاء : نبت أطرافه محددة ينبت فى مغايض الماء .

(٢) الهرطمان : نبت من فصيلة الجلبان .

(٣) ديدو : من أشهر الناشرين فى فرنسة .

(٤) فلوريان : من رجال القصص فى فرنسة .

مع جهل سلوك هذه الابنة التى كان يقدِّر ، كخبيرٍ ، مزاجَها الهائج ووسائلَ الإغواء فيها على أنهما أقوى مما فى الوجه الجميل ، وقد كانت من الجودِ مالا تحترز معه ، ومن الذكاء مالا تضيع معه ، ومن الاعتدال فى حماقاتها الغرامية مالا تنسى الآدابَ الاجتماعيةَ معه ، وكان أبوها يُسَرُّ من هذا الحَذَر ، وبما أنها أخذت عنه روحَ التجارة والمبادرة فإنه لم يُفكِّر فى الأسباب التى تُحوِّل فتاةً بالغةً عن الزواج وتُمسكها فى المنزل حيث تَعْدِل قَهْرَمانةً [1] وأربعةَ عُمَّال ، وكانت فى السابعة والعشرين من سِنِيها فتَشْعُرُ عن سِنٍّ وتَجْرِبةٍ بضرورة تنظيم حياتها بنفسها ولا تَشْعُرُ بأىِّ احتياج إلى سؤال أبيها ، الشابِّ السَّهل السَّاهى ، مَشُورَةً أو إلى اتِّباع مشيئته ، ولكنَّه يجب لزواجها بغَمْلان أن يَنْتفع مسيو بليزْ بهذا الصِّهر الفقير ، وأن يكون مفيداً له فى المخزن وأن يضْمن له أعمالاً كما ضَمِن لكثيرٍ من المتفننين ويُحْدِث له منابع رزقٍ ، وهى ترَى تَعَذُّرَ عَرْضِ أحدهما وقبولِ الآخر ما كان تعاطفُهما قليلاً .

ويُزعِج هذا العائقُ إلُودْية الحَنُونَ القَطُون ، فيلوح لها ، من غير ذُعْرٍ ، أن تتزوج حبيبها بعلاقاتٍ سِرِّيَّة وأن تُشْهِد بارئ الطبيعة وحدَه على تبادل وفائهما ، وليس فى فلسفتها ما يَسْتنكر مثلَ هذا القِران الذى يجعله استقلالُ حياتها أمراً ممكناً ويَمْنحه شرفُ طبع إيڤارِسْت وصلاحُه وجهاً مُطْمئناً ، بَيْدَ أنه كان يَصْعُب على غملان أن يَعيش وأن يَضْمَن عيش أُمِّه العجوزِ فلا يَبْدُو وجودُ مكانٍ فى حياةٍ ضيقةٍ لحياته للحبّ ولو اقتصر على بساطة الطبيعة ، وهذا إلى أن إيڤارِسْت لم يُظْهِر مشاعره ولم يُفْضِ بمقاصده بَعْدُ ، وتَرْجو الوطنيةُ بليز أن تَحْمِله على هذا عما قليل .

وتَقِف تأملاتِها وإبرتَها من فَوْرها وتقول :

---

(١) القهرمانة : وكيلة الدخل والخرج .

« أيها الوطنىّ إيڤارِسْت ! لا يُعْجِبنى هذا الوِشاح إلاَّ إذا أعجبك ، أرجُو منك أن ترسُم لى نَمُوذَجاً ، وسأَحْذُو حَذْوَ پِنلوپ[١] فأنْقُضُ ما صنعتُ فى غيابكَ رَيْثَما تَفْعل ذلك » .

ويجيب عن هذا حَمِساً عبوساً :

« سأعمَل هذا أيتها الوطنية ، فأرسُم لكِ حُسَامَ هَرْمُوديُوس[٢] : أرسُم لكِ سيفاً فى إكليل » .

ويتناول قلماً رَصاصيًّا ويَرسُم سيوفاً وأزهاراً على ذلك الطراز الزاهد العارى الذى كان يُحِبُّه ، ويَعْرِض مذهبه ويقول :

« على الفرنسيين الذين جُدِّدوا أن يَرفِضوا جميع وَصايا العبودية ، أن يَرفِضوا فسادَ الذوق وفسادَ الشكل وفسادَ التصوير ، وكان ڤاتُّو[٣] وبُوشِه وفراغونار يَعْمَلون من أجل طُغاةٍ وعبيد ، فلا نجد فى آثارهم حِسَّ الطِّراز الحَسَن ولا حِسَّ الخطِّ الخالص ولا شيئاً من الطبيعة والحقيقة ، بل نَجِد رِثاءً وتَبَرُّجاً ورِثاثاً وتقليداً موجباً للهزوء ، وستزدرى الذرارى آثارَهم التافهة ، وستفنى ألواحُ ڤاتُّو محتقِرةً فى الأنبار[٤] ضِمْنَ مئة سنة ، وسيُخْفِى طُلاَّب فَنِّ التصوير فى سنة ١٨٩٣ ألواحَ بُوشِه برسومهم ، وقد فتح داڤيدُ السبيلَ فدَنَا من القرون القديمة ، ولكنه ليس بسيطاً عظيماً عارياً بما فيه الكفاية بَعْدُ ، ولا يزال يوجد من الأسرار ما يتعلم به متفننونا من أفاريز هِرْكُولاَنُوم ونقوش الرومان البارزة وآنية الإتروريين » .

---

(١) پنلوب : زوجة أوليس وأم تلماك كما فى أقاصيص اليونان .

(٢) هرموديوس : أثنى ائتمر مع صديقه أريستوجيتون ضد أبناء پزيسترات كما فى قصص اليونان .

(٣) فاتو : مصور ونحات فرنسى (١٦٨٤ — ١٧٢١) .

(٤) الأنبار : جمع النبر ، وهو بيت التاجر الذى تنضد فيه الغلال والمتاع .

ويتكلّم كثيراً عن جمال القرون القديمة ، ثم يتناول فراغونار ثانية ويُحدِّث عنه بحقدٍ لايُرْوَى :

« أَوَ تَعْرِفينه أيتها الوطنية ؟ » .

وتومىء إلوُدْيَة بالإيجاب .

« وتَعْرِفين، أيضاً ، الرجلَ الساذجَ غرُوزَ الذى يُثير السُّخْرية بثوبه القِرْمِزىِّ وبسيفه ، ولـكنه يُعَـدُّ متحلِّياً بحكمة اليونان بجانب فراغونار ، وقد لاقيت هذا الشائبَ البائس وهو يُكَرْدِح [١] تحت أقواس البالِه إيغاليته مُبَوْدَرًا [٢] غُنْدَرًا [٣] مُتهزِّزًا بطِرًا شنيعاً ، وقد تَمَنَّيْتُ عند هذا المنظر ، ولِعَدَم وجودِ أُبُولُّون ، [٤] أن يَبْرُز بعض محبِّى الفنون الأقوياء فيَشْنُقونه فى شجرةٍ ويَسْلُخونه كمارْسِياس [٥] ليكون عِبْرَةً خالدة لدى أَرْدِياء المصورين » .

وتُحَدِّقُ إلوُدْية إليه بعيْنيها الجَذْلَيَيْن الشَّهْوَيين ، وتقول :

« أنت تَعْرِف أن تُبْغِض يامسيو غَمْـلان ، أَوَ يَجِبُ أن يُعْتَقَد أنك تَعْرِف الحـ.. أيضاً ؟ » .

« أنت ، غَمْلان ؟ » هذا ماقاله بصـوته الصادح بليزُ الوطنىُّ الذى يَدْخُل مخزنه مُطَقْطِقَةً جَزْمتُه [٦] طانَّةً حِلْيتُه طائراً رَفْرَفُه [٧] معتمراً بِقُبَّعةٍ سوداءَ ذاتِ قُرْنٍ متدليةٍ على الـكَتِفين .

---

(١) كردح : عدا عدو القصير

(٢) Poudré

(٣) الغندر : النـاعم

(٤) أبولون : من آلهة اليونان والرومان كما جاء فى الأساطير .

(٥) مارسياس : أفروجى شاب ماهر فى العزف على المزمار تحدى أبولون فى عزيفه هذا كما جاء فى الأساطير .

(٦) Botte

(٧) الرفرف : الرقيق من ثياب الديباج .

وتأخذ إلوُدْيَة سَفَطها معها وتَصْعَدُ إلى غرفتها .

ويسأل الوطنيُّ بليز : « والآن ، هل جِئْتَنى بشىء جديد ياغَمْلان ؟ » .

المصور : « رُبَما »

ويَعْرِض رأيه :

« تَصْدِم أوراقُ لعبِنا الشعورَ بمخالفتها الآدابَ ، وتؤذى أسماءُ الخادم والملك آذانَ الوطنيين ، وقد تَصَوَّرتُ وصنعتُ لَعِبَ الورق الثوريَّ الجديدَ الذى استُبْدِلت الحريةُ والمساواة والإخاءُ فيه بالملوك والسيدات والخَدَم ، وقد سَمَّيْتُ الأَسَّاتِ[١] ، المحاطة بالحزَم ، بالقوانين ... وتَدْعُون السِّبَاتىَّ[٢] بالحرية والبِسْتُونىَّ[٣] بالمساواة ، والدينارىَّ[٤] بالإخاء والكبَّا[٥] بالقانون . . . وأرى أن تُحْفَر هذه الأوراق ، التى رَسمتها بأمانةٍ ، من قِبل دِمَاهِى على مقياسٍ مقبول وأن أنالَ امتيازها » .

ويُخْرِج المُصَوِّرَ من محفظته بعضَ صُوَرٍ أتمَّ صنعَها بأصباغٍ مائية ، ويُقَدِّمها إلى تاجر الصُّوَر المطبوعة .

ويَرْفِض الوطنيُّ بليزُ أن يتَسَلَّمها و يَلْوِى رأسَه ، ثم يقول :

« أى بُنَىّ ! احْمِلْ هذا إلى مجلس العهد الذى يُكْرِمُك فى أثناء اجتماعه ، ولكن لاتأمُلْ أن تنال مالاً من اختراعك الجديد الذى ليس جديداً ، فقد نهضتَ متأخراً ، وقد أُتِى إلىَّ بلَعِبِ ورقك الثوريّ للمرة الثالثة ، وقد عَرَض علىَّ رفيقُك دوُغُور

---

(١) الأس (L'As) : من ورق اللعب .

(٢) السباتى (Trèfle) : من ورق اللعب .

(٣) الدينارى (Pique) : من ورق اللعب .

(٤) الدينارى (Carreau) : من ورق اللعب .

(٥) الكبا (Cœur) : من ورق اللعب .

فى الأسبوع الأخير لَعِبَ وَرَقٍ ذا أربع عبقريات وأربع حريّات وأربع مُسَاوَيات ، وقد اقترح علىّ لَعِباً آخر مشتملاً على حكماء وشُجَعاء ككاتُون [١] ورُوسُّـو وأَنيبال [٢] وغيرهم ! ... وتمتاز هذه الأوراق من أوراقك ، ياصديقى ، برسمها الغليظ ونحتها بالمُدْية على الخشب ، وما أقلَّ عِلْمَكَ بالناس إذْ تعتقد أن اللاعبين يستعملون أوراقاً مُصوَّرةً وَفْقَ ذوق دَاقِيد ومحفورةً وَفْقَ مِنْهاج بَرْتُولُوزَى [٣] ! ومن الوَهْم الغريب أيضاً أن تُعْتَقَد ضرورةُ صُنْعِ أنماطٍ كثيرة توفيقاً بين ألعاب الورق القديمة والمبادئ الحديثـة ، وترى السَّانْ كُولُوتَ الصالحين يُصَحِّحون اللاوطنية بإشارتهم إلى « الطاغيـة ! » أو « الخِنْزير الـكبير ! » ، وهم يستعملون أوراقهم القَـذِرة ، ولا يبتاعون غيرَها مطلقاً ، ودُورُ قِمَارِ البَـالِه إيغَاليتِه هى أكثر ما تُسْتَنْفَد فيهـا الألعـاب ، فأنْصَحُك بأن تذهب إليها وتَعْرِض على الشُّركاء والمقـامرين حرياتِك ومساوياتِك و ... فما قولُك ؟ ... وقوانينَ كُبَّاتك ... ثم تَعُودُ لتقولَ لى كيف استقبلوك ! » .

وَيجْلس الوطنىُّ بليزُ على المـكتب ويَضْرب بطَرَف سَبَّابتـه سِرْوالَه الأصفر إخراجاً لَحبّ التَّبْغ منه ، ويَنْظُرُ إلى غَمْلاَنَ عاطفاً ويقول :

« دَعْنِى أَنْصَحكَ أيها الوطنىُّ المصوّر : إذا كنت تَرْغَب فى تحصيل معاشك فاتركْ هنالك أوراقَ لَعِبك الوطنية ورموزَك الثورية وجبابرَتك وثعابينَـك وزبانيتَـك الباحثةَ عن الجريمة ، وارْسُمْ لى حِسَاناً ، فحماسةُ الوطنيين نحـو التجدُّد تَفْتُر مع الزمن ، ويُحِبُّ الرجالُ النساءَ على الدوام ، فاصنعْ لى نساءً وَرْدِيَّاتٍ مع أرجلٍ صغيرة

---

(١) كاتون : من وكلاء الرومان ورقبائهم (٢٣٢ – ١٤٧ ق . م .) .
(٢) أنيبال : قائد قرطاجة المشهور (٢٤٧ – ١٨٣ ق . م .) .
(٣) برتولوزى : نحات ايطالى (١٧٢٨ – ١٨١٣) .

وأيد صغيرة ، وَضَعْ فى رأسك أنك لا تَجِدُ أحداً يَكْتَرِث للثورة وأنك لا تَجِدُ أحداً يريد أن يَسْمَعَ حديثاً عنها » .

إيقارسْت غملان محتداً من الصدمة :

« ماذا ! لا يُحَدَّثُ عن الثورة بعد حين ! ... أَولا يُعَدُّ قيامُ الحرية وانتصاراتُ جيوشنا ومجازاةُ الطُّغاةِ حوادثَ تُثيرُ عَجَبَ أبعـد الأعقاب ؟ وكيف نستطيع ألاَّ نُقْرَع بها ؟ ... ماذا ! لقد دام مذهبُ يسوعَ السان كولوتَ نحو ثمانيةَ عشرَ قرْناً ثم يُبْطل مذهبُ الحرية بعد أربع سنين من وجوده ! » .

بليزُ بلهجة المُسْتَعلى :

« أنت فى الخيال ، وأنا فى الحياة ، صَدِّقْنى ، يا صديقى ، إن الثورة مزعجة ، وهى تدوم كثيراً ، ومن تماديها حماسةُ خمسِ سنين ، وعناقُ خمس سنين ، ومذابحُ ، وخطبٌ ، ونشيدُ المارْسِيلْيز ، وإثارةٌ للناس ، وإعدامٌ للأشراف تحت المصابيح ، ووضعٌ للرؤوس على الحِرَاب ، ونساءٌ راكباتٌ فوق المدافع ، وأشجارٌ للحرية معتمرةٌ بقلانسَ حُمْرٍ ، وفتَياتٌ وعجائزُ ذواتُ ثيابٍ بيضٍ مجروراتٌ فى عَرَباتِ أزهار ، وحبسٌ ، ومِقْصَلةٌ ، وإعلاناتٌ ، وباقاتُ ريشٍ ، وسيوفٌ ، وسُتْراتٌ قصيرة ! ثم يُؤْخَذ فى عدم إدراك شىء من ذلك ، وقد رأينا كثيراً من عظماء الوطنيين الذين لم تُوصِلوهم إلى الكابيتول[١] إلا لتَقْذِفُوا بهم من فوق صخرة تارْپيان[٢] كنِكّر[٣] وميرَابُو ولافَايت وبائِى[٤] وپِسْيُون ومانُويل[٥] وآخرين ، ومَنْ يقول لنا إنكم لا تُعِـدُّون أبطالَكم الجُدُد لهذا المصير ؟ . . ومن يَدْرِى ؟ » .

---

(١) الكابيتول : معبد رومة وقلعتها فى الزمن القديم .
(٢) تاربيان : صخرة فى رومة كان يقذف بالمجرمين من فوقها .
(٣) نكر : مالى ووزير فرنسى (١٧٣٢ — ١٨٠٤) .
(٤) بايى : أديب وفلكى فرنسى (١٧٣٦ — ١٧٩٣) .
(٥) مانويل : نائب باريس العام فى دور العهد (١٧٥١ — ١٧٩٣) .

غَمْلانُ بلهجةٍ تَدْعُو بائعَ الصور المطبوعة إلى الحذر : « اذْكُرْهم أيها الوطنى بِلِيزْ ، اذْكُرْ هؤلاء الأبطال الذين نُعِدُّهم للتضحية بهم ! » .

بِلِيزُ واضعاً يَده على قلبـه : « إننى جُمهوريٌّ ومحبٌّ للوطن ، إننى جمهوريٌّ مثلُك ، إننى محبٌّ للوطن مثلُك أيهـا الوطنىُّ إيڤارِسْت غَمْلان ، ولا يُخَامرنى شكٌّ فى إخلاصك للوطن ، ولا أتَّهمك بتقلب الرأى مطلقاً ، ولـكن اعْلَمْ أن كثيراً من الأعمال يَشْهَد بإخلاصى للوطن والمصلحة العـامة ، وإليكَ مبادئى : إننى أثق بكلّ مَنْ يَقْـدِر على خِدْمة الأمة ، وأُطأطئ رأسى أمام الرجال الذين يُعَيِّنُهم الصوتُ العامُّ ليقوموا بشرف السلطة الاشتراعية ذى الخَطَر كمارَا ورُوبِسْـپِير ، وأرانى حاضراً لمساعدتهم ضِمْن وسائلى الضعيفة وأن أُقَدِّمَ إليهم عَوْناً وضيعاً صادراً عن وطنىّ صالح ، وتَشْهَدُ اللِّجان بحَمِيَّـتى ووَفائى ، وقد كنتُ عُضْواً فى جمعية مؤلفة من وطنيين صادقين فَمَرْتُ فرسانَنا الشُّجعان بالعَلَف والهُرْطُمان وجَهَّزْت جنودَنا بالأحذية ، حتى إننى فى هذا اليوم حَمَلْتُ على إرسال ستين ثَوْراً من ڤِرْنُون[1] إلى جيش الجَنُوب بين بلدٍ يَعِيثُ فيـه اللصوص ويَجُول فيه جواسيسُ پِيت وكوُنْدِه[2] ، ولا أقول ، بل أَفْعَل » .

ويُعيد غَمْلان صورَه المـائية إلى محفظته بهدوء ، ويَعْقِد خيوطها ويَضَعُها تحت ذراعه ويقول وهو يُحرِّق عليه الأُرَم[3] :

« إن من التناقض العجيب أن يُعَانَ جنودُنا على حَمْل هذه الحرية بين العالَم

---

(١) فرنون : من مدن فرنسة الصغيرة .

(٢) كوندە : من آل كوندە المشهورين فى فرنسة (١٧٣٦ – ١٨١٨) .

(٣) الأرم : الأضراس ، ويحرق عليه الأرم : يحكها بعضها ببعض من غيظه .

ثم يُخَاسُ بها فى منازلها ببَذْر الكَدَر والذُّعر فى نفوس حُماتها . . . وسلاماً أيها الوطنىُّ بليز » .

و ينتفخ فؤادُ غملانَ غيظاً وغراماً ، ويَرَى ، قبل أن يُوغِل فى الزُقاق الطويل الممتد على طول الأُراتوار ، أن يَعُودَ ليُلْقِىَ نظرةً على القَرَنْفُل الأحمر الزاهر على طَرَفِ نافذة .

هو لم يَقْنَط من سلامة الوطن قَطُّ ، وهو يعارض لا وطنيةَ جانْ بليز بإيمانه الثَّوْرِىِّ ، وذلك مع اعترافه بأن هذا التاجر لا يَزْعُم من غير سببٍ ظاهرٍ أن أهل باريس لا يبالون بالحوادث ، واهاً واهاً ! هو لم يكن غيرَ واثقٍ بأن عدم الاكتراث العامّ يَعْقُب حماسةَ الساعة الأولى و بأنه لن يَرَى جماهيرَ سنة ١٧٨٩ المُجْمِعةَ على أمرٍ واحد ، ولا ملايينَ النفوس المنسجمةِ التى كانت تزدحم حَوْل مِنْبر المتَّحِدين سنة ١٧٩٠ ، والآن ! ليضاعفِ الوطنيون الصالحون غيْرَتهم و إقدامَهم فيُوقِظوا الشعبَ الناعسَ مُخيَّرِين إياه بين الحرية والموت .

ذلك ما كان يُفَكِّر غَمْلانُ فيه ، وكان له فيما يَدُور فى خَلَد إلودْية تثبيتٌ لفؤاده .

ويَصلُ إلى الأرصفة فيُبْصِر انحدارَ الشمس إلى الأُفُق تحت سُحُبٍ كثيفة كالجبال المُكوَّنة من الحُمَم [1] المُتَّقدة ، وكانت سقوف المدينة مُبَلَّلةً بنُورٍ ذهبىّ ، وكان زجاج النوافذ يُلْقِى وَمِيضاً فيُخَيَّل إلى غَمْلانَ أن جبابرةً يقيمون مُطَرِّقين مدينةَ دِيسه النحاسية بأطلال العوالم القديمة الحامية .

وهو إذْ لم يكن عنده كِسْرَةُ خُبْزٍ لأمه ولا لنفسه فإنه يَحْلُم فى الجلوس حَوْل

---

(١) Laves

مائدةٍ مستديرة داعيةٍ للعالَم جامعةٍ للإنسانية المُجَدَّدة ، وهو يُقْنِع نَفْسَه ، منتظراً ، بأن الوطن يُطْعِم ابنَه البارَّ كالأمِّ الرَّؤوم ، ويشتدُّ ضِدَّ ازدراء تاجر الصُّوَر المطبوعة فيهيجُ معتقداً أن رأيَه فى لَعِب الورق الثَّوْرِيِّ أمرٌ جديد جميل ، وأنه يَحْمِل تحت ذراعه ثروةً بصُوَره المائية المُوَفَّقة ، ويُفكّر فى « حَفْرِ دِماهى لها ، فنَنْشُر اللَّعِبَ الوطنيَّ الجديد بنَفْسنا ونبيع عشرةَ آلافٍ منه فى شهر واحد بثمن عشرين فَلْساً لكلّ واحدٍ منه » .

وقد عِيل صَبْرُه تحقيقاً لهذا المشروع فيسير بُخطًى كبيرة على رصيف فِرّاى حيث كان دِمَاهى يقيم فوق الزَّجَّاج .

ويُدْخَل من الدُّكان ، ويُخْبِرُ الزَّجَّاجُ غَمْلانَ بأن الوطنيَّ دِماهى ليس فى بيته ، وما كان هذا لِيُدْهِشَ المصورَ الذى كان يَعْلَم أن صديقه جَوَّالٌ طائش عن مِزاج فَيَحَارُ من قدرته على النحت كثيراً مع الإتقان كالذى يَصْنَع مع قليل مثابرةٍ ، ويَعْزِم غَمْلانُ على انتظاره وقتاً قصيراً ، وتُقَدّم زوجُ الزَّجَّاج إليه كرسيًّا ، وقد كانت ضجوراً كثيرةَ الشكوى من سوء سَيْر الأمور وإن قيل إن الثورة تُغْنِي الزَّجَّاجين بكَسْرِها ألواحَ الزُّجاج .

ويُرْخى الليل سُدُولَه ، ويَعْدِلُ غَمْلانُ عن انتظار رفيقه ، ويستأذن الزَّجَّاجَ فى الذَّهاب ، وبينما هو سائر على البون نوف إذْ يَرَى بُروزَ فرسانٍ من الحَرَس الوطنيّ من رصيف المُورْفُونْدُو وهم يَدُوسون المارّين حاملين مشاعلَ مع صليلِ سيوف مرافقين عَرَبةً جارَّةً إلى المقْصلةِ بتُؤدةٍ رجلاً لم يَعْرِف اسمه أحدٌ ، جارَّةً أولَ محكوم عليه من قِبَل المحكمة الثَّوْرية ، وقد كان يشاهَد مع التباسٍ بين قُبَّعات الحَرَس ، وقد كان يُرَى جالساً مُوثَقاً حاسرَ الرأس مُتَرجِّحَ الهامة مُحَوَّلاً إلى مؤخَّر

العَجَلة ، وقد كان الجلّادُ قائماً قريباً منه مستنداً إلى دَرْبَزِينها ، وكان المارُّون ، وقد وُقِفُوا ، يقولون فيما بينهم إن هذا هو مُجيعٌ للشعب على ما يحتمل فينظرون إليه غيرَ مُبالين ، ويَدْنو غَمْلان فيَتَبَيَّن بَين الحضور دِمَاهِي جادًّا فى شَقِّ الجمهور وفَلْقِ المَوْكِب ، ويناديه ويَضَع يده على كتفِه ، ويلتفت دِمَاهِي ، وقد كان شابًّا جميلاً قويًّا .

وسابقاً كان يقال فى الأكاديمية إنه يَحْمِل رأسَ باخوس على جسم هِرْكول[1] ، وكان أصدقاؤه يُسَمُّونه « بارْبَارُو[2] » لِمَا كان بينه وبين ممثل الشعب هذا من شَبَه .

ويقول له غَمْلان : « تعالَ ، فسأُنبِئكَ بأمرٍ مهمّ » .

دِماهى بشدَّة : « دَعْنِي ! »

ويَفُوه بألفاظٍ مبهمة مترقِّباً دقيقةَ الوثوب :

« أَتَعَقَّب فتاةً باهرةً لابسةً قُبَّعة من مَوْصٍ ، أَتَعَقَّب عاملةَ أزياءٍ مُرْسَلةَ الشَّعر على الظَّهر فتَفْصِلنى هذه العربةُ اللعينة عنها . . . وقد سَبَقَت ، وهى لا تزال على طرف الجِسْر » .

ويحاول غَمْلان أن يُمْسِكه من ثوبه مُقسِمًا أن الأمر مهمّ .

بيد أن دِمَاهِي يَنْساب بين الخيـــل والحَرَس والسيوف والمشاعل ويَتَعقب غادةَ الأزياء .

---

(١) هركول : من أبطال الأساطير لدى اليونان والرومان .

(٢) باربارو : من رجال العهد الجيروندين (١٧٦٧ – ١٧٩٤) .

٤

كانت الشمس فى الساعة العاشرة صباحاً من شهر أبريل تُنْعِش بنورها أوراقَ الشجر الرطيبة ، وكان للهواء الذى لَطَّفَته عاصفةُ الليل عُذُوبَةٌ لذيذة ، وكان يَقطَع سكونَ العُزْلة فى فَتَرَات طويلة فارسٌ يَمُرُّ من رُواق القُوق ، وكان إيڤَارِسْت ينتظر إلوُدْية على مقعد خَشبىّ فى طرف الرُّواق الظليل المقابل لكُوخ لابِلْ لِيلْواز ، وهو لم يَعُد إلى « مصوِّر الغرام » منذ اليوم الذى تلاقت فيه أصابعُهما على نسيج الوِشاح واختلطت أنفاسُهما ، وقد ابتعد عن إلودية فى أسبوع كامل عن عَزْم شامخ وعن حياءٍ ما فتئ يَزِيد جَفَاءً ، وقد أرسل إليها كتاباً رصيناً داجناً ملتهباً عَرَض فيه ما أورثه إياه الوطنىُّ بليزُ من رزايا ، وهو ، إذ يُلجِم غرامَه ويَكْتُم ألمه ، يُذْبِئ بعزمه على عدم العود إلى مخزن الصور المطبوعة ويُظْهِر من إصراره على هذا القرار مالا يمكن عاشقةً أن توافق عليه .

وتَبْدُو إلُودية ذاتَ مزاجٍ معاكس فتميل إلى الدفاع عن متاعها فى كلِّ فرصة وتُفَكّر من فورها فى اجتذاب حبيبها ، وكان أولَ مارأته أن تذهب لزيارته فى منزله ، فى محترَفه بميدان تِيُوْنْفِيل ، ولكنها إذ تَعْلَم أنه ذو طَبْعٍ كَرِيبٍ وتُبْصِر من كتابه أنه هائجُ النفس وتخشى أن يكون جامعاً البنتَ والأب فى غِلاف حقدٍ واحد وأن يكون عازماً على عدم رؤيتها فإنها تَعُدُّ من الصواب أن تجعل له موعداً عاطفيًّا روائيًّا لا يمكنه أن يتخلَّص منه فيُتَاح لها أن تُقْنِع وتَقَع موقع الرِّضوان حيث تأتمر العُزْلةُ معها فى سِحْره وقَهْره .

وكان يوجد حينئذٍ فى جميع الحدائق الإنكليزية وجميع النُّزَه العصرية أكواخٌ شادها مهندسون عارفون مُدارين بها ذَوْقَ الفلاحين والمدنيين ، وكان كُوخ لابِلْ لِيلْوار ، الذى يَشْغَلُه لِمُونادىٌّ[1] ، يستند فى فقره المصنوع إلى بُرْج قديمٍ قُلِّدَتْ أطلالُه تقليداً فنيًّا جَمْعاً بين الفُتُون الرّيفىِّ وسَوْداء الخرائب ، وكان هذا اللِّمُونادِىُّ قد أنشأ ضريحاً تحت صَفْصَافٍ : أقام عموداً تعلوه قارورةٌ لرُفات المَوْتَى ، ويشتمل على كلمة : « من كلِيبُونيس إلى إيزُورِها الوفىّ » ، كما لو كان ذلك غيرَ كافٍ لتحريك النفوس الحَسَّاسة ، وكانت طبقة الأشراف قد أقامت فى الحدائق الموروثة أكواخاً وأطلالاً وضرائحَ عَشِيَّةَ الهلاك رمزاً إلى الفقر والإلغاء والموت ، والآن يُعْجِب الحضريين الوطنيين أن يَشْرَبوا ويرقُصُوا ويُحبُّوا فى الأكواخ الزائفة ، وتحت ظِلّ أروقة الأديار الخَرِبة زوراً ، وبين الضرائح المنصوبة كَذِباً ، وذلك لأنهم ذوو قلوبٍ حَسَّاسة ومملوءون فلسفةً كعاشقى الطبيعة الآخرين وكتلاميذ جانْ جاك .

ويَصِل إِيڤَارِسْتُ إلى المُلْتَقَى قبل الساعة المُعَيَّنة ، وينتظر ، ويَقيس الزمنَ بِدَقَّات قَلبه كرَقَّاص الساعة ، ويَمُرُّ حَرَسٌ سائقاً سُجَنَاءَ ، وتَمْضِى عَشْرُ دقائقَ فتنساب فى الكوخ امرأةٌ لابسةٌ ثوباً ورديًّا حاملةٌ بيدها باقةَ زهرٍ ، كما هى العادة ، مع فارسٍ لابسٍ قَلَنْسُوَةً ذاتَ ثلاثِ قُرَنٍ وثوباً أحمرَ وسُتْرَةً وسِرْوالاً مخطَّطًا ، ويَظْهَرُ الاثنان من مشابهة ذوى الدَّلال أيام الحُكْم السابق ما يُعْتَقَدُ به مع الوطنىّ بلِيزَ وجودُ أخلاقٍ فى الرجال لا تُغَيِّرها الثَّوْرات .

وبعد بضع دقائق تأتى من رُويل[2] أو من سان كلُو[3] عجوزٌ حاملةٌ عُلْبةً

---

(١) Limonadier (٢) رويل : من ضواحى باريس .

(٣) سان كلو : من ضواحى باريس .

أُسطوانية بطَرَف ذراعها مرسومةً بألوان قوية ، فتَجْلِس على المَقْعد الذى ينتظر غَمْلانُ عليه ، وتَضَع أمامها عُلْبتها التى يوجد على غِطائها إبرةٌ لسَحْب الأنْصبة ، فهذه المرأةُ الفقيرة كانت تَعْرِض نصيباً على الصّبيان فى الحدائق ، وهذه المرأةُ كانت بائعةَ « لُهىً » فتبيع كَعْـكاً قديماً باسمٍ جديد ، وذلك لأن « الرُّقاق » كان يُسَمَّى « لُهىً » فى ذلك الحين ، سواءٌ أكان تعبيرُ « الرُّقاق » القديمُ يَصْرِف الذهن إلى معنى النَّذْر والحِـكْر المزعج أم كان يُتْعب عن هَوًى .

و تَمْسَحُ العجوز عَرَق جبينها بطرف مِيدَعها [1] ، وتشكو إلى الله آلامها و تَتَّهم الرَّبَّ بالجَوْر إذْ يَقْسُو على مخلوقاته فى حياتهم ، وكان بَعْلُها يَحْمِل مِطَثَّةً [2] على شاطئ النهر بسـانْ كلُو وَيَتَدَرَّجُ إلى الشَّانْزِليزِه فى كلِّ يوم قارعاً صَنْجه [3] صارخاً . « هذا هو اللَّهْوُ يا سيداتى ! » ، وما كانَ لِيَـكْسِبَ من جميع هذا العمل ما يُقِيمُ به أَوَدَ مَشِيبهما .

وترى الشابَّ الجالس على المقعد مستعدًّا للرِّثاء لها فَتَشْرَح له سببَ مصائبها ، وذلك أن الجمهورية نَزَعَت الخبزَ من أفواه الفقراء بسلبها مالَ الأغنيـاء من غير أن يُرْجى ما يَصْلُح به الحال ، وأن الجمهورية كانت تَعْلَم من دلائلَ كثيرةٍ سَيْرَ الأمور إلى ماتزيد به سوءاً ، وأن امرأةً فى نانْتِر [4] وضعَتْ ولداً له رأسُ ثُعْبَان ، وأن صاعقةً نَزَلت على كنيسة رُوِيل وأذابت صليبَ قُبَّـة جَرَسها ،

---

(١) الميدع (Tablier) : ما يصان به الثوب .

(٢) المطثة : خشبة مستديرة يرمى بها فى أحد الألعاب .

(٣) الصنج : من صفائح النحاس التى تتخذ للطرب .

(٤) نانتر : من مديريات السين بفرنسة .

وأنه رُئى جِنِّيٌّ فى صورة ذئب بغابة شافيل[١] ، وأن رجالاً مُتنكِّرين يَسُمُّون الينابيع ويُلْقُون فى الهواء مساحيقَ تُوجِدُ أمراضاً . . .

ويُبْصِر إيڤارِسْتُ وُثوبَ لُودْيه من عَرَبة ، ويُهْرَعُ إليها ، وَتَلْمع عينا الفتاة فى ظِلِّ قبعتها الموصِيَّة الشَّفَّافِ ، وَتَفْتَرُّ شفتاها ، الحَمْراوان كالقَرَنْفُل الذى تُمسِكه بيدها ، عن ابتسامٍ ، ويَظْهَرُ وِشاحٌ من الحرير الأسود شابكاً على صدرها ، معقوداً على ظهرها ، ويُبْدِى ثوبُهَا الأصفر حركاتِ رُكْبَتيها السريعةَ ويَكْشِف عن رجليها الناعلتين حِذاءً مستوياً ، وكانت وِرْكاها بارزتين تقريباً عن تحرير الثورة قَوَامَ الوطنيات ، وكانت التَّنُّورة[٢] التى لاتزال ناتئةً تحت الخَصْر تخْفِى الأشكالَ بالمبالغة ، وتَسْتُرُ الحقيقةَ تحت صورتها المُوَسَّعَة .

ويَوَدُّ أنْ يتكلَّم ، وتُعْوِزُه الكلمات ، ويَلُوم نفسه على هذا الارتباك الذى كانت إلُودْية تُفَضِّله على أحلى استقبال ، وقد لاحظت أيضاً ، وهذا ماعَدَّته فألاً حسناً ، عقدَه ربطتَه بأمهرَ مما يَقَع عادةً ، وتَمُدُّ إليه يدها وتقول :

« كنت أريد أن أراك وأتحدَّث إليك ، إننى لم أُجِبْ عن كتابك ، فهو لم يَرُقْنى ، ولم أجِدْكَ فيه ، ولو كان أقربَ إلى الطبيعة لكان أقربَ إلى النفس ، ومما يؤذى طَبْعَك وروحك أن يُعْتَقد أنك راغبٌ عن الرجوع إلى «مصور الغرام» لِمَا وقع فيه من جدالٍ خفيف حَوْل السياسة بينك وبين رجلٍ أسنَّ منك كثيراً ، فاعْلَم أنه لايوجد ماتخْشَى معه سوءَ استقبال أبى إياك إذا ما عُدْتَ إلينا ، فأنت لاتَعْرِفه ، أنت لانَعْرِف أنه لايَذْكُر ما قاله لك ولا ما أجبتَه عنه ، نَعَمْ ، إننى

---

(١) شافيل : من بلديات فرنسة .

(٢) La jupe

لا أَدَّعى وجودَ كبيرِ عطفٍ بينكما ، ولـكنه غيرُ حقود ، وأُصرّح لك أنه لايَشْغَل باله كثيراً بك . . . ولابى ، فهو لايُفَـكِّر بغير أموره ومَلاَذِّهِ » .

وتَسِير نحو غِياض الـكوخ ، ويَتَّبعها على مَضَضٍ ، وذلك لعلمه أنها ملتقى الغرام المأجور والهوَى العابر ، وتختار أكثر المواعيد خفاءً .

« وما أكثر ما أقوله لك ياإيڤارست ! إن للصداقة حقوقَها ، أفتعِدُنى أن تستمتع بها ؟ سأُحدّثك كثيراً عن نفسـك . . . وقليلاً عن نفسى إذا كنت تريد ذلك » .

ويُحْضِر اللِّمونَادِىُّ زُجاجةً وأقداحاً ، وتَصُبُّ الشَّراب بنفسها كربَّةِ بيتٍ صالحة ، ثم تقص عليه خَبَرَ صِباها ، وتحدّثه عن جمال أمّها التى تَوَدُّ أن تُشِيدَ بذكرها عن عطفٍ بَنَوِىّ وكأصلٍ لجمالها الخاصِّ ، وتَمْدَح قوة أجدادها عن زَهْوٍ بدمها البرجوازىّ ، وتَذْكُر كيف عاشت بلا حَنَان ولا مُعِين عن فقدٍ لأمها ، الجديرة بأن تُعْبَد ، ابنةً للسادسةَ عشرةَ من سِنِيها ، وتَصِفُ نفسَها كما هى ، تَصِفُها بأنها نشيطةٌ حسَّاسةٌ باسلة ، وتضيف إلى ذلك قولها :

« أَىْ إِيڤَارِسْتُ ! لقد قضيتُ شَبَاباً كثيرَ السَّوْداء كثيرَ العُزْلَة ، فأَعْرِف قيمةَ فؤادٍ كفؤادك ، ولا أَتَخَلَّى ، من تلقاء نفسى ومن غير جُهُود ، عن عاطفةٍ عزيزةٍ علىّ ، عن عاطفةٍ أستطيع الاعتماد عليها كما أعتقد » .

إِيڤَارِسْتُ ناظراً إليها عاطفاً :

« أَوَيمكِن ، يا إلُودْيَه ، أَلاّ أُبالىَ بك ؟ أَوَيُعْتَقَد ذلك ؟ . . » .

ويَتَلبَّث خَشْيَةَ الإسهاب وإساءةِ صداقةٍ مطمئنَّةٍ .

ويَمُدُّ إليها يداً صـغيرة لطيفة يُخْرِجها نِصْـفاً من كُمَّيْن طويلين مُبَطَّنَيْن بمُخَرَّماتٍ ، ويرتفع صدرُه مُتَنَهِّداً طويلاً .

« اعْزُ إلىّ ، يا إيڤارِسْتُ ، جميعَ المشـاعر التى تريد أن أَحْمِلَها إليك ، وأنت لاتكون مُخادعاً نفسَك حَوْل ما يُـكنُّه قلبى » .

— إلُودْيه ! إلُودْية ! أَوَ تُـكَرِّرين ما قُلْتِه آنفاً إذاما عَلِمْتِ ...» .

ويتردَّد .

وتُطْرِق .

ويُتِمُّ مُخافِتاً :

« . . . اننى أُحِبُّـــك ؟ »

وتَحْمَرُّ حين تَسْمَع هـذه الـكلمات ، تَحْمَرُّ عن سرور ، وبينا تَنِمُّ عيناها على لَذَّةٍ ناعمة ، إذْ تَرْفَع ابتسامةٌ هزليَّةٌ زاويةً من شفتيها على الرغم منها ، وتَسْبَح فى الخيال .

« وهو يعتقد أنه أولُ مَنْ عَرَض نفسه ! . . . ومن المحتمل خَوْفُه أن يكون قد أغضبنى ! . . . » .

وتقول له برِفْقٍ :

« إذَن ، لم تَرَ أننى كنتُ أُحِبُّك يا صديقى ؟ » .

ويَظُنَّان أنهما وحيدَيْن فى العالَم ، ويَرْفَع إيڤارِسْت عينيه ، فى أثناء وَجْدِه ، إلى الفلَك الساطع نوراً وزَرَقاً :

« انْظُرِى إلى السماء كيف ترانا ! فالسماءُ رائعةٌ عَطُوفٌ مثلكِ أيتها الحبيبة ، ولها مِثْلُ سَنَائكِ ولُطْفِك وابتسامِك » .

ويَشْعُر بأنه التحم بالطبيعة كلِّها ، فأَشركها فى سروره ومَجْده ، ويَرَى أزهارَ الكَسْتناء تتلألأ كالشَّماعِد (١) المُشَعَّبة ومشاعلَ الحَوَر الكبيرة تلتهب احتفالاً بخِطْبتهما .

ويبتهج بقدرته وكِبَره ، وترى فى ضعفها امتيازاً منه بكونها أكثرَ رِقَّةً وغَيداً ولِيناً ، وهى لم تتمالك بعد أن مَلَكته أن خضعت له ، والآن ، وقد سيطرت عليه ، اعترفت فى شخصه بالسيد والبطل والرَّبِّ وصارت تضطرم إطاعةً له وإعجاباً به وتقديماً لنفسها إليه ، ويقبِّلها تحت ظِلِّ الغَيْضَة قُبْلَةً طويلةً حارَّة قَلَبَتْ رأسَها تحتها ، وتُحِسُّ أن جميع بدنها يذوب كالشمع بين ذراعَىْ إيڤَارِسْت .

ويتطارحان زمناً طويلاً أيضاً غافلَيْن عن العالَم ، ويُعَبِّر إيڤَارِسْت عن آراءٍ مبهمة خالصة تُدْهَش منها إلُودْية ، وتُحَدِّث إلُودْية عن أمورٍ حُلْوَةٍ نافعةٍ خاصة ، وترى أنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر مما صنعت فتنهض عازمةً وتُعْطى صديقَها القَرَنْفُلاتِ الحُمْرَ الثلاثَ التى أزهرت فى نافذتها ، وتَدْخُل العربةَ التى أتت بها مُسْرِعةً ، وكانت هذه عربةَ كِرَاء صفراء عاليةَ العَجَل فلا يوجد فيها ، ولا فى سائقها ، ما يستوقف النظر ، غير أن غُلاماً لا يستأجر عَرَباتٍ هو ومَنْ حَوْله وهو حين رآها على هذه العَجَل الكبيرة السريعة ضاق صدره وساورته ظُنُونٌ أليمة ، ساوره ضَرْبٌ من الهَوَس الذهنىّ ولاح له أن حِصان الأجرة يَمْضِى بإلُودْية إلى ما وراء الأشياء الحالية والزمن الحاضر ، إلى مدينةٍ غنية ذاتِ بهجة ، إلى منازلَ زاهيةٍ وملاذَّ لا يَنْفُذها أبداً .

---

(١) الشماعد : جمع شمعدان ، وهو المنارة يركز عليها السراج وكلمة دان فارسية .

وتتوارى المربة ، ويَنْجَلي عن إيڤارِسْت ارتباكُه ، بَيْدَ أنه يَرْسُب فيه غَمٌّ أصمُّ ، فهو يُحِسُّ أن ساعاتِ المحبة والسُّلْوان التي قضاها لا يُعيدها أبداً .

ويَمُرُّ من الشَّانْزِليزه حيث تَخيطُ أو تُطَرِّز نساءٌ لابساتٌ ثياباً زاهيةً جالساتٌ على كَرَاسٍ خشبية على حين يَلْعَب أولادُهنَّ تحت الشجر ، ويُذَكِّره بائعٌ للأنصبة حاملٌ صُندوقاً على شكل الطبل ببائع الأنصبة فى رُواق القُوف فيلوح له مرورُ جيل من حياته بين هذين اللقائين ، ويَقْطَع ميدانَ الثورة ، ويَسْمَع فى حديقة التويلْرى من بعيدٍ لَغَطاً حول ادعاء أعداء الثورة سكوتَ هذه الأصوات المتحدة إلى الأبد ، ويُسْرِع بين الجَلَبة الزائدة ويَبلُغ شارع أُنُوره حيث يَجِدُ جُمهوراً من الرجال والنساء يَهْتِف : « عاشت الجمهورية ! عاشت الحرية ! » ، وكانت جُدُر الحدائق والنوافذُ والشُّرَفُ والسقوف زاخرةً بناظرين يُحَرِّكون قلانسَهم ومناديلَهم ، ويَسبِقُ فَأْسِيٌّ يُوَسِّع للمَوْكب رجلاً صفراوياً متوَّجاً بإكليل من بَلُّوط لابساً مِعْطَفاً أخضرَ قديماً ذا قَبَّةٍ[1] من جلد السَّمُّور ، ويحيط بهذا الرجل فريقٌ من ضباط البلدية والحرسِ الوطنيِّ والمدْفعيين والشُّرَط والفرسان ، ويتقدم هـذا الرجلُ أبناءَ الوطن على مَهْلٍ وتُلْقى النساء عليه أزهاراً ويُجيلُ عينيه الصفراوين الثاقبتين حَوْلَه كما لو كان يبحث فى هـذا الجَمْع الخَمِس عن أعداء الشعب لِيَشِيَ بهم وليعاقب الخائنين ، ويكون غَمْـلانُ حاسرَ الرأس فيَخْلِط صوتَه بمئة ألف صوت ويَهْتِفُ :

« عاش مارا ! »

ويَدْخُل الغازى بَهْوَ مجلس العهد كالقَدَر ، وبينما كان الجمهور يسير رُوَيْدًا

---

(١) Collet

كان غَمْلانُ ، الجالسُ على نَصَبٍ فى شارع أُنورِه ، يَحْبِس دقاتِ قلبه ، وما أتى لرؤيته يملؤه وَجْداً سامياً وحماسةً شديدة .

وكان يُمَجِّدُ مارَا ويحبُّـه ، وكان مارَا ، المريضُ والنارىُّ العُرُوق والمُضْنَى بالقُرُوح ، يَنْهَـك بقيةَ قُوَاه فى خدمة الجمهورية ، وكان يستقبله فى منزله الحقيرِ المُفَتَّح للجميع مُرَحِّبًا ، ويُـكَلِّمه عن المصلحة العامة بغَيْرة ، ويسـأله عن صُوَر الأشرار أحياناً ، وكان غَمْـلان يقضى العَجب من كون أعداء هذا البارّ يُعِدُّون فَوْزَه بائتمارهم به ليقتلوه ، وكان يُبَارِك للمحكمة الثورية التى بَرَّأت صـديقَ الشعب فأعادت إلى مجلس العهد أنقى مشترعيه وأكثرَهم غَيْرَةً ، وكان يرى بعينيه هذا الرأسَ المشتعل حُمَّى والمحاطَ بإكليلٍ وطنىّ ، هذا الوجهَ المُوَشَّى بزهوٍ مُنَزَّه وحُبِّ صُلْبٍ ، هذا المُحَيَّا المضرورَ المحلول القادر ، هذا الفمَ المنقبض ، هذا الصدرَ الواسع ، هذا القوىَّ المُنَازِعَ الذى يلوح أنه يقول لأبناء وطنه من فوق المركَب الحىّ : « اقتدوا بى ، أيهـا الوطنيون ، حتى الموت » .

ويُقْفِرُ الشارع ، وَيُرسِلُ الليلُ ستائرَه ، ويَمُرُّ مُشْعِل المصابيح مع مَشْعَله ، ويقول غَمْـلانُ مخافتاً :

« حتى الموت ! . . . »

٥

يَلْقَى إِيڤَارِسْتُ ، فى الساعة التاسعة صباحاً ، إلُودْيَة منتظرةً إياه على مقعدٍ فى حديقة اللُّكْسَنْبُرْغ .

ويتقابلان فى كلّ يوم منذ شهر ، يجتمعان منذ أقَرَّ كلٌّ منهما بحبه للآخر : يلتقيان مُتَحاجِّيْن فى « مصوّر الغرام » أو محترَفِ ميدان تِيُوْنڤِيل مع احترازٍ كان يَفْرِضه على ائتلافهما طبعُ وطنيٍّ صالح عاشقٍ رزينٍ مؤمنٍ بالله دون الوحى مستعدٍّ أن يتزوج خليلتَه أمام القانون أو أمام الله وحدَه كما تمليه الأحوال ، على أن يقع هذا عَلاَنِيَةً ، على أن يَقَع هذا فى وَضَح النهار ، وتَعْرِف إلُودْيَة ما ينطوى عليه هذا العَزْم من مَكْرُمة ، ولكنها إذْ تيأسُ من زواجٍ يَجْعَله كلُّ شىء متعذّراً وتَتَمنَّع عن انتهاك آداب المجتمع فإنها ترى فى صميم فؤادها قِراناً يكون ملاذاً بخَفَائه ويصير محترماً بدوامه ، وهى تطمع أن تتغلَّب ، ذاتَ يومٍ ، على وساوس عاشقٍ مُوَقَّر ، وهى لا تريد تأخيرَ ما ترى إبداءه له أمراً ضروريًّا ، فتَطْلُب منه ساعةَ محادثة فى الحديقة القَفْرِ القريبة من دَيْر شارْتْرُو[1] .

نظرتْ إليه برقةٍ وإخلاص ، وتناولتْ يدَه ، وأجلسته بجانبها ، وكلمته جامعةً حواسَّها :

« بلغتُ من تقديرك مالا أُخفى معه أمراً عنك يا إيڤَارِسْت ، وأعُدُّنى كُفُواً

---

(١) هو دير منظمة الرهبان التى أنشأها مار برونو سنة ١٠٨٤ .

لك ، ولا أكون كذلك إذا لم أَقُلْ لك كلَّ شىء ، فاسمَعْ لى وكُنْ حاكمى ، لا أَجِدُ ما ألوم نفسى عليه من عملٍ ساقط أو دَنِىء أو غَرَضىّ ، لقد كنتُ ضعيفةً ساذجةً . . ولا تَنْسَ ، يا حبيبى ، ما أنا فيه من أحوال صعبة ، وأنت تَعْلَم أننى فقدتُ أمى ، ولم يُفَكِّرْ أبى ، الذى كان شابًّا ، فى غير ملاذِّه ولم يُبَالِ بى مطلقاً ، وقد كنتُ سريعةَ الانفعال ، وقد حَبَتْنى الطبيعة قلباً رقيقاً ونَفْساً كريمة ، وعلى ما كان من عَدَم بُخْلها علىَّ بإدراكٍ سليم وَكِيدٍ كانت العاطفة تتغلب على العقل فىَّ ، واأسـفَا ! لاتزال تتغلب عليه إذا لم يتفقا على هِبَة نفسى لك تماماً وإلى الأبد يا إِيڤَارِسْت ! » .

وتُعْرِب عما فى نفسها برصانة واعتدال ، فقد كان كلامها مُعَدًّا ، وقد كانت عازمة على الاعتراف منذ زمن طويل ، وذلك لأنها كانت صريحة حريصة على اتباع جانْ جاك ، ولأن من الصواب قولُها فى نفسها : « سيَعْلَم إيڤَارِسْت ذات يوم من الأسرار مالستُ مؤتمَنةً عليه وحدى ، فالاعترافُ أَجْدَى لى ، وحريةُ الإقرار أجدرُ بى ، فيَعْلَم به ما يَعْرِفه يوماً ما عِرفاناً يخْزينى » ، وبما أنها سريعة الانفعال كما كانت ، وبما أنها خاضعةٌ للطبيعة ، فإنها لم تَشْعُر بكبير إثم ، وكان اعترافُها أقلَّ إيلاماً لها ، ومع ذلك فإنها نَوَت ألاَّ تقول غيرَ الضرورىّ .

وتتـأَوَّه : « آه ! لِمَ لَمْ تأتنى ، يا إيڤَارِسْتُ العزيز ، فى تلك الساعات التى كنتُ فيها مُهْمَلَةً وحدى ؟ ... » .

ويتمسّك إيڤَارِسْتُ بحَرْفِيَّة طلبِ إلُودْية أن يكون قاضيَها ، ويستعدُّ أنْ يمارسَ العدلَ الأهلىَّ عن طبيعةٍ وتربيةٍ أدبية ، ويَتَهَيَّأ لتَلَقِّى اعترافاتِ إلُودْية .

وتتردَّد ، ويشير عليها بالـكلام .

وتقول بلا تَصَنُّع :

«وَجَدنى ذاتَ جاذبيةٍ شابٌّ كان يُوجَد بين معايبه صفاتٌ طيبة ، ولا يُبْدِى غيرَ هذه ، فعُنِىَ بى عنايةً مستمرة تُثير الحَيْرة ، وقد كان فى رَيْعَان حياته ، وكان مملوءاً ظَرْفاً ، وكان متصلاً بنساءٍ فاتنات لم يَكْتُمْنَ عبادتَهن له ، ولم أَكُ لأبالىَ به لجمالِه ولا لذكائه ... وقد استطاع أن يَمْسَنى جاعلاً الحُبَّ شاهداً ، وكنت أعتقد أنه يُحِبُّنى فى الحقيقة ، وظَهَرَ ناعماً مُتَعَجِّلاً ، ولم أطلب من غير فؤاده عهداً ، وكان فؤادُه متقلِّباً ... لا أتهم غير نفسى ، وهذا هو اعترافى ، لا اعترافُه ، ولا أشكوه ما أصبح غريباً عنى ، آه ! يا إيڤَارِسْت ، هو فى نظرى كأنه لم يكن قَطُّ » .

وتَسْكُت ، ولم يجب غَمْلانُ ، ويَتَكَتَّف ، ويَشْخَصُ بصرُه داجناً ، ويُفَكِّر فى خليلته وأخته جُولْية معاً ، وكانت جُولْية قد انقادت لعاشق أيضاً ، وقد أَغْضَت عن اغتصابها ، ولكنْ على وجهٍ يخالف أمرَ إلُودْيه البائسة كما يَرَى ، ولكنْ عن غير اتباع غَىِّ فؤادٍ حَسَّاس ، بل بحثاً عن النفائس والملاذِّ بعيدةً من الأهل ، وقد دانَ أختَه لشدته ، ويميل إلى الحكم على خليلته .

وتعود إلُودْية إلى الكلام بصوتٍ عَذْبٍ جدًّا :

« لقد كنتُ مُشْبَعَةً من الفلسفة ، وكنتُ أظن أن الرجال صالحون طَبْعاً ، ومن شقائى أننى لَقِيتُ عاشقاً لم يَتَخَرَّج فى مدرسة الطبيعة والأخلاق ، لقيت عاشقاً جعلت الأوهامُ الاجتماعية والطموحُ والعُجْبُ والعِزُّ الزائف منه أَثَرِيًّا [1] غادراً » .

ويؤدى هذا الكلامُ المحسوبُ إلى الأثر المطلوب ، وتَلِين عَيْنا غَمْلان ، ويسأل :

« من هو مُغْوِيكِ ؟ أَوَ أَعْرِفُهْ ؟ » .

---

(١) Egoïste

— أنت لا تَعْرِفه .

— اذْكُريه .

كانت قد أبصرت هذا الطلب ، وعزمت على عدم تَلبيته .

وأَدْلت بالأسباب :

« أرجو أن تَرْفُقَ بى ، وقد تكلمتُ عنه كثيراً من أَجْلِكَ وأجلى »

ويُصِرُّ ، وتقول :

« تقضى مصلحةُ غرامنا المقدسةُ أَلاَّ أقول لك ما يُعَيِّن فى نفسكَ هـذا ... الغريب ، ولا أُريد أن أُلقىَ طيفاً على غَيْرتك ، ولا أريد أن أجعـل ظِلاً ثقيلاً بينى وبينك ، ولا أُعَرِّفك برجل نَسيتُـه » .

ويُلِـحُّ غَمْلان عليها لتذكر اسمَ هذا الغاوى ، وهـذا هو اللفظ الذى يستعمله مُصِرًّا ، وذلك لأنه لا يَشُكُّ فى أن إلودية أُغْوِيَت وخُـدِعَت وغُرَّت ، وذلك لأنه لم يخْطُر بباله غيرُ هذا ، وذلك لأنه لم يَلُحْ له أنها سارتْ مع الهـوى ، مع الشهوة الجامحة فأجابت نداءَ البَدَن ، وذلك لأنه لم يتصوَّر أن هـذه الشَّهَّاءَة الغَيْـداء ، أن هذه الضحية الحسـناء ، عَرَضَتْ نَفْسَها ، وذلك لأن اقتناع ذكائه يقتضى أن تكون قد أُخِذَت بالقوة أو الحيلة وأن تكون قـد أُخِذَت عَصْباً وأُلقيت فى أشراكٍ منصوبة تحت جميع خُطاها ، وقـد وضع لها أسئلةً موزونةً نَصًّا ، ولـكن مع الدقة والإزعاج والتضييق ، ويسألها كيف حدثت تلك العلاقة ، وهل كانت طويلة أو قصيرة ، وهل كانت هادئة أو مُـكَدَّرة ، وما هو الوجه الذى قُطِعَتْ به ، وهو لم ينقطع عن العَوْد إلى السؤال عن الوسائل التى استعملها هذا الرجل لإغوائها كما لو كان قد اتخَـذ كلَّ

عجيب غريب فى هذا السبيل، وتذهب جميعُ هذه الأسئلة أدراجَ الرياح ، فقد التزمت جانب الصمت مع إصرارٍ عَذْب ضارع ، ومع فمٍ مقفلٍ وعينين ضخمتين من الدمع.

وبما أن إيڤارِسْت قد سأل عن مكانه فى الوقت الحاضر على الخصوص فقد أجابت :

« لقد غادر المملكة » .

وتستدرك بشدَّة :

« ... فرنسة » .

غَمْلان صارخاً : « مهاجر ! » .

وتنظر إليه صامتةً مطمئنةً آسفةً أن تراه يبتدع حقيقةً ملائمة لأهوائه السياسية ويُسْبغ على غَيْرته لوناً يعقو بيًّا بلا داعٍ .

والواقعُ أن عاشقَ إلُودية كان ساعياً كاتباً صغيراً لدى النائب العام وكان غلاماً وسيماً مَيسُوناً [1] ، وكانت إلُودْية عابدةً له فتُلْهب ذكراه أحشاءها حتى بعد انقضاء ثلاث سنين ، وكان يَبْحَث عن النساء المُثْريات المُسنَّات ، فعَدَل عن إلودية إلى سيدةٍ خبيرةٍ تكافئه على أهليَّاته ، ويَدْخُل بلديةَ باريس بعد إلغاء الخِدَم ، ويكون الآن فارساً من السَّانْ كُولُوتْ وعاشقاً لامرأةٍ من صواحب الألقاب فى العهد السابق .

ويقول غَمْلانُ مكرِّراً : « شريف ! مهاجر ! تحترز من إزالة ضلال ، لم تَرْغَب أن تُعْرَف الحقيقةُ كاملةً ، وقد هَجَرَكِ دَنيئاً ؟ » .

وتُميلُ رأسها .

ويَضُمُّها إلى قلبه ، ويقول :

---

(١) الميسون : الغلام الحسن الوجه والقد .

« أَىْ ضحيةَ فساد النظام الملكى العزيزة ، سينتقم لك حُبّى من هذا القبيح ، وهل يجمعنى الله به ؟ وهنالك أَعْرِفه ! » .

وتُدير رأسها حزينة باسمةً خائبةً معاً ، وقد وَدَّتْ لو يكون أكثرَ ذكاءً وأعظمَ طبعاً وأشدَّ قسوةً ، وتَشْعُر بأنه لا يَعْفُو بسرعة إلاَّ لأن السِّرَّ الذى أباحته لم يُثِرْ فيه واحدةً من تلك الصُّوَر التى تُؤذى الشَّهَاوَى ، ولأنه لم يَرَ فى هذا الإغواء غيرَ أمرٍ خُلُقى واجتماعىّ .

وينهضان ، ويسيران فى مَمَرَّات الحديقة الخضْر ، ويقول لها إنه يُقَدِّرها أكثرَ مما يألَمُ لها ، ولا تَطْلُب إلُوْدْية هـذا المقدار ، وهى تُحِبُّه مع ما هو عليه ، وهى تُعْجَب بعبقريته الفنيّة التى تراها ساطعةً فيه .

ويَخْرُجان من اللُّكْسَنْبُرغ ، ويُلاَقيان أوباشاً حَوْلَ دار التمثيل الوطنىّ بشارع الإيغَاليته ، وما كان هـذا ليُلْقِىَ حيرةً فى نفوسهما ، فقد كان يسود أكثرَ الأقسام وطنيةً اضطرابٌ كبير منذ بضعة أيام ، وقد كان يُوشَى هنالك بحزب الأُورْليَان وشركاء بريسُّو الذين كانوا يأتمرون بباريسَ ليَهْدِموها ويَقْتُلوا الجمهُوريين ، وكان غَمْلان نفسهُ قد أمضى ، قبل حين ، عريضةَ الهيئة الثورية التى طُلِب فيها طردُ الواحد والعشرين .

وكان عليهما أن يجاوزا عند مرورهما من تحت القَوْس ، التى تَرْبِط دارَ التمثيل بالمنزل المجاور ، جَمْعاً من الوطنيين اللابسين سُتَراً والذين كان يَخْطُب فيهم من فَوْق الرُّوَاق جنديٌّ شابٌّ جميلٌ مُحبَّ پرَاكْسِيتل[1] تحت خُوذَته المصنوعة من جلد النَّمِر ، وكان هذا الجنديُّ الفاتن يَتَّهم صديقَ الشعب بعدم الاكتراث ، ويقول :

---

(١) براكسيتل : نحات يونانى مشهور ولد حوالى سنة ٣٦٠ قبل الميلاد .

« أنت نائم يا مارا ، والاتحاديون يصنعونَ لنا قيوداً ! » .

ولم تَـكَدْ إلُودْية تجيل ناظريْها حولَه حتى قالتْ بشدة :

« تعالَ يا إبقَارِسْت ! » .

و تقول له إن الُجمهور يخيفها ، و إنها تخْشَى أن يُغْمَى عليها من الزّحام .

و يُغادران ميدان الأمة ، و يُـقْسمان على حُبّ أبدىّ .

و يُهْـدى الوطنىُّ برُوتُو إلى الوطنية غَمْـلان ديكاً رائعاً مُسَمَّناً فى ساعة باكرة من ذلك الصباح ، ومن عدم الحَذَر أن يقول كيف أحرزه ، وذلك لأنه أخذه من سيدةٍ بالسّوق كان يقوم بأمورها الـكتابية من جهة الأُسْتاش ، ومما كان يُعْرَف أن سيدات السّوق كُنَّ ذواتِ مشاعرَ ملـكيةٍ و يُراسِلْنَ المهاجرين ، وتأخذ الوطنية غَمْـلانُ الديكَ شاكرةً ، ومن المتعذر أن يُحْصَل على مثل هـذه البضاعة فى ذلك الحين ما دامت أسعار القُوت تزيد ، وكان الشعب يَخْشى المجاعة ، وكان يقال إن الأريستوقراطيين يَتَمَنَّونها و إن المحتكرين يُعِدّونها .

و يُرْجَى من الوطنىّ برُوتُو أن يتناولَ نصيبَه من الديك غَداءً ، و يُلَبّى الدعوةَ و يُهَنِّئُ مُضَيِّفَتَه برائحة الطَّبْخ اللذيذة التى تُشَمُّ عندها ، والواقعُ أن محترَف المصوّر كان يَنْشُرُ ذَفَرَة (١) مَرَقٍ دَسِم .

و تُجيب السيدة الساذجة : « إنك صالحٌ أيها السيد ، وقد أردتُ إعدادَ المعدَة لتَقَبُّل ديككَ فصنعتُ حَسَاءً من الُخضَر مع بُشَارَةٍ من شَحْم الخنْزير الأصفر وعَظْمَةِ ثَوْرٍ كبيرة ، فلا شىء يُطَيِّبُ الحَسَاءَ كالعَظْم الـكثير المُخّ » .

الشائب برُوتُو : « هذا قولٌ جميل أيتها الوطنية ، ومن الصواب أن تُعِيدِى هذه العظمةَ الفاخرةَ غداً ، و بعدَ الغد ، و بقيةَ الأسبوع ، إلى القِدْر فلا تنقطع

(١) الذفرة : الرائحة الشديدة .

رائحتها عن السَّطْع ، وقديماً كانت عَرَّافة بَنْزُوسْت تَفْعل هذا ، فتصنع حَسَاءً من الكُرُنْب الأخضر مع بُشَارَةٍ من شحم الخنزير الأصفر وقليلٍ من قديم الصَّعْتر ، وهذا ما يُذْكَرُ فى بلدها الذى هو بلدى عن العَظْم المُخِّىِّ اللذيذ المُغَذّى » .

الوطنيـة غَمْلان : « أَوَ لم تكن هذه السيدة التى تُحَدِّث عنها ، أيها السيد ، على شىء من الحِرْص باستعمالها العظمةَ الواحدة زمناً طويلاً ؟ » .

برُوتُو : « لقد كانت مقتصدةً عن فَقْرٍ وإن كانت عَرَّافة » .

ويَدْخُل إِيقَارِسْت غَمْلانُ آنئذٍ مضطرباً من الاعترافات التى تَلَقَّاها راجياً أن يَعْرِف مَنْ هو غاوى إلُوذْية حتى ينتقم للجُمهورية ولغرامه منه .

ويعود برُوتُو إلى حديثه بعد التحية المعتادة :

« من النـادر أن يُثْرِىَ من يتخذون العِرافَة مِهنةً ، فلا تَلْبَث حِيَلُهم أن تُعْرَف ، وما يتذرَّعون به من خِداعٍ يَجْعَلهم ممقوتين ، ولـكن يجب أن يُبْغَضُوا أكثرَ من ذلك إذا ما أَخْبروا بالمستقبل حقًّا ، وذلك لأن حياة الإنسـان تصبح ثقيلةً لاتُطَاق إذا عَرَف ما يُصيبه ، وذلك لأنه يُبْصِر الشُّرُورَ التى يألَم منهـا مُقَدَّماً ، فلا يتمتع بالخيرات الحاضرة التى يَتَمَثل خاتمتها ، والجهلُ هو الشَّرْطُ اللازم لسعادة الناس ، ويجب أن يُعْتَرَف بأنهم يقومون به غالباً ، ونجْهَـل أمرَنا تقريباً ، ونجهل أمر غيرنا تماماً ، ولنا سَكِينَةٌ بالجهل ، ولنا سعادةٌ بالـكَذِب » .

وتَضَع الوطنيةُ غَمْلانُ الحَسَاءَ على المائدة ، وتَتْلو دعاءَ الطعام ، وتُجْلِس ابنَهَا وضيفَهَا ، وتبدأ بالأكل قائمةً مُمْتَنِعَةً عن شَـغْل المـكان الذى عَرَضه الوطنىُّ برُوتُو عليها بجانبه ، وذلك لأنها تَعْرِف ماذا يُلْزِمها به واجبُ الإكرام كما تقول .

٦

لم تَهُبَّ نَسْمَةٌ فى الساعة العاشرة صباحاً ، وكان الشهر شَهْرَ يوليه الذى لم يُعْرَف مثلُ حَرِّه قَطُّ ، وفى شارع القُدْس الضيق ينتظر نحوُ مئةٍ من وطنيي القِسْم مُصْطفين عند باب الخَبَّاز تحت رَقابة أربعةٍ من الحَرَس الوطنىِّ كانوا يُدَخِّنُونَ غَلاَيينهم (١) راكزين سلاحَهم .

وكان مجلس العهد قد وَضَع الحد الأعلى للأثمان فلم تَلْبَث الحبوبُ والدقيق أن تواريا ، فصار الباريسيون يَنْهَضون قبل النهار إذا أرادوا الطعام كما كان بنو إسرائيل يَصْنعون فى التِّيه ، وكان جميع هؤلاء الناس ، وكان هؤلاء الرجالُ والنساء والأولاد المُتَراصّون تحت سماءٍ من رَصاص ذائب يُحْمِى مُتَعَفّناتِ الجداول ويُثيرُ روائحَ العرَق والأدران ، والمتدافعون يتساءلون ويتناظرون مع ما يُمكن الآدميين أن يَشْعُرُوا به تجاه بعضهم بعضاً من نفور وكَرَاهية ومصلحة ورغبة وعدمِ اكتراث ، ويُعْلَمَ عن تجربةٍ أليمة عدمُ وجود خُبْزٍ للجميع ، ويحاول آخِرُ مَنْ حَضَر أن ينسابَ إلى الأمام ، ويتذمَّر مَنْ خَسِرَ دَوْرَه ويَغْضَب ويطالب بحقه المهضوم على غير جَدْوَى ، وتَستعمل النساء مَرَافقهن وظهورَهن للمحافظة على مكانهن أو لنَيْل ما هو أحسن منه ، وإذا ما أصبح الزِّحام خانقا تعالى صوتُ : « لا تَدْفَعُوا ! » ، ويَحْتَج كلُّ واحدٍ بقوله إنه دُفِع .

---

(١) Pipes

ويرَى وكلاء القسم المُرْسَلُون اجتنابَ هذه الفوضى اليومية فيَرْبِطُون حَبْلا بباب الخبَّاز يَلْزَم به كلُّ واحدٍ دورَه ، غير أن الأيدى المتدانية تتلاقى على الحبل وتتنازع ، فكان مَنْ يترك الحَبْل لا يَتَمَكَّن من إمساكه ثانيةً ، وكان الساخطون أو الهازلون يقطعونه فيُعْدَل عنه .

وكان يُغَصُّ فى ذلك الذَّنَب ، وكان الموتُ يَلُوح فيه ، فيتبادل أفرادُه الأفاكيهَ ، ويُخْلَع العِذَار ، وتُصَبّ الشتائم على الأشراف والاتحاديين الذين هم سببُ الشَّرِّ ، وإذا مَرَّ كَلْبٌ دعاه الدَّاعِبُون بيتَ ، ومما كان يَحْدُث أن تُدَوِّى ضربَةُ كفّ قوية من وطنيةٍ على خَدّ وَقِح وأن تَتَنَهَّد فى الوقت نفسه خادمةٌ فتاةٌ متأنِّثةٌ ناعسةُ العينين مفتوحةُ الفمِ قليلاً لاعتصارها من مجاورٍ لها ، ومما كان يَحْدُث أن يُنْشِد فريقٌ من الخُلَعاء نشيدَ « لا ضَيْر ... » على الرغم من احتجاج شيخٍ يعقوبىٍّ مَغِيظٍ من المخاطرة بنشيدٍ كهذا يُعَبِّر عن الإيمان الجُمهوريِّ بمستقبل عدلٍ وسعادة ، وذلك إلى كلّ قولٍ وكلّ حركة وكلّ وَضْعٍ يُنَبِّه ما فى الفرنسيين اللّطَاف من مِزاجٍ ماجن .

ويَحْضُر إعلانيٌّ حاملٌ سُلَّمَه تحت ذراعه ليُلْصِق على جدارٍ أمام الفُرْن إعلاناً من البلدية حَوْلَ تقسيم اللَّحْم فى المَسْلَخ ، ويَقِفُ كثيرٌ من المارِّين لقراءة الورقة التى لا تزال لَزِجةً ، ويقول بائعُ كُرُنبٍ ، حاملٌ قُفَّتَه على ظهره ، بصوته الأجشّ المتقصِّف :

« لقد ذهبت البقرات السِّمان ! فلننظّف المصارين » .

وإن الأمر لكذلك إذ تَفُوح رائحة كريهة شديدة من بالوعة فتَمْقُس[1]

---

(١) مقست النفس : اضطربت حتى تكاد تتقيأ .

نفوسُ كثيرٍ من الحاضرين ، ويُغْمَى على امرأة فتُسَلَّمَ إلى اثنين من الحَرَس الوطنيِّ فيَحْمِلانها إلى تحت مِضَخَّة بعيدةٍ بضْعَ خُطُوات ، وتُسَدُّ الأنوف ، ويَعْلُو ضجيجٌ ، ويُتَبادَل كلامٌ مملوءٌ غَمًّا وذُعراً ، ويُتَساءَل عن حيوانٍ دُفِنَ هنالك ، أو عن سُمٍّ دُسَّ هنالك غَدْراً ، أو عن شريفٍ أو قَسٍّ من قَتْلَى سبتمبر نُسِيَ فى سِردابٍ مجاور .

« إذَنْ ، وُضِع شيءٌ من ذلك هنالك ؟ » .

— وُضِع شيءٌ من ذلك فى كلّ مكان !

— وَجَبَ أن يكون ذلك من شاتْليه[1] ، وقد رأيتُ فى الثانى ثلاثمئة مكدَّسين على جسر شانْج .

وكان الباريسيون يَخْشَوْن انتقامَ أنصار العهد السابق منهم بأن يَسُمُّوهم بعد أن قُتِلُوا .

ويأتى إيڤارِسْت غَمْلان ليَصْطَفَّ ، فقد أراد تجنيب أمِّه العجوز متاعبَ الانتظار الطويل ، ويرافقه جارُه الوطنيُّ برُوتو هادئاً باسماً ، ويكون كتابُ لُوكريسَ فى جيب رِدنْغُوته البُرْغوثِيّ اللون ، فى هذا الجَيْب الفاغر فاه .

ويُثْنِي الشائب الساذج على هذا المنظر ، كأنه مجلسُ فُسَّاقٍ جديرٌ بأن تَرْسُمه ريشةُ تينْيِيه[2] عصريٍّ ، ويقول :

« إن هؤلاء العَتَّالةَ والهَذِراتِ أكثرُ هَزْلاً من اليونان والرومان الأعِزَّاء على مصوِّرينا اليوم ، وأما أنا فقد تَذَوَّقتُ المِنْهاجَ الفلمنكيَّ » .

والذى لا يَذْكُره مطلقاً ، عن حكمةٍ وذوقٍ سليم ، هو أنه كان يَمْلِك رُواقاً للصور الهولندية لا يَعْدِله غيرُ غرفةِ مسيو دُوشْوَازُول فى عدد الصُّوَر واختيارها .

---

(١) شاتليه : من مدن فرنسة الصغيرة .

(٢) تينيه : رسام فلمنكى (١٥٨٢ — ١٦٤٩) .

ويُجيب المصور : « لا شيء أجملَ من القديم ومما يُوحِى به ، ولكننى أوافقكم على أن مواخير تِينْيِه وستين [١] وأُوستاد [٢] أفضلُ من مُزَخْرفات ڤاتُّو و بُوشِيه وڤان لُو [٣] ، وقد شُنِّعَت الإنسانيةُ فيها من غير أن تُسْتَذَلَّ كما صنع بُودْوان أو فَراغُونَار » .

ويَمُرُّ صَيَّاحٌ ويَصْرُخ :

« أخبار المحكمة الثورية ! . . . قائمة المحكوم عليهم ! » .

غَمْلان : « لا يكفى وجودُ محكمة ثورية واحدة ، فَلْتُنْشَأْ واحدةٌ فى كلِّ مدينة . . . بل فى كلِّ كُورَة وكلِّ بلدية ، ولْيَكُنْ كلُّ ربِّ أُسرة وكلُّ وطنِيٍّ قاضياً ، ويُعَدُّ كلُّ تسامح قتلاً للأب عندما تكون الأمة تحت مِدْفع الأعداء وخنجر الخَوَنة ، ماذا ؟ إن مُدَن لِيُون ومَرْسِيلْية و بُورْدُو عاصيةٌ ، وقُورْسقة متمردةٌ ، وڤانْدِه ثائرةٌ ، ومايانْسَ وڤَلَنْسِين خاضعتان للحِلْف ، والخيانةَ سائدةٌ للأرياف والمُدُن والمعسكرات ، والخيانةَ جالسةٌ على مقاعد مجلس العهد ، والخيانةَ قائمةٌ فى مجالس قُوَّادنا الحربيين المُمْسِكين خرائطَ بأيديهم ! . . . ولْتُنْقِذ المِقْصَلةُ الوطَن ! »

الشائب بِرُوتُو : « ليس لدىَّ اعتراضٌ جوهرىٌّ ضدَّ المِقْصَلة ، ولم تُخْبِرْنى الطبيعة ، التى هى خليلتى الوحيدةُ ومُرَبِّيتى الوحيدة ، على وجهٍ ما ، بأن حياة الإنسان ذاتُ قيمة ، وهى ، على العكس ، تُنْبِئُ ، من جميع الوجوه ، بأن هذه الحياةَ غيرُ ذاتِ قيمةٍ ، و يَلُوح أن غاية كلِّ موجودٍ أن يَغْدُوَ طُعْمَةَ الموجودات الأخرى المُعَدَّةِ لهذه الغاية ذاتها ، والقتلُ من الحقوق الطبيعية ، ومن ثَمَّ يكون جزاء القتل

---

(١) ستين : مصور هولندى (١٦٢٦ – ١٦٧٩) .
(٢) أوستاد : مصور هولندى (١٦١٠ – ١٦٨٥) .
(٣) فان لو : مصور فرنسى (١٧٠٥ – ١٧٦٥) .

شرعيًّا على ألاَّ يمارَس عن فضيلةٍ أو عن عدلٍ ، بل عن ضرورةٍ وانتفاع ، ومع ذلك يجب أن تكون غرائزى فاسدةً ، وذلك لأننى أشمئزُّ من سفك الدِّماء ، وهذا فسادٌ لم تَسْطِع فلسفتى إصلاحَه بَعْدُ » .

إيڤَارِسْت : « إن الجمهوريين رُحَماء ، ولا تَجِدُ غيرَ الطُّغَاة مَنْ يَدَّعى أن عِقاب القتل من لوازم السلطان الضرورية ، وسيَقْضِى الشعب الحاكم بإلغائه ، وقد ناهضه رُوبِسْپِير وجميعُ محبِّى الوطن ، ولا يُنْشَر القانونُ الذى يُبْطِلُه سريعاً ، وهو إذا ما نُشِرَ لا ينبغى أن يُنَفَّذَ إلاَّ بعد أن يَهْلِكَ آخرُ عدوٍّ للجُمهورية تحت سيف القانون » .

والآن يكون وراء غَمْلان و بروُتُو بعضُ المتعوِّقين ، ومن هؤلاء كثيرٌ من نساء القِسْم ، ومن هؤلاء حائكةٌ جميلةٌ واضعةٌ على رأسها مِنديلاً معقوداً تحت ذَقَنِها ولابسةٌ خُفًّا ومتقلدةٌ سيفاً ذا حِمَالة ، ومن هؤلاء غادةٌ شقراء شَعْثاء ذاتُ مِنْديلٍ للْعُنُق مُتَجَعِّدٍ ، ومن هؤلاء أمٌّ فتاة نحيفةٌ شاحبةٌ تُرْضِع طفلاً ناحلاً .

ويَنْفَدُ اللبن ، ويكون صُراخُ الطفل ضعيفاً ، ويختنق الطفل شهيقاً ، والطفلُ من عدم النُّموِّ مايُثير الرحمة ، وهو أصفرُ الوجه غائمه ، وهو ملتهبُ العينين ، فتنظر أمُّه إليه معتنيةً به عنايةً مُؤْلمة .

غَملان ملتفتاً إلى الرَّضيع التَّعِس : « صغيرٌ جدًّا هذا الذى يُعَوِّل إزاء الظهر من ضَغْط المتأخرين الخانق » .

— عُمُرُه ستةُ أشهر ، وَيْحَ الحُبّ !.. أبوه فى الجيش ، وهو من الذين دَحَرُوا النمسويين فى كُونْدِه ، ويُسَمَّى دُومُونتيل (مِيشِيل) ، وحِرْفته صانعُ جُوخ ، وقد جُنِّد فى مَسْرحٍ نُصِبَ أمام دار البلدية ، وقد كان هذا الرفيق المسكين يريد الدفاع

عن وطنه وأن يَرَى بلده . . . وقد كتب إلىَّ يوصينى بالصبر ، ولـكن كيف تريدون أن أُغَذِّىَ بُول . . . مع أننى عاجزةٌ عن تغذية نفسى ؟ .

الفتاة الشقراء الحسناء صارخةً : « وَىْ ! علينا أن ننتظر ساعةً أخرى ، وعلينا أن نعود إلى مثل هذا الانتظار فى هذا المسـاء أمام باب العَطَّارة ، وتتطلب حيازة ثلاث بَيْضات ورُبْعِ رَطْلِ زُبْدة مجازفةً قاتلة » .

الوطنيةُ دُومُونْتيل مُتَحَسِّرةً : « زُبْدة ! لم أرها منذ ثلاثة أشهر ! » .

ويتأوَّه جَمْعُ النسـاء من نُدْرَة الأَقْوَات وغلائها ، ويَصُبُّ اللَّعَنَاتِ على المهاجرين ويَنْذِر للمقْصَلة وكلاءَ القسم الذين يُعْطُون النسـاءَ الفاجراتِ فراريجَ مُسَمَّنَةً وَخُبْزَ أربعةِ أرطالٍ فى مقابل مِنَنٍ شائنةٍ ، وتُذَاعُ قِصَصٌ مُرْعِبَةٌ عن بَقَراتٍ أُغْرِقَتْ فى السِّين وعن أكياسِ دقيقٍ أُفْرِغَتْ فى البلاليع وعن خبز أُلْقِىَ فى المراحيض . . . ويقال إن المُجيعين المَلَـكيين وأنصارَ رُولان وأتباع بريسُّوهم الذين يَسْعَوْنَ فى استئصال شعب باريس .

وتَصْرُخ الفتاةُ الجميلة الشقراء ، والصاحبةُ المِنديل المُتَجَعِّد ، فجأةً ، كما لو اشتعلت النار فى تَنُّورتها فتَنْفُضها بشدةٍ وتَقْلِبُ جيوبها ، مُعْلِنَةً سَرِقةَ كيسها .

ويَذيع خبرُ هذا الاختلاس ، فَتُثير موجةُ سُخْطٍ هذا الشعبَ الصغيرَ الذى كان قد أغار على فنادق ضاحية سانْ جِرْمَن واستولى على التويلْرى من غير أن يَسْلُبَ شيئاً ، هؤلاء الصُّنَّاعَ والخدَم الذين أمكن تحريقهم قصرَ فِرْساى طيِّبى الخاطر ، ولـكن مع اعتقادهم أن من العار نَهْبَ إبرة منه ، ويَنسـج الفَجَرَة من الفتيان حَوْل كارثة الفتاة الحسناء أضاحيكَ داعرةً لم تلبث أن اختنقت بما شاع من أمر ، فقد قيل بشَنَق السارق تحت المِصْباح ، ويُبَـدأ بتحقيقٍ صاخبٍ مُحابٍ ،

وتُشير الحائكة الكبرى بإصبعها إلى شيخٍ ظَنِين ، إلى الراهبِ الخالعِ ثوبَه الرَّهْبانيَّ مُقْسِمَةً على أنه « الراهبُ الكَبُوشيّ [١] » الذى قَضَى مُرادَه ، ويَقْنَع الجَمْع بهذا فينادى بالويل والثُّبور .

ويَمْثُلُ هذا الشائبُ ، الذى وُشِيَ به إلى النِّقْمة العامة ، أمام الوطنيِّ بُروتُو متواضعاً ، والوقعُ أن له مظهرَ رجلِ دِينٍ سابق ، وتَنِمُّ ملامحه على شىء من الجَلال وإن غَيَّر هذا المسكينَ ما ساوره من ارتباكٍ نشأ عن عُنْف الجمهور وعن ذكرى أيام سبتمبر التى لاتزال حَيَّةً ، وما يَعْلُو وجهَه من وَجَلٍ يَجْعَله مُرِيباً عند الشعبيِّ الذى يعتقد أن المذنبين وحدَهم هم الذين يَخْشَوْنَ أحكامَه كما لو كان الهَوَج الذى يُصْدِرها به لايخيف أشدَّ الناس براءةً .

وكان بُروتُو قد اتخذ عدمَ مخالفة شعور الشعب قانوناً له إذا ظَهَر هذا الشعور « جافياً سخيفاً » على الخصوص ، وذلك لأن « صوت الشعب من صوت الربِّ » كما كان يقول ، ولكن بُروتُو بَدَا متناقضاً ، فقد قَضَى بأن هذا الرجل ، سواءٌ عليه أكان راهباً كَبُوشيًّا أم لم يكن ، لم يَسْلُب الوطنيةَ التى لم يَدْنُ منها قَطُّ .

ويَحْكُم الجَمْعُ بأن مَنْ يدافع عن اللِّص شريكُه فى الذنب ، ويُرَى الآن أن يعامَل الآثمان بشِدَّة ، ولَمَّا بَرَزَ غَمْلانُ كفيلاً لبرُوتُو قال أرشدُ مَنْ فى الجمهور بإرساله مع الاثنين إلى القِسْم .

غير أن الفتاة الحسناء صَرَخت ، من فورها ، قائلةً إنها وَجَدت كيسَها ، فلم تُعَتِّم أن أُغْرِقت بزِياطٍ [٢] وهُدِّدتْ بالجَلْدِ على الأَلْيَيْن [٣] جَهْراً كراهبة .

---

(١) Capucin (٢) زاط : صاح وأكثر من المنازعة .
(٣) الأليان : مثنى الألية .

قال الراهب : « أشكرُ لكَ دفاعك عنى يا سيدى ، ولا كبيرَ شأنٍ لاسمى ، ولـكن لكَ علىَّ أن أذْكُرَه ، فاسمى هو لويس دُولُونْغمار ، فأنا راهبٌ قانونىّ ، لا راهبٌ كَبُوشىّ كما قال هؤلاء النِّسوة . . . وأنا راهبٌ من مُنَظَّمة البَرْنابيين التى أُخرجت للـكنيسة جمعاً كبيراً من العلماء والقِدِّيسين ، ولا يكفى أن تُنْسَب إلى القديس شارل بُورُّومِه[1] ، بل يجب أن يُعَدَّ الرسولُ بولس مؤسسَها الحقيقىّ ، هذا القديسُ الذى تَحْمِل شِعارَه ، وقد اضْطُررتُ إلى ترك دَيْرِى الذى صار مركزاً لقِسْم البُونْ نُوف ولُبْسِ ثَوْبٍ عَلْمانىّ » .

بروُتُو فاحصاً ثَوْبَ دولُونْغمار : « يَشْهَد ثوبُك بما فيه الـكفاية أنك لم تترك طريقتك ياأبى ، فمن يَنْظُرْ إليه يَعْتقدْ أنكم أصلحتم مُنَظَّمَتَكم أكثرَ من تركـكم إياها ، وأنت تعرِّض نفسك لشتائم أوباشٍ ملحدين بهذ المظهر الزاهد » .

الراهب : « ومع ذلك لا أستطيع أن أَلْبَس ثوباً أزرقَ كما يَلْبَس الراقص » .

— إن ما قلتُه عن ثوبك ، يا أبى ، هو للثناء على أخلاقك وتحذيرِك من أخطار تَحيقُ بك .

— وعلى العكس ، يجب أن أُشَجَّع ، ياسـيدى ، على الاعتراف باعتقادى ، وذلك لأننى كثيرُ الميل إلى الخوف من الخطر ، وقد تركتُ ثوبىَ الرَّهْبانىَّ ، ياسيدى مع أن هذا من مظاهر الزَّندقة ، ولا أقـلَّ من ألاَّ أترك بيتاً أنعم الله علىَّ فيه بحياةٍ هادئةٍ مستورةٍ سنينَ كثيرةً ، وقد أُذِنَ لى فى الإقامة به ، واحتفظتُ بحُجْرتى فيه ، مع أن الـكنيسة والدَّيْر حُوِّلا إلى دارِ بلديةٍ صغيرةٍ تُدْعَى بالقِسْم ، وقـد رأيتُ ، يا سيدى ، طَرْقَ رموزِ الحقيقة المُقَدَّسَة ، وقـد رأيتُ استبدالَ قَلَنْسُوةِ مجرمٍ باسم

---

(١) شارل بورومه : رئيس أساقفة ميلان (١٥٣٨ — ١٥٨٤) .

الرسول بولس ، وقد كنتُ أَحْضُر اجتماعاتِ القِسّم أحياناً فأَسْمَعُ ضلالاتٍ عجيبةً ، ثم تركتُ هذا المنزلَ المُدَنَّسَ وذهبتُ للعيش براتبِ مئةِ الدينار ، الذى عَيَّنه المجلس لى ، فى مُرَاحٍ أُخِذَت منه الخيل لخدمة الجيوش ، وهنـاك أقيمُ القُدَّاسَ أمام بعض المؤمنين الذين يأتون لمشاهدة خلود كنيسة يسوع المسيح .

— وإذا كنتَ راغباً فى معرفة اسمى ، يا أبى ، فأَذْكُر لك أننى أُدْعَى بروتُو ، وقد كنتُ عَشَّاراً فيما مضى .

الأب لُونْغار : « أعْرِف من موعظة مارْ مَتَّى إمكانَ صدورِ كلمة طيبـة عن عَشَّار » .

— أنت صالح يا أبى .

غَمْلان : « أَكْرِمْ بهذا الشعب الطيب الراغب فى العدل أكثرَ مما فى الخُبْز ، فـكلُّ واحدٍ هنا كان مستعدًّا لترك مكانه حتى يُعاقِب السارق ، وهؤلاء الرجال والنساء والفقراء الذين يعانُون كثيراً من الحِرْمان شديدو الإخلاص فلا يُغْضُون عن تصرفٍ غير شريف » .

برُوتُو : « يجب أن يُسَلَّم بأن هؤلاء الناس قد اضطَهدوا هـذا الراهبَ الصالح وناصِرَه وناصِرَ ناصِرِه عندما رَغِبوا فى شنْق السارق ، والذى كان يَدْفعهم إلى ذلك هو شُحُّهم وما يَحْمِلُونه من حُبٍّ أَثَرِىّ [1] لأموالهم ، فـكانوا يُهَدِّدون اللِّصّ جميعاً إذا ما حَمَل على أحدهم ، وكانوا يحترزون عند معاقبته ... ومع ذلك فإن من الراجح أن يكون مُعْظَمُ هؤلاء العمال والخَدَم من ذوى الصَّلاح ومن المحترمين لمال الآخرين ، وقد أُلْقِيتْ هذه المشاعر فى قلوبهم منذ نعومة أظفارهم من قِبَل أبويهم الذين ضربوهم على أَلْيَاتهم بمقدار الـكفاية وأدخلوا الفضائلَ إليهم من اسْتاتِهم » .

(١) Egoïste

ولم يَـكْـتُمْ غَمْلانُ عن الشائب بروتو كَوْنَ مثل هذا اللسان غيرَ جدير بمن هو فيلسوف ، ومن قوله :

« إن الفضيلة أمرٌ فطريٌّ فى الإنسان ، وقد ألقى اللهُ بَذْرَها فى قلوب الناس » .

وكان الشيخ برُوتو زِنْدِيقاً ، وكان يجد فى زَنْدَقتـه منبعاً غزيراً من الملاذِّ ، ومن ذلك :

« أراك ، أيهـا الوطنىُّ غَمْلان ، تكون محافظاً رَجْعِيًّا فى السماء بعد أن تَبْدُوَ ثَوْرِيًّا فى هذه الدنيا ، ولا يختلف رُوبِسْـپِير ومارا عنك فى ذلك مطلقاً ، وأَجِد من العجيب أن يُصِرَّ الفرنسيون ، الذين صاروا لا يُطيقون مَلِـكاً فانياً ، على الاحتفاظ بمَلِكٍ أبدىٍّ أعظمَ جَبَروتاً وأشدَّ قسوة ، وإلاّ فما هى الباستيل[1] والغرفةُ الحارَّة بجانب الجحيم ؟ إن الإنسانية تَنْسَخُ آلهتَها من الطُّغاة ، وقـد ألقيتم الأصلَ وأبقيتم النُّسْخَة ! » .

غَمْلان صارخاً : « وَىْ ! أيها الوطنىّ ! ألا تخْجَل من استعمال هـذا اللسان فتخلِط بين الآلهة القاتمة ، التى هى وليدةُ الجهل والخوف ، وصانعِ الطبيعة ؟ إن الإيمان بإلٰهٍ لطيف أمرٌ ضرورىٌّ للأخلاق ، وإن الـكائنَ الأعلى مصـدر جميع الفضائل ، ولا يكون الإنسانُ جُمهوريًّا إذا لم يؤمن بالله ، وقد عَرَف روبِسْپِير هذا جيداً فنَزَع من بَهْوِ اليعاقبة تمثالَ الفيلسوفِ إلْڤِسْيُوسَ[2] الآثمِ بإعـداد الفرنسيين للعبودية بتعليمهم الإلحاد . . . وإنى لأرجو ، أيها الوطنىُّ برُوتو ، أن تعتنق ديانةً رشيدةً كعبادة العقل عند ما تقيمها الجُمهورية » .

برُوتو : « أُحِبُّ العقل ، ولا أتعصب له ، والعقلُ يَهْدِينا ويُنِيرُنا ، فإذا ما جعلتموه رَبًّا أعماكم وأقنعكم باقتراف الجرائم » .

---

(١) الباستيل : اسم سجن بباريس هدم سنة ١٧٨٩ .

(٢) الفسيوس (Helvétius) : أديب وفيلسوف فرنسى (١٧١٥ — ١٧٧١) .

ويداوم بُروتو على إقامة البراهين واضعاً رجليه فى الجدول كما كان يصنع على أحد كراسى البارون ألْبَاك [١] المُذْهَبَة التى كانت تَصْلُح أساساً للفلسفة الطبيعية على حسب تعبيره ، ويقول :

« كان جَانْ جاكْ روسُّو الذى أظهر بعضَ المواهب ، فى الموسيقا على الخصوص ، منحطًّا طبعاً وفاسداً رأياً فيَزْعُم أنه اقتبس أخلاقه من الطبيعة مع أنه استنبطها من مبادئ كَلْفَن [٢] ، وتُعَلِّمنا الطبيعةُ أن يَفْتَرس بعضُنا بعضاً ، وهى عُنوان جميع الجرائم والعيوب التى يُصْلِحها المجتمع أو يُخْفِيها ، أَجَلْ ، يجب حُبُّ الفضيلة ، ولكن ليُعْرَفْ أنها وسيلةٌ تَصَوَّرَها الناس ليعيشوا معاً عيشَ هناء ، وليس ما ندعوه أخلاقاً غيرَ تَجْرِبة يائسة قام بها أمثالُنا ضدَّ النظام الكَوْنىِّ الذى هو نِزَاعٌ وقتالٌ وقراعٌ بين مختلف القُوَى ، والطبيعةُ متهادمة ، وكلما فكرتُ فيها قَنِعْتُ بأن الكون حانق ، ويُبْدِى علماء اللاهوت والفلاسفة ، الذين يجعلون الرَّبَّ صانعَ الطبيعة وبارئَ الكَوْن ، هذا الإلٰهَ طاغياً مخالفاً للصواب ، وهم يقولون إنه لطيفٌ لأنهم يخافونه ، بيد أنهم يُجْمعون ، عن ضرورةٍ ، على أنه يُدَبِّر الأمورَ جَبَّاراً ، وهم يَعْزُون إليه ما يَعِزُّ وجودُه من المَكر حتى لدى الإنسان ، ومن ثَمَّ يَجْعَلونه معبوداً فى الأرض ، ومن ثَمَّ يَزْهَد شعبنا المسكين فى عبادة آلهةٍ لِطَافٍ عادلين لا يَخْشَى فيهم شيئاً مُطْلقاً ، ومن ثَمَّ لا يَحْفَظ شعبُنا لهم جميلاً غيرَ مفيد ، ولولا المَطْهَر [٣] والنار ما كان الربُّ الحَنَّانُ غيرَ مَوْلًى هزيل » .

الأب لُونْغمار : « لا تَقُلْ شيئاً عن الطبيعة ، فأنت لا تَعْرِف ما هِيَ » .

---

(١) الباك (Holbach) : فيلسوف فرنسى مادى ملحد (١٧٢٣ ــ ١٧٨٩) .

(٢) كلفن : زعيم الاصلاح الدينى فى فرنسة وسويسرة (١٥٠٩ ــ ١٥٦٤) .

(٣) المطهر : مكان تطهر فيه أنفس الأبرار بعد الموت بعذاب له أجل محدود .

— ثِقْ بأننى أعْرِفها كما تَعْرِف يا أبى !

— أنت لا تستطيع أن تَعْرِفها ، لأنك خالٍ من الدِّين ، والدِّينُ وحدَه هو الذى يعلّمنا ما هى الطبيعة ، وما هو وجه الصلاح فيها ، وكيف فَسَدَت ، ومع ذلك لا تَنْتظر منى أن أجيب قائلاً : إن الله لم يمنحنى حرارةَ اللسان وقوةَ النفس لدَحْضِ ضلالك ، وأخافُ ألاَّ أزوِّدَك ، عن عجزٍ ، بغير أسبابِ تجديفٍ [1] وعواملِ قسوةٍ ، وإذا ما شَعَرْتُ برغبةٍ قوية فى خدمتك لم أقتطفْ من ثواب إحسانى الأعوج سوى . . . » .

ويُقْطَع هذا الموضوعُ بصُراخٍ واسع صادر عن رأس العَمُود مُؤْذِنٍ جميعَ مَنْ فى صَفِّ الجائعين بفتح أبواب الفُرْن ، ويُبْدأ بالتقدم ، ولكن على مَهْلٍ ، ويُدْخِل الحرسُ الوطنىُّ جَمْعَ المشترين فَرْداً بعد فَرْد ، ويساعِد الخبَّازَ وزوجَه وغلاَمَه وكيلان مدنيَّان واضعان شريطاً مثلثَ الألوان على الذراع اليسرى ليُعْلَم هل المستهلِكُ من أهل القِسْم ولكيلا يُسَلَّم إليه غيرُ الحِصَّةِ الخاصةِ بالأفواه التى يُطْعِمُها .

وكان الوطنىُّ بروُتُو يجعل من اللذة غايةَ الحياة الوحيدةَ ، فيَرَى أن العقل والحواسَّ القاضيين بعدم الآلهة لا يُمْكِنهما أن يُدْرِكا إلهاً آخر ، والواقعُ أن هذا الرجلَ الحكيمَ ، الذى يَجِدُ فى أقوال المصوِّر شيئاً من التعصب وفى أقوال الراهب شيئاً من البساطة فلا يَشْعُر فيها بكبير لذة ، يَهدِف إلى التوفيق بين سَيْرِه ومذهبه فى الافتراضات الحاضرة وإلى إسباغ شىء من الفُتُون على ما يطول من الانتظار فيتناول من رِدنْغُوته البُرْغُوثىِّ اللون ، والفاغِرِ جيبُه فاه ، ديوانَ لوكريس [2] الذى

---

(١) جدف : كفر بالنعم .

(٢) لوكريس : شاعر لاتينى (٩٥ — ٥٣ ق . م) .

يَظَلُّ مدارَ أعزِّ ملاذِهِ وموضعَ سرورِه الحقيقيِّ ، وكان جِلْدُ هذا الكتاب الأحمرُ مُكسَّرَ القُرَن بالاستعمال ، وكان الوطنيُّ بروتُو قد كَشَطَ من الجلد علائم الشرف بحكمةٍ ، كَشَط منه علائم الجُزَيِّرات الثلاث الذهبية التى شراها أبوه الجابى بنقود صحيحة ، ومن الكتاب يَفْتَح الموضعَ المذكورَ فيه أن الشاعرَ الفيلسوفَ الذى أراد شِفاءَ الناس من غوائل الحُبِّ اللاغية باغَتَ امرأةً بين ذُرْعان وصائفه فى حالٍ تُغاير مشاعرَ العاشق ، ويقرأ الوطنيُّ بروتُو هذا الشِّعْر مع إلقاء نظرةٍ على عُنُق جارته الحسناء ومع نَشْق[1] إهابِ هذه الخادمة الصغيرة الرَّطيبِ بشهوةٍ ، وكان الشاعرُ لوكريس ذا حكمةٍ واحدة ، وكان لدى تلميذه بروتُو حِكَمٌ كثيرة .

ويَقْرَأ ويتقدم خُطوتين فى أربع ساعات ، وإنه لَيُسَرُّ بأوزان عرائس الشعر اللاتينيِّ الرزينة الكثيرة إذ يَطْرُق أُذُنَه ، عَبَثاً ، صُراخُ هَذِراتٍ حَوْلَ غَلاَء الخبز والسُّكَّر والقهوة والشَّمْع والصابون ، وهكذا يَبْلُغ عَتَبَةَ الفُرْن ، ومن ورائه يشاهد إيڤارِسْت غَمْلان الجُرْزَةَ الذهبيةَ فوق رأسه ، يشاهدها على الشُّبَّاك الحديديِّ الذى يُغْلِقُ أعلى الباب .

وتأتى نَوْبَتُه ، ويَدْخل الدكان فيَجِدُ السِّلاَل والخزائنَ فارغةً ، ويُسَلِّم الخبَّازُ إليه القطعةَ الوحيدة التى بقيتْ والتى لا تَزِن رطلين ، ويَدْفَع إيڤارِسْت الثمنَ ويُغلَقُ الشبَّاكُ على الأرَخشيةَ استيلاء الشَّعب الصاخب على الفُرْن ، ولكن لم يكن هنالك ما يوجب الخوف ، فهؤلاء المساكينُ الذين تَعلَّموا الخضوعَ من ظالميهم السابقين ومحرِّريهم اللاحقين رَجَعُوا ناكسى الرؤوس مُجَرِّرين أرجلَهم .

ويَصِلُ غَمْلان إلى زاوية الشارع فيرى الوطنيةَ دُومُونْتِل جالسةً على طرفٍ

---

(١) الاهاب : الجلد .

حاملةً رضيعَها بين ذراعيْها ، يراها جامدةً شاحبةً جافَّةَ الدَّمْع شاخصـةَ البصر ، ويرى الطفل وهو يَمُصُّ إصـبعَها ، ويَقِف غَمْلان أمامها دقيقةً هائباً مُرْتاباً ، ولا تـكاد تراه .

ويُتَمْتِم فى بضع كلمات ، ثم يُخْرِج من جيبه مُدْيتَه المصنوعَ مِقْبَضُهَا من قَرْن ، ويَقْسِم رغيفَه من الوسط ويَضَعُ النصفَ على رُكْبَتَيِ الأُمِّ الفتاة ، وتَنْظُر هذه الوالدةُ إليه حائرةً ، ولـكنه كان مجاوزاً زاوية الشارع .

ويَدْخُل منزلَه ، ويَجِدُ أمَّه جالسةً عند النافذة حيث تَرْتُق جَوَارِب ، ويُسَلِّم إليها ما بَـقِيَ من الخبز مسروراً ويقول :

« اغْفِرِى لى ياأُمَّاه ، فقد كنتُ تَعِباً من الوقوف طويلًا فى الشـارع حيث نَهَـكَنى الحَرُّ ، فأكلتُ نصفَ جَرَايتنا لُقْمةً لقمةً فى أثناء رجوعى إلى البيت ، ولم تَـكَدْ حِصَّتُك تَبْقى » .

ويتظاهر بنَفْضِ الفُتَاتِ من صُدْرَته .

٧

كانت الوطنيـة الأيّم غَمْلان قد انتحلت أسلوباً بالغَ القِـدَم فأنذرته بقولها : « سنصبح كَسْتَنَاءَ من كثرة أكل الكَسْتَنَاء » ، وكان غَدَاء الأمّ والابن من حَسَاء الكَسْتناء فى ذلك اليوم الموافق ١٣ من يوليه ، وإنهما ليُتِمّان طعامَهما التافه إذ تَدْفَع البابَ سيدةٌ وتملأ المحترَفَ بغتةً نَضْرَةً وعِطْراً ، وبَعْرِف إيڤَارِسْت أنها الوطنية رُشْمُور ، ويَحْسَب أنها أضلّت البابَ وأنها تبحث عن صديقها القديم بروتو فيَرَى أن يدلّهـا على الطبقة العليا أو أن ينادىَ بروتو حفظاً لهذه المرأة الهيفاء من الصعود فى سُلَّمٍ خشبىّ ، ولكنه ظهر منذ أول الأمر أن الوطنىَّ إيڤَارِسْت غَمْلان هو المقصود ، وذلك لقولها منذ البُداءة إنها سعيدة بلقائه وإنها جاريته .

ولم يكن أحدُهما غريباً عن الآخر ، فقد تلاقيا غيرَ مرةٍ فى محترَف دافِيد ، وفى المجلس ، وعند اليعاقبة ، ولدى مُجَدِّدِ ڤِينُويَه ، ووَقَف نظرَها جمالُه وفتاؤه وظاهره المُمْتِع .

وتَلْبَس الوطنيـةُ رُشْمُور قُبَّعةً كثيرةَ الشُّرُط كالمِزْمار ، وتُزَيِّن بمثل قَلَنْسُوَة رئيسِ بعثةٍ ، وتَبْدُو ذات جُمَّة[1] ، وتَظْهَرُ مُحَمَّرَةً مُنَقَّطةً مُمَسَّكة ، غَضَّةً حتى مع هذا البَهْرَج الوافر ، وتَنِمُّ مظاهرُ الموضةِ[2] الوثيقةُ هذه على استعجال

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٢) La mode

الحياة وعلى حُمَّى هذه الأيام التى لا يُعْرَف غدها ، ويلوح ثوبها ذو الرفارف والأَحْناء واللامعُ بأزرارٍ من فولاذ أحمرَ قانٍ فلا يُسْتَطَاعُ أن تُمازَ فيه ألوانُ الضحايا من ألوان الجَلَّاد ما دلَّ على الأريستوقراطىِّ والثورىِّ معاً ، وكان يرافقها جندىّ شابٌّ أو فارسٌ .

وتجُول فى المحترَف مُمْسِكةً بيدها عصاً طويلةً صَدَفيـة ، وتَظْهَر هيفاءَ حسناءَ عريضةَ الصدر ، وتُدْنِي مِنْظارَها الذهبىَّ ذا الفرعين من عينيها الشَّهْباوين فتَفْحَصُ ألواحَ المصوِّر باسمةً وتَصِيح مُعْجَبةً بفعل جمال المتفنن ، وتُصَانِع حتى تُصَانَع .

وتسأل الوطنيةُ : « ما هذا اللوحُ الكريمُ المؤثِّر فى القلب المشتملُ على امرأةٍ ناعمةٍ جميلة بجانب مريضٍ شابّ ؟ »

فيجيب غَمْلانُ عن هذا بأنه يُرَى فيه أُورِسْتُ الذى أيقظته أخته إلِكْتر ، فإذا ما أتمَّه كان أقلَّ آثارِه رَداءةً على ما يحتمل ، ويُضيف إلى هذا قوله :

« اقْتُبِسَ الموضوعُ من أُورِست لأُورِيبيد[1] ، فقد قرأتُ فى ترجَمةٍ قديمة لهذه المأساة فصلًا عجيباً ، وذلك أن الفتاة إلِكْترا أيقظت أخاها فَوْق سرِيرِ أوصابه ، فَمَسَحَتْ ما بفمه من زَبَد وأبعدت ما يُعْمِى عينيْه من شَعْرٍ ، ورَجَتْ من أخيها العزيز هذا أن يُنْصِتَ لِمَا تقول له فى سكون آلهة العذاب . . . وأَقرأُ هذه الترجَمة وأَقرأُ ، فأشْعُرُ بضَبَابٍ تَغشَى الصُّوَرَ اليونانية من غير أن أقدِر على تبديدها ، ويُخَيَّل إلىَّ أن النصَّ الأصلىَّ أكثرُ شِدَّةً وأبعدُ لهجةً ، وتساورنى رغبةٌ قويةٌ فى الاطلاع على الحقيقة فأرجو من مسيو غِيل الذى كان يُدرِّس اليونانية فى كلية فرنسة[2] (وهذا فى سنة ١٧٩١) أن يُفَسِّر لى هذا الفصل حرفيًّا ، ويُوضِحُه

---

(١) أوريبيد : شاعر يونانى مشهور (٤٨٠ – ٤٠٥ ق . م .) .

(٢) Collège de France

كما طلبت ، فأُبْصِرُ أن القدماء أكثرُ بساطةً وأُنْسًا مما يُتَصَوَّر ، وإليكِ ما قالته إلِكْترا لأُورِسْت : « أخى العزيز ! ما أعظم سرورى برُقَادِك ! أَوَتريدُ أن أساعدك على النهوض ؟ » وإليكِ جواب أُورِسْت : « نَعَمْ ، ساعدينى ، وامْسَحى الزَّبَدَ العالقَ حَوْلَ فمى وعَيْنَىَّ ، وضَعِى صدرَكِ على صدرى ، وأَقْصِى شَعْرىَ المختلطَ عن وجهى لأنه يحجب عينىّ . . . » ، فما أننى مُشْبَعٌ من هـذا الشِّعر الناضر الحَىِّ ، ومن هذه التعابير البسيطة القوية ، فإننى أرسم اللوحَ الذى تَنْظُرين أيتها الوطنية » .

ويُسْهِب المصوِّرُ فى ذلك مع أن من عادته أن يتكلم عن آثاره رزيناً ، ويتابع حديثَه عن تشجيعٍ من الوطنية رُشْمُورَ بإشارةٍ تبديها رافعةً مِنظارَها :

«أَجَلْ ، عالَجَ إنَّـكِنْ صَوْلاتِ أُورِسْت كمعلِّم ، غير أن أُورِسْت يُشِيرُنا بكَرْبه أكثرَ مما بصَوْلاته ، ويالَمصيره ! هو قد اقترف عن برٍّ بَنَوِىٍّ ، وعن إذعانٍ لأوامرَ مقدسـةٍ ، ذلك الجُرْمَ الذى تَغْفِره الآلهةُ له ولا يَغْفِرُه الناس مطلقاً ، وقد أنكر الطبيعةَ انتقاماً للعدل المُهَان ، فتحوَّل إلى فَظٍّ ونَزَع أمعـاءه ، ويظلُّ مختالاً تحت حِمْلِ جُرْمه الفظيع الصالح . . . وهـذا ما أردتُ إبداءه فى اللوح الجامع للأخ والأخت » .

ويَدْنُو من الصورة وينظر إليها باشًّا ويقول :

« لقد فَرَغْتُ من بعض الأقسام تقريباً ، كرأس أُورِسْت وذراعِه مَثَلاً » .

— هذه قطعةٌ رائعة . . . ويشابهكَ أُورِسْتُ أيها الوطنىّ غَمْلان .

المصوِّرُ مع ابتسامٍ رصينٍ : « أَوَتَجِدِين ذلك ؟ »

وتتناول الكرسىَّ الذى يقـدِّمه غَمْلان إليها ، ويَظَلُّ الفارس الشـابُّ واقفاً بجانبها واضعاً يده على ظَهْرِ الكرسىِّ الذى جلستْ عليه ، ومن ثمَّ لا يُمْكِن

أن يُرى انتهـاء الثورة ما دام الرجل الذى يكون مع الرِّفاق فى العهـد السابق لا يستطيع، عن تربية صارِمَة، أن يَمَسَّ بإصبعه كرسيًّا تجْلِس عليه امرأة ! ...

وكانت ابنةُ ضابط الصيد لدى الملك وأرملةُ أحـد المُدَّعين العامِّين والصديقةُ المخلصةُ للمالىِّ بروتو ديزلّت مدةَ عشرين عاماً، لويزْ ماشِه دُورُشْمُور، قد اعتنقت المبادئَ الجديدة، وقد رُئِيَتْ فى يوليه سنة ١٧٩٠ وهى تَعْزِق [١] أرضَ شانْدُومارسْ.

ومع أن مَيْلها القوىَّ إلى السلطات قـد حَملها بسهولةٍ من الفُويَّان إلى الجيروندِيين والمونتانيار [٢] فإن ماهى عليه من روح التوفيق وحرارة الاحتضان وقدرةِ الكَيد كان يَرْبِطُها بالأريستوقراطيين واللاثوْريين أيضاً، وقـد كانت امرأةً مقبولةً تتردَّد إلى حانات الضواحى ودور التمثيل وجـديدِ المطاعم وبيوتِ القِمار ورِداهِ الاستقبال ومكاتبِ الصُّحُف وغُرَفِ انتظار اللِّجان، وقـد كانت الثورة تأتيها بالطَّرائف واللَّهْو والابتسام والسرور والمعاملات والمشاريع المثمرة، وهى، إذْ كانت تَحُوك الدَّسائسَ السياسية والغُناجية وتعزِف على المِزْهَر وتَرْقُصُ رَقْصَ اليونان وتُقِيم الأعشية وتستقبل الحِسَان كالكُونْتِس دُو بُوفُور وكالمثلةِ دِيكْوَان، وتُعِدُّ ليلاً مائدة الواحد والثلاثين للمَيْسر وتُدَحرِج الأحمرَ والأسود، كانت تَجِدُ من الوقت ما تكون فيه حَنُوناً على أخدانها، وهى، إذ كانت مُحِبَّةً للاطلاع فعَّالةً فَتَّانة مستهتِرَةً عالمةً بالرجال جاهلةً بالجماهير غريبةً عما تشاطِر من الآراء وعما يجب عليها أن تَرْفِض منها غيرَ عارفة بما يحْدُث فى فرنسة، كانت تَظْهَر جسوراً مقداماً مملوءةً جُرْأةً عن جَهْلٍ بالخطر وعن اعتمادٍ لا حَدَّ له على سلطان جمالها الساحر.

---

(١) عزق الأرض : شقها.

(٢) الفـويان والجيروندِيون والمونتانيـار : من الأحـزاب التى قامت أيام الثـورة الفرنسية.

وكان الجندىُّ الذى يرافقها فى رَيْعان الشباب، وكانت خُوذَته النحاسية المُجَهَّزَةُ بجلد الفَهْد والمُزَيَّنُ عُرْفُها بفراشةٍ حمراء تُظَلِّلُ رأسَه البالغَ الجمال وتَنْشُرُ على ظهره ذُؤابةً هائلة، وكانت سترته الحمراء التى هى على شكل القُنْبُعَـة [١]، لا تَصِلُ إلى الخَصْر لكيلا تستر انْثِناءه، وكان يَحْمِل على نِجَادِه سيفاً عظيما ذا مِقْبَض لامع على شكل مِنْسَر [٢] العُقَاب، وكان يُصَوِّر عَضَلَ ساقَيْـه الرائعةَ سِرْوالٌ مُقَنْطَرٌ سمـاوىٌّ، وكانت تبدى شُرُطٌ زُرْقٌ قاتمةٌ زخارفَها العربية الفنية على فخذيه، وكانت له هيئةُ راقصٍ مُتَزَيٍّ لتمثيل دورٍ عسكرىٍّ مِغْناجٍ فى « أشِيل بسيرُوس [٣] » أو « أعراس الإسكندر » لأحد تلاميذ داڤيد الحريصِ على تضييق الشكل .

ويَذْكُر غَمْلانُ، مع الغموض، أنه كان قـد رآه، والواقعُ أنه الجندىُّ الذى لاقاه منذ خمسةَ عشرَ يوماً وهو يَخْطُب القومَ فى أروقة المَسْرَح الوطنى .

وتَذْكُرُ الوطنيةُ رُشْمُورُ اسمَه .

تَذْكُرُ أنه « الوطنىُّ هَنْرى فى اللَّجنة الثَّورية بقسْم حقوق الإنسان » .

ويكون هنرى فى تنانيرها [٤] مرآةً للغرام وشهادةً ناطقة على حبِّ الوطن دائماً .

وتُهَنِّئُ الوطنيةُ غَمْلانَ بمواهبـه وتسأل عن موافقته على وضعِ رسمٍ لصاحبةِ محلّ للأزياء يُهِمُّها أمرُها، وذلك وَفْقَ موضوعٍ ملائم، كامـرأةٍ تجَرِّب وِشاحاً أمام مرآةٍ كبيرة متحركة أو عاملةٍ حاملةٍ محفظةً للقبعات تحت ذراعها .

وكان قد ذُكِرَ لها فراغوُ نارُ الابنُ والشابُّ دُوسيس، والمَدْعُوُّ بِرُودُومُ أيضاً،

---

(١) القنبعة : خرقة تخاط كالبرنس يلبسها الصبيان .
(٢) المنسر : هو للطير الجارح مثل المنقار لغير الجارح .
(٣) أشيل : أشهر أبطال الالياذة، وسيروس من جزائر بحر ايجه .
(٤) Jupes

ولـكنها رأت مراجعـة الوطنىّ إيڤارِسْت غَمْلانَ فى ذلك ، ومع ذلك فإنه لم يكن عندها أمرٌ معيَّن حَوْلَ هـذا الموضوع ، وقد كان يُشْعَر بأنها أوصت به للخَوْض فى الحديث ، والواقعُ أنهـا جاءت لشىء آخر ، جاءت لتطلب من الوطنىّ غَمْلان أن يَقُوم لها بخدمة ، وذلك أنها كانت تَعْلَم أنه يَعْرِف الوطنىَّ مارَا ، فتلتمس منه أن يُقَدِّمها إلى صديق الشعب الذى كانت راغبةً فى محادثته .

ويجيب غَمْلَانُ عن ذلك بأنه من حقارة المقام مالا يستطيع معه أن يُقَـدِّمهـا إلى مارَا ، و بأن من الممكن أن تَدْخُل عليه ، فمارَا ، و إن كان مُثْقَلًا بالأشاغيل ، ليس بالرجل الخفىّ كما قيل .

و يقول غَمْلَانُ مضيفاً إلى ذلك :

« سوف يُحْسِن قبولَكِ إذا ما كنتِ بائسةً ، فقلبُه الـكبيرُ مفتوحٌ لـكلِّ ضِـيقٍ ، وهو راحمٌ لجميع الآلام ، وهو يُحْسِن قبولكِ إذا كان لديكِ ما يَعْـلَمه حَوْل السَّلَامة العامة ، فهو يَقْضى أيامه فى كَشْفِ الخائنين » .

وتُجيب الوطنيةُ رُشْمُورُ عن هذا بأن من عوامل سعادتها أن تُحَـيِّىَ فى مارَا وطنيًّا شريفاً قَدَّم خِدَماً عظيمةً إلى البلاد ، وطنيّاً قادراً على تقديم ماهو أعظمُ من هذا ، وهى تَرْغَب فى جَعْل هذا المشترع على صِلَةٍ برجالٍ صادق النية ، برجالٍ من محبى الإنسانية أسعدَهم الحظُّ فيستطيعون أن يُزَوِّدوه بوسائلَ جديدةٍ يَشْفِى بهـا غُلَّةَ حُبّه للإنسانية .

وتُضِيفُ إلى هذا قولَها :

« إن من المرغوب فيه أن يسـاعِد الأغنياء على سعادة الناس » .

والحقُّ أن هذه الوطنيةَ كانت قد وعدتِ الصَّيْرَفِىَّ مُورْهَارْد بأن يَتَغَدَّى مع مارَا .

وكان مُورْهَارْدُ ، السويسرىُّ كصديق الشعب ، قد اتفق مع كثيرٍ من نواب مجلس العهد ، كجُولْيان الطُّولوزىّ ودُولُوناى الأنجرِىّ والراهبِ الكَبوشىِّ السابق شابُو (١) ، على المضاربة حَوْل أسهم شركة الهند ، والمضاربةُ بسيطةٌ ، فهى تقوم على السَّعْىِ فى إسقاط قيمة السهم الواحد منها إلى ٦٥٠ ليرة بأعمال سَلَّابةٍ وصولاً إلى اشتراء أكبر عدد ممكن منها بهذا الثمن ثم رفعِ قيمة كلّ منها إلى أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف ليرة بأعمالٍ مُطَمْئِنة ، غير أن شابُو وجُولْيان ودُولُوناى كانوا نُخُراً من كلِّ ناحية ، وكان يُشَكُّ فى لاكِرْوا (٢) وفابِر (٣) دِغلانتين ، وفى دَنْتُون (٤) أيضاً ، وكان المضاربُ البارونُ باتْز يَبْحَث عن شُرَكاءَ جُدُدٍ فى مجلس العهد فَنَصَح الصيرفىَّ مُورْهَارْدَ بأن يجتمع إلى مارَا .

ولم يكن رأىُ الصَّيْرَفيين اللاَّثَوْريين هذا لَيلُوحَ غريباً أولَ وَهْلَة ، فقد كان هؤلاء الناس يسعَوْن فى الاتفاق مع السلطات القائمة فى كلِّ حين ، وقد كان مارا سلطةً هائلةً بما لَهُ من حُظْوَةٍ لدى الشعب وبقلمه وأخلاقه ، وقد غَرِق الجِيرُونْديُّون وعاد الدَّنْتُونيُّون الذين كَسَرتهم العاصفة لا يَحْكُمون ، وكان معبود الشعب رُوبِسْپير مُخْلِصاً مِغْياراً مرتَاباً فلا يَدَعُ أحداً يَدْنُو منه ، وكانت الضرورة تقضى بأن يُحَاط بمارَا وبأن يُضْمَن عطفُه لليوم الذى يصير فيه طاغيةً ، وكان كلُّ شىء يَدُلُّ على أنه سيكون جَبّاراً ذات يوم ، كان يَدُلُّ عليه طموحُه وشَعْبِيَّتُه وسَعْيُه فى تنظيم أجلِّ الوسائل ، ومن المحتمل أن يُعِيد مارَا النظامَ

---

(١) شابو : كان راهبا كبوشيا ، ثم أسقفا دستوريا ، ثم عضوا فى مجلس العهد ، أعدم مع أنصار دنتون (١٧٥٩ — ١٧٩٤) .

(٢) لاكروا : رئيس مجلس العهد ، وقد أعدم مع الدنتونيين (١٧٥٤ — ١٧٩٤)

(٣) فابر دغلانتين : شاعر وعضو فى مجلس العهد (١٧٥٠ — ١٧٩٤) .

(٤) دنتون : من أعضاء مجلس العهد المشهورين (١٧٥٩ — ١٧٩٤) .

ويُصْلِح المالية ويَنْشُر السعادة ، وما أكثر مانهض ضدَّ الحُمْق الذين يُزَايدونه وطنيةً ، وهو لم يَنْفَكَّ منذ زمنٍ يَشِي بالثائرين المشاغبين وبالمعتدلين على السَّوَاء ، وهو قد دَعَا الوطنيين إلى السكون والحكمة بعد أن حَرَّض الشعب على شَنْق المحتكرين فى مخازنهم المنهوبة ، وهو قد أضحى رجلَ حكومة .

ومع ما كان يُنْسَج حَوْله من إشاعاتٍ كما كان يُنْسَج حَوْل رجال الثورة الآخرين لم يعتقد لصوصُ الذهب أولئك إمكانَ رَشْوه ، وإنما كانوا يَعْلَمون أنه مُحتالٌ ساذج ، فيطمعون أن يستحوذوا عليه بالْمَلَق ، وبالتَّحَبُّب الذى هو أكثر أنواع المَلَق إغراءً ، وكانوا يَحْسَبون أنهم يستطيعون أن يتصرفوا بواسطته فى قِيَم جميع الأسهم التى يريدون شراءها وبيعها وأن يَدْفَعوه إلى خِدْمة مصالحهم معتقداً أنه لم يَعْمَل فى غير سبيل المصلحة العامة .

وكانت الوطنية رُشْمُور موفَّقةً مع أنها فى سِنِّ الحُبِّ بَعْدُ ، فانتحلت رسالةَ جَمْعِ المشترع الصِّحَافىِّ بالصَّيْرفىِّ ، وصَوَّرَ لها خَيالُها الأخبلُ رجلَ السراديب ، الذى لا تزال يداه مُضَرَّجتين بدمِ شهر سبتمبر ، على شكل امرئٍ عاملٍ فى حزب الماليين الذى كانت وكيلةً له ، منهمكٍ ، عن انفعالٍ وسذاجة ، فى المضاربة ، فى هذا العالَم الذى تُعَزِّزُه بالمحتكرين والمتعهدين والرُّوَّاد والشركاء وذوات الدَّلال .

وتُصِرُّ على الوطنىِّ غَمْلانَ أن يأتىَ بها إلى صديق الشعب الذى يَسْكُن غيرَ بعيد ، الذى يَسكُن قريباً من الكنيسة فى شارع الكُورْدِيْليه ، ويقاوِم المصوِّرُ قليلًا ، ثم يذْعن لرَغْبة الوطنية .

ويُدْعَى الفارسُ هنرى إلى اللَّحَاق بهما ، ويَرفِض راغباً فى المحافظة على حريته حتى تجاه الوطنىِّ مارَا الذى قام بخِدَمٍ للجُمهورية لا ريب فيها ، ولكن مع توانيه الآن ، أفلم يشِرْ على أهل باريس بالانقياد ؟

ويَرْثِي الفَتَى هنرى ، بصوتٍ حزين وزَفَراتٍ طويلةٍ ، للجُمهورية التى خانهـا من عَلَّقت آمالَها عليهم ، فقـد رفضَ دَنْتُون مبـدأَ فرضِ ضريبةٍ على الأغنياء ، وعارضَ رُوبِسْپِيرُ دوامَ الأقسام ، وكَسَرَ مارَا صَوْلَةَ الوطنيين بنصائحه الوضيعة .

ثم يَصْرُخ قائلاً : « وَىْ ! يا لَضَعْف هؤلاء الرجال بجانب لُوكْلِير[1] وجاكْ رُو[2] !... رُو ! لُوكْلِير ! أنتما صديقا الشعب الحقيقيان ! » .

ولم يَسْمَع غَمْلان هـذا الـكلام الذى كان يُثير غضَبه لا ريب ، فقـد ذهب إلى الغرفة المجاورة ليَلْبَس ثوبَه الأزرق .

وتقول الوطنية رُشْمُور للوطنية غَمْلان : « إن ابنك عظيمٌ بنبوغه وأخلاقه » .

وتُجيب الوطنيـةُ الأرملةُ غَمْلانُ عن ذلك بشهادة طَيِّبةٍ لابنها من غير أن تُفاخِر به أمام سـيدةٍ من الطبقة العليا ، وذلك لأنها تَعَلَّمت فى صِباها أن واجبَ الصُّغَراء الأولَ هو الخُشُوع أمام الـكُبراء ، وقد كانت راغبةً فى التَّوَجع الذى كان لديهـا الـكثيرُ من عوامله فتَجِدُ فى شكواها فَرَجاً لهمومهـا ، وما أكثر ما كانت تَـكْشِفُ عن آلامها لمن تعتقد أنهم قادرون على تخفيفها فلاح لهـا أن مدام دُو رُشْمُور منهم ، ثم إنها تُحَوِّل الفَيْنَةَ الملائمة إلى مَكْسَبٍ فتَقُصُّ بلا انقطاعٍ أمرَ فاقةِ الأمّ والابن اللذين يموتان جوعاً ، وتذكر أنه لا يُبَاع من الألواح شىءٌ وأن الثورة قتلت التجارة كما لو وقع هـذا بسِكّين ، وأن الأَقْوَاتَ غَدَت نادرةً وبأثمان غالية جدًّا . . .

---

(١) لوكلير : قائد فرنسى وزوج بولين أخت نابليون (١٧٧٢ — ١٨٠٢) .

(٢) جاك رو : ثورى فرنسى ، انتحر عندما سمع حكم المحكمة الثورية عليه بالاعدام سنة ١٧٩٤ .

وتَعجَل السيدةُ الساذجة فى سَرْدِ شكاواها بما يُمكِن شَفَتَيْها الرطيبتيْن ولسانَها الثقيلَ من سرعة ، وذلك لتكونَ قد نَطَقت بكلِّ شىءٍ قبل ظهور ابنها الذى لن يوافق على مثل هذا العويل عن عِزَّةٍ ، وتَبْذُل جَهْدَها مُسْرعةً فى إثارة حَنَان سيدةٍ تراها غنيةً معاشِرةً حَمْلًا لها على الالتفات إلى حال ابنها ، وهى تَشْعُر بأن جمال إيڤَارِسْت يشترك معها فى إلَانةِ امرأةٍ أصيلة .

والحقُّ أن الوطنيةَ رُشْمُورَ أَظْهرت رِقَّةَ قلبٍ ، فقد أثارها ما ظهر لها من آلام إيڤَارِسْت وأُمِّه وبحثَت عن وسائل تسكينها ، ولاح لها أن يشترى الأغنياءُ من أصدقائها آثارَ المصوِّر .

وتقول باسمةً : « ذلك لأنه لا يزال يوجد مالٌ فى فرنسة ، ولكنه يتوارى » .

حَسَنًا ، فالفنُّ قد ضاع ، وستنال له وظيفةً عند مُورْهارْد أو عند الإخوان پرِّيغُو ، أو وكالةً عند أحد ملتزمى الجيوش .

ثم ترى أن هذا لا يُصنَع لمن يتصف بمثل أخلاقه ، وتفكّر لحظةً ، وتأتى من الإشارة ما يدلُّ على أنها وجدتْ ما يُبْتَغى :

« بَقِىَ تعيينُ كثيرٍ من المحلَّفين لدى المحكمة الثَّوْرية ، فالذى يلائم ابنكِ هو أن يكون محلَّفاً أو قاضياً ، وأَجِدُنى ذاتَ صلةٍ بأعضاء لَجْنة السلامة العامة ، وأَعْرِف رُوبِسْپيرَ البكْرَ ، ويتناول أخوه عَشاءه عندى غالباً ، وسأُكلّمهم فى الأمر ، وسأُكلِّم مُونْتَانِه ودُومَا [1] وفُوكْيه [2] » .

ويوجب هذا سرورَ الوطنية غملان ويُثير شكرَها ، وتَضَع إصبعاً على فمها ، فقد دَخل غَمْلانُ المحْترَفَ .

---

(١) دوما : صديق روبسبير ورئيس المحكمة الثورية (١٧٥٧ ــ ١٧٩٤) .
(٢) فوكيه تنفيل : النائب العام فى دور الهول (١٧٤٦ ــ ١٧٩٥) .

وَيَنْزِل مع الوطنية رُشْمُورَ من السُّـلَّم القاتم الذى كان يَسْتُر دَرَجَه الخشبية وَ بلاطه دَرَنٌ (١) قديم

وكان يمتدُّ على البُونْ نُوف ، حين مَيْلِ الشمس كثيراً ، ظِلُّ قاعدةٍ يقوم عليها حِصانٌ برُنْزِىٌّ وتزينها الآن رايات الأمة ، وكان يستمع جُمهورٌ من رجال الشعب ونسائه ، مُتَجَمِّعٌ زُمَراً صغيرةً ، إلى أناسٍ من الوطنيين يتكلمون مُخافتين ، وكان الجمهورُ المَذْعور ملازماً سكوتاً لا يَقْطَعه غيرُ أنينِ غضبٍ وصَرَخاتِ سُخْطٍ فى الحين بعد الحين ، وينصرف كثيرٌ من هؤلاء مسرعين إلى شارع تيُونفيل الذى كان يُدْعى شارعَ دُوفين سابقاً ، وينساب عَمْلانُ فى إحدى تلك الزُّمَر ، ويَسْمَع أن مارَا قُتِلَ .

ويُؤَكِّد الخبر ويُبَيِّنُ رُوَيْدً رُوَيْدًا ، فقد قُتِل فى مَغْسَلٍ من قِبَل امرأةٍ أتتْ مِنْ كانَ (٢) قَصْداً لاقتراف هذا الجرم .

ويَظُنُّ بعض الناس أنها فَرَّت ، ويقول مُعْظَم الناس إنها قُبِضَ عليها .

وكان الجميع هنالك كَقطيع بلا راعٍ .

وكان الجَمْعُ يقول :

« إن مارَا حَنُونٌ مُحسنٌ إنسانٌ ، وعاد مارَا لا يكون هنالك ليقودنا ، مارَا الذى لم يُخْدَعْ قَطُّ ، مارَا الذى كان يَكْشِف كلَّ شىء ، مارا الذى كان يَجْرُؤ على إظهار كلِّ شىء !. . . وماذا يُصْنَعُ وماذا يَقَع ؟ لقد خَسِرْنا مشيرَنا ومُجيرَنا وصديقنا » ، وكان الجَمْعُ يَعْرِف من أين جاءت الضَّرْبة ومَنْ سَدَّد ذراعَ هذه المرأة ، ويَئِنُّ الجميع ، ويقول الجُمهُور :

---

(١) الدرن : الوسخ .

(٢) كان : من مدن فرنسة .

« طُعِنَ مارا بأيدٍ أثيمة تريد استئصالَنا ، ويُنْذِر قتلُه بذبح جميع محبِّي الوطن ».

ويُختَلَفُ فى رواية أحوالِ هـذا القتل الفاجع وفى آخر مافاه به القتيـل ، ويُتَساءَل عن القاتلة التى لايُعْرَف عنها غيرُ كونها فتاةً أرسلها الاتحاديون الخائنون، وتُكَشِّرُ الوطنياتُ عن أنيابهنّ وَيَنْذِرْنَ الجانيةَ للعذاب ، ويَحْسُبْنَ المِقْصَلة لَيِّنة وَيَجِدْنَ السَّوْطَ والدُّولاَبَ والتمزيقَ أليقَ بهذا الغُول ، وتَتَمَثَّلُ لهنَّ ضروبُ تعذيبٍ جديدةٌ .

ويَجُرُّ رجالٌ من الحَرَس الوطنىِّ مسلَّحون رجلًا صارمَ الهيئة ، ويَظْهَرُ مُمَزَّقَ الثياب ذا خطوطٍ من الدم على وجهه الشـاحب ، فقد بُغِتَ وهو يقول إن مارَا استحقَّ نصيبَـه بتحريضه على السلب والقتل بلا انقطاع ، ولم يَسْطِع الجُنْدُ إنقاذَه من صَوْلَة الجَمْع إلاَّ بمشقَّةٍ عظيمة ، وكان يشار إليه بالأصـابع على أنه شريكُ القاتلة ، وكان التهديدُ بالقتل يتصاعد فى طريقه .

ويَظَلُّ غَمْلاَنُ مأفوناً [١] أَلَمَاً ، ويَجِفُّ مافى عينيه الملتهبتين من دمعٍ عَصِىّ ، فقد كان يختلط بألمه البَنَوِىِّ هَمٌّ وطنىٌّ وورعٌ شعبىٌّ فيُمزِّقه ذلك .

ويَدور فى خَلَده :

« مارَا بعد لُوپلتيه و بعد بُورْدون [٢] !. . . أَعْرِف مصيرَ محبِّى الوطن الذين قُتِلوا فى شانْدُ ومارْس ونانْسِى [٣] وباريس ، وسيَهْلِكون كلُّهم » ، ويُفكِّر فى أمر الخائن ڤِنْفن [٤] الذى كان يَزْحف إلى باريس على رأس جمعٍ مؤلفٍ من

---

(١) المأفون : الضعيف الرأى .
(٢) بوردون : من رجال العهد (١٧٥٨ — ١٧٩٧) .
(٣) نانسى : من مدن فرنسة .
(٤) فنفن : قائد فرنسى (١٧٤٤ — ١٨١٤) .

ستينَ ألفَ مَلَكِيّ فيُحَرِّق هذه المدينة الباسلة المحكومَ عليها ويُضَرِّجها بالدم لو لم يُوقَفْ فى ڤِرْنُون .

وما أكثر ما كان يمكن مارَا أن يَعْرِفَه فيُحْبِطه بحكمته وانتباهه من الأخطار والخطط الجارمة والخيانات ! ومن ذا الذى يستطيع بعده أن يَشِيَ بكُوسْتِينَ المِكْسالِ فى مُعَسْكَر سِزَارَ والرافضِ أن يَرْفَع الحِصارَ عن ڤَلَنْسِين ، وأن يَشِيَ ببيرونَ (١) البَطَّالِ فى ڤانْدِه الدنيا مُغْضِيًا عن الاستيلاء على سُومُور (٢) وحصارِ نانْتْ ، وأن يَشِيَ بدِيلُّونَ (٣) الخائنِ للوطنِ فى الأَرْغونَ (٤) ؟ ...

ويزيد الصُّرَاخُ المشؤوم حَوْلَه حيناً بعد حين :

« قُتِلَ مارَا ، وقد قتله الأريستوقراطيون ! » .

وبينما كان منتفِخَ الأوداجِ ألماً وحقداً وصبابةً ذاهباً ليؤدِّيَ واجب التحية المأتمية إلى شهيد الحرية إذ تَدْنُو منه فَلّاحةٌ عجوزٌ لابسةٌ عِصَابةً لِيمُوزَنِيَّةً (٥) وتسألُ منه عن كون مسيو مارَا الذى قُتِلَ هو قِسِّيسُ سانْ پِيرْ دُوكِرْوا : مارَا .

---

(١) بيرون : قائد فرنسى ، قطع رأسه سنة ١٧٩٣ .
(٢) سومور ونانت : من مدن فرنسة .
(٣) ديلون : قائد خدم فى فرنسة ولد فى دبلن (١٧٤٥ — ١٧٩٢) .
(٤) الأرغون : بلد فرنسى يمتد بين الموز والاين .
(٥) نسبة الى البلد الفرنسى ليموزن .

٨

كان مساء عَشِيَّةِ العيد هادئاً صافياً فتتنزَّهُ إلُودْيَة فى ميدان الاتحاد مُتَأبِّطَةَ ذراعَ إيڤَارِسْت ، وكان العمال يُتِمُّون مُسْرِعين رَفْعَ أعمدةٍ وتماثيلَ ومعابدَ وتلٍّ وهيكلٍ ، وتُنْصَبُ رموزٌ ضخمةٌ بغتةً ، يُنْصَبُ هِرْكُولُ الشعبىُّ هازًّا دُبُّوسَه[1] ، وتُنْصَبُ الطبيعةُ راويةً العالَمَ بثُدِيِّها التى لا تَنْضُب ، ويُنْصَبُ ذلك فى العاصمة التى صارت فريسةَ الجُوع والهَوْل والمتسائلِ أهلوها عن سماع صوت المدافع النمسوية على طريق المُو[2] ، وتُزِيل ڤانْدِه عارَ انكسارها أمام نانْت بانتصاراتٍ تَنِمُّ على الإقدام ، ويُحيطُ بالمدينةِ الثورية الكبرى إطارٌ من الحديد واللَّهَب والحقد ، ومع ذلك فإنها تَسْتقبل ، مع الفخامة وكَمِلكةٍ إمبراطوريةٍ واسعة ، نوابَ المجالس الابتدائية التى انتحلت الدُّستور ، وكان النظامُ الاتحادىُّ قد قُهِر ، وستَغْلِب الجمهوريةُ الواحدةُ التى لا تَتَجَزَّأ جميعَ أعدائها .

ويقول إيڤَارِسْتُ مادًّا ذراعه إلى القاع العامر :

« هنالك ، فى ١٧ من يوليه سنة ١٧٩١ ، قُتِلَ الشعبُ عند أسفل هيكل الوطن من قِبَل الرذيل بايِّى[3] ، ويَعُودُ شاهدُ القتل الجندىُّ يَسَّاڤَان إلى منزله

---

(١) الدبوس : عصا من حديد أو خشب فى رأسها شىء كالكرة .

(٢) المو : من مدن فرنسة الصغيرة .

(٣) بايى : أديب، وفلكى ورئيس للمجلس التأسيسى الفرنسى (١٧٣٦ – ١٧٩٣) .

ويُمزِّق ثيابَه ويَصْرُخ قائلًا : « لقد أقسمتُ على الموت مع الحرية ، والحريةُ فُقِدَت ، فأموت » ، ويشتعل دماغُه جنوناً » .

ومع ذلك فإن المتفننين والبُرْجُوازيةَ الهادئين كانوا يُدَقِّقون فيما أُعِدَّ للعيد ، فيُقْرَأُ على وجوههم حبُّ الحياة التى هى كئيبةٌ كنفوسهم ، وكان أعظم الحوادث ، إذا ما دخل نفوسَهم ، يَصْغُر على قَدَرهم ويصير تافهاً مثلَهم ، وكان كلُّ زوجين يَحْمِلان على أَذْرُعهما ، أو يَجُرَّان بأيديهما ، أو يَحْمِلان على العَدْوِ أمامهما ، أولاداً لم يكونوا أجملَ من آبائهم ولا يُؤْمَل أن يكونوا أسعدَ منهم ، فيَهَبُون الحياةَ لأولادٍ آخرين متوسطين سروراً وحُسْناً مِثْلَهم ، ومما كان يُرَى أحياناً فتاةٌ هيفاء حسناء تُوحِى إلى الشُّبَّان حين مرورها برغبةٍ سَخِيَّة وإلى الشِّيب بأسفٍ على الحياة الطيبة .

وبالقُرْب من المدرسة الحربية يُرَى إيقَارِسْتُ إلُوديَةَ تماثيلَ مصريةً رَسَمها داڤيد وَفْقَ النماذج الرومانية فى عَهْدِ أغسطس ، وهنالك يَسْمَعان قولَ شائبٍ باريسىٍّ مُبَوْدَرٍ (١) :

« يَظُنُّ المرءُ نفسَه على ضِفاف النيل ! » .

لم تَزُرْ إلُوديةُ صديقَها منذ ثلاثة أيام ، فقد وَقَعت حوادث مهمَّة فى « مصوِّر الغرام » ، وذلك أن الوطنىَّ بليزْ اتُّهِم أمام لَجنة السلامة العامة بغَشِّ المُؤَن ، ومن حُسْن الحَظِّ أن كان بائعُ الصُّوَر المطبوعة معروفاً فى قِسْمه ، فوكَّدَت لَجنةُ الرَّقابة فى قِسْمِ الحِرَاب غَيْرته الوطنية لدى لَجنة السلامة العامة مُزَكِّيةً إيّاه تماماً .

وتَرْوِى إلُوديةُ هذا الحادثَ مع وَجْدٍ فتقول :

---

(١) Poudré

« أَجَلْ ، إننا هادئون الآن ، غير أن الرُّعْبَ كان شـديداً ، وقد كاد أبى يُسْجَن ، ولو دام الخَطَرُ بضعَ ساعاتٍ أُخَرَ لأَتيتُك طالبةً أن تقوم ، يا إِيقَارِسْت ، ببعض المساعى النافعة له لدى أصدقائك النافذين » .

ولم يُجِبْ إيقَارِسْت عن ذلك ، وقد كانت إلُودْيةُ بعيـدةً من تقدير عُمْق هذا السكوت .

ويسيران على طول ضِفَاف السِّين واضعاً كلٌّ منهما يده فى يد الآخر ، ويتبادلان أرقَّ العواطف بلغةِ جُولْيه [١] وسانْ پرُو ، وكان جانْ چاك الصالحُ قـد مَنحهما من الوسائل مايُزَيِّنان به غرامَهما .

وتأتى البلديةُ بمعجزةِ جَعْلِ اليُسْر يَسُود المدينةَ الجائعةَ ليـومٍ واحد فتُقَام سُوق فى ميـدان الأنْقَاليد على شاطئ النهر ، ويبيـع تجَّارٌ فى خِصَاصٍ [٢] مقانقَ [٣] ونقانقَ [٤] وخَلْعَا مطبوخاً [٥] وفخـذَ خنزيرٍ مُمَلَّحةً مستورةً بالغار وحَلاَوَى نانْتِيَّةً [٦] وكعكَ زَنجبيـلٍ وفطايرَ وخبزَ أربعةِ الأرطال ولِمونَادَةً وخمراً ، وتُفْتَحُ دكاكينُ لبيع الأناشـيدِ الوطنية والإشاراتِ والشُّرُطِ المثلثةِ الألوان والأكيـاسِ وسلاسلِ النُّحاس وأنواع الحُلِيِّ الدقيقـة ، ويَقِف إيقارِسْتُ أمام معروضاتِ صائغٍ وضيعٍ فيَخْتار خاتماً فِضِّيًّا مشتملاً على صورةٍ بارزة لرأس مارَا الملتفّ فى مِنديل ، ويُدْخِلُ إصبعَ إلودية إليه .

---

(١) اسم رواية لجان جاك روسو أغوى فيها سان برو الفتاة جوليه .
(٢) الخصاص : جمع الخص ، وهو البيت من قصب أو شجر أو نحو ذلك .
(٣) Saucissons
(٤) Cervelas
(٥) Andouille
(٦) نسبة الى كورة نانتر فى فرنسة .

وفى ذلك المساء يَذْهب غَمْلانُ إلى شارع لارْبِرْسِكْ ، ليَزُور الوطنية رُشْمُورَ التى اسـتدعته لأمرٍ ضرورىّ ، ويَجِدُها فى مَخْدَعها مسـتلقية على كرسىّ طويل عارية مِغْناجاً .

وبَيْنا كان وَضْع هـذه الوطنية يَنِمُّ على ارتخاءٍ مُغْرٍ كان كلُّ شىء حَوْلَها ناطقاً بظَرْفها وعَبَثها ومواهبها ، فمن مِعْزَفٍ بجانب بِيَانٍ مفتوحٍ قليلاً إلى قِيثَارَة على كُرْسِيٍّ فإلى إطارِ تطريزٍ شُدَّ أَطْلَسٌ[1] فيه فإلى صورةٍ صغيرةٍ مرسومةٍ رَسْماً خفيفاً وأوراقٍ وكتبٍ على المِنْضَدة فإلى مكتبةٍ مُشَوَّشة كما لو عَبِثَتْ بها يَدٌ جميلةٌ راغبة فى المعرفة والإحساس ، وتمُدُّ يدها إليه ليُقَبِّلَها وتقول له :

« سلاماً أيها الوطنىُّ المحلَّف ! ... لقد أعطانى رُوبْسِپير البكرُ فى هـذا اليوم كتاباً إلى الرئيس إرْمان نافعاً لك ، كتاباً محكماً جاء فيه ما يَلِى تقريباً : « أُعَرِّفكَ بالوطنىِّ غَمْلان الجديرِ بالإكرام لمواهبه ووطنيته ، وأرى من الواجب أن أدلَّك على محبٍّ للوطن متحلّ بمبـادئَ ثابتةٍ وسلوكٍ رَصِين فى صُفُـوف الثورة ، ولى أملٌ ألاَّ تَدَعَ فرصةً تمُرُّ من غير نفعٍ لُجمهورىّ ... » ، وقـد حَمَلْتُ هذا الـكتاب إلى الرئيس إرْمان من غير أن أَفُضَّه ، فأحسن قبولى وأمضى توليتَـك حالاً ، فهذا أمرٌ قد قُضِىَ » .

غَمْلانُ بعد دقيقة صَمْتٍ :

« أُقْسِم بشرفى أننى لا أَقْبَـلُ وظائفَ المحلَّفِ إلاَّ لأخْدُمَ الجمهُـوريةَ وأنتقمَ لها من جميع أعدائها ، مع أننى لا أَمْلِك قطعةَ خبزٍ لأمِّى » .

وتُفـكّر هـذه الوطنيةُ فى الشُّـكر الفاتر والسَّلام الصارم ، فتَرَى أن غَمْلان يُعْـوِزُه اللُّطْفُ ، ولـكنها كانت كثيرةَ الحُبّ للشـباب فتَغفِـر له بعضَ عُنْفِه ،

---

(١) Satin

وكان غَمْلانُ جميلاً ، وتَجِدُ فيـه فَضْلا ، وتأمُلُ « أن يُرَوَّض » ، وتَدْعُوه إلى أعشيتها لأنها تَسْتقبل زُوَّاراً بعد التمثيل فى كلِّ ليلة .

« تَجِدُ عندى رجالاً من ذوى الذَّكاء والنبوغ ، تُلاَقِ عندى إلِّـفيـو[١] وتالما[٢] ، والوطنىَّ فِيجه[٣] الذى يَنْظِم الشعرَ ببراعة عجيبة ، وقد أنشدنا الوطنىُّ فرَنْسوا[٤] « پاليماه » التى تُرَدَّد فى دار التمثيل الوطنىِّ فى الوقت الحاضر ، فأسلوبُ الوطنىِّ فرنسوا رائعٌ ناصع ككلِّ ما يُدَبِّجه يراعُه ، والقطعةُ مؤثّرة فأَبْكَتْنا ، والفتاة لانْج هى التى ستُمَثِّل دور پاليما » .

غَمْلان : « أعتمد على حُـكمكِ أيتها الوطنية ، بَيْدَ أن دار التمثيل الوطنىِّ قليلةُ الوطنية ، ومما يؤلِم الوطنىَّ فرَنْسوا أن تُحْمَل آثاره على هذه الألواح المُهانَةِ بأشـعار لايَا[٥] الهزيلَة ، ولم تُنْسَ فضيحةُ رواية لايَا : « صديق القوانين » . . . » .

— أيها الوطنىُّ غَمْلان ، أَدَعُ لكَ لايَا ، فهو ليس من أصدقائى .

وليس عن عطفٍ خالصٍ استعانتُها بنفوذها فى تولية غَمْلان لِمَنْصِبٍ مَرْموق ، فبعـد أن صنعت وغامرت إيصالاً له إلى ما أرادت صارت تَهْدِف إلى ربطه بهـا ربطاً وثيقاً وإلى اتخاذه سَنَداً لدى العَدالة التى قد تُدْعَى إليها ذات يومٍ ، وذلك لأنها كانت تُرْسِل كثيراً من الرسائل داخلَ فرنسة وخارجَها ، ولأن مثلَ هـذه الرسائل كان محلَّ ارتياب .

---

(١) الفيو : مطرب فرنسى (١٧٦٩ — ١٨٤٢) .
(٢) تالما : ممثل فرنسى (١٧٦٣ — ١٨٢٦) .
(٣) فيجه . شاعر فرنسى (١٧٦٨ — ١٨٢٠) .
(٤) فرنسوا : أديب وشاعر وسياسى فرنسى (١٧٥٠ — ١٨٢٨) .
(٥) لايا : شاعر فرنسى (١٧٦١ — ١٨٣٣) .

« أَوَتذهب إلى دار التمثيل غالباً أيها الوطنىّ ؟ » .

و إن الأمر لـكذلك إذ يَدْخُل الغرفةَ الفارسُ هنرى الذى هو أكثرُ فتنةً من الولد باتيل ، ويَظْهَر حاملًا فَرْدَيْن[1] فى زُنَّاره .

ويُقَبِّـل يدَ الوطنية الحسناء التى تقول له :

« ها هو ذا الوطنىُّ إيڤارِسْتْ غَمْلان الذى قضيتُ النهارَ كلّه من أَجْله فى لَجْنة السلامة العامة فلم يَشْـكُرْ لى ذلك قَطُّ ، فعَزِّرْه » .

العسكرىُّ صـارخاً : « آهْ ! أيتها الوطنيـة ، أنتِ تذهبين لزيارة مشترعينا فى التويلرى ، يالله من منظرٍ محزن ! أَوَ يَجُوز لمثلى شعبٍ حُرٍّ أن يَجْلِسوا تحت سقوف طاغيةٍ ؟ لقـد كانت التُّرَيَّاتُ نفسُها تُلْقِى أنوارَها على مؤامرات كابِه[2] ودَعاراتِ أَنْطوانِت[3] فصارت اليوم تُنير سَهَرَاتِ مشترعينا ، فهـذا أمرٌ تَرْتَجِفُ منه الطبيعة » .

الوطنية : « هَنِّئْ الوطنىَّ غَمْلان يا صديقى ، فقد نُصِب محلَّفاً فى المحـكمة الثَّوْرية » .

هنرى : « أباركُ لك أيها الوطنىُّ ، فأنا سعيدٌ بأن أرى رجلًا له مثلُ سَجِيَّتِك يُوَلَّى مثلَ هذا المَنْصِب ، غير أننى قليلُ الثقة بهذه المحـكمة القانونيـة التى أَوْجدها المعتدلون فى مجلس العهـد ، بنِمِزِيس[4] الحليمةِ هـذه التى تدارِى المؤتمرين وتَحْفَظ

---

(١) Pistolet

(٢) كابه : من ألقاب ملوك فرنسة ، وقد أطلق على لويس السادس عشر بعد الغاء الملكية .

(٣) أنطوانت : زوجـة لويس السـادس عشر وابنـة امبراطور النمسـة (١٧٥٥ — ١٧٩٣) .

(٤) نمزيس : الهة الانتقام والعدل الالهى كما جاء فى أساطير اليونان .

الخائنين ، ولا تكاد تَضْرِب الاتحاديين ، والتى تخاف أن تَدْعُوَ النمسوية إلى قاعتها ، أَجَلْ ، ليست المحكمةُ الثورية هى التى تنقذ الجمهورية ، أجَلْ ، إنهم مجرمون أولئك الذين وَقَفُوا صولةَ العدل الشعبىِّ فى وضعنا الحاضر الموجبِ لليأس » .

الوطنية رُشْمُور : « ناولنى هذه القِنِّينة يا هنرى ... » .

ويَعود غَمْلانُ إلى منزله فيَجِدُ والدته تَلْعَبُ هى والشائبُ بُروتو فى لُعْبَة الورق على ضَوْءِ شَمْعةٍ مُدَخِّنة ، وتُشِير الوطنية من غير حياءٍ إلى « أوراق مَلِكٍ ثلاثٍ » ، وتقول :

« إننى سعيدةٌ فخورٌ بأن أكون أمَّ مُحَلَّف ، والعدلُ أمرٌ جميل ، وهو ألزم الأمور ، ولولا العدلُ لظُلِم الضعفاء فى كلِّ حين ، وأعتقد أنك سَتَحْكُم بالعدل يا بُنَىّ ، وذلك لأننى وجدتكَ عادلاً رحيماً فى كلِّ أمرٍ منذ صِباك ، وأنت لا تَصْبِر على جَوْر ، وأنت تقاوم كلَّ بَغْيٍ بما لديكَ من قوة ، وأنت رؤوفٌ بالتُّعَسَاء ، وهذا هو أروع ما يَتَحلَّى به قاضٍ ... ولكنْ قُلْ لى ، يا إيڤارسْت ، كيف يكون لباسُك فى هذه المحكمة الكبرى ؟ » .

يجيب غَمْلان عن هذا بأن القضاة يعتمرون بقُبَّعةٍ ذات ريش أسود ، وأما المحلَّفون فليس لهم حُلَّةٌ رسمية ، بل يَلْبَسون ثيابَهم العادية ، واسْمَعْ جوابَ الوطنية :

« الأصلحُ أن يَلْبَسُوا حُلَّةً وشَعْراً مستعاراً ، فهم يَظْهَرون بهذا أكثرَ حُرْمَةً ، ومع أنك تُهْمِل أمرَ لباسك فإنك جميل ، وتزدان بك ثيابُك ، غير أن أكثر الرجال يحتاجون إلى زُخْرُفٍ ليَبْدُوا عظماءَ ، والأصلحُ أن يَلْبَسَ المحلَّفون حُلَّةً وشعراً مستعاراً » .

وكانت الوطنية تسـمع أن أعمال المحلَّف فى المحـكمة تأتيه بشىء ، وهى لم تَتَجنَّب سؤالَه عن كَسْب ما تطيب به الحياة ، وذلك لأن على المحلَّف أن يكون حسنَ المظهر أمام النـاس .

وتَعْلَم راضيةً أن المحلَّفين كانوا يَقْبِضون تعويضَ ثمانيةَ عشرةَ ليرةً عن كلِّ جلسةٍ وأن كثرةَ الجرائم ضدَّ سلامة الدولة كانت تَفْرِض عليهم الاجتماعَ غالباً .

وَيَلُمُّ الشائبُ بروتو أوراق اللَّعِبِ وينهَض ويقول لغَمْلان :

« لقد وُلِّيتَ قضاءً جليلًا مرهوباً ، وأُهنئك بإلقائك نور ضميرك على محكمةٍ أكثرَ ثباتاً وأقلَّ ضـعفاً من غيرها على مايحتمل ، وذلك لأنها تبحث عن الخير والشرِّ من حيث المصالحُ الواضحةُ والمشاعرُ الصريحة ، لامن حيث هما ومن حيث جوهرُهما ، وعليكم أن تَقْضُوا بين الحقد والحُبِّ عن غريزةٍ ، لا بين الخطأ والصواب اللذين يتعـذر على ذكاء الناس الضعيف أن يَميزَ أحدَهما من الآخر ، وإذا ماحَكَمْتم بما توجبه حركاتُ قلوبكم لم تُخْدَعُوا ، ويكون الحُكمْ ملائماً ما لاءم أهواءكم التى هى قانونُـكم المقدَّس ، ولو كنتُ فى مكان رئيسـكم لصنعتُ مثلَ بريدوا (١) وبَنَيْتُ أحكامى على النَّرد فهذه أسلمُ وسيلةٍ فى إقامة العدل » .

---

(١) بريدوا : رجل خيالى هزلى جعل منه الكاتب الفرنسى رابليه قاضيا تقوم أحكامه على نتيجة رمى النرد .

٩

تبدأ أعمال إيڤارِسْت غَمْلان فى ١٤ من سبتمبر ، أى بُعَيْدَ إعادة تنظيم المحكمة التى ستكون أربعةَ أقسام يشتمل كلٌّ منها على أربعةَ عشرَ مُحَلَّفاً ، وكانت السجونُ طافحةً ، وكان المتَّهمُ العامُّ يَعْمَل ثمانىَ عشرةَ ساعة من كلِّ يوم ، وبالهَوْل يعارِضُ مجلسُ العهد هزائمَ الجيوش وفِتَنَ الولايات وما يُنْسَجُ من المكايد والمؤامرات والخيانات ، فالآلهةُ عِطاش .

وأولُ عملٍ يأتيه المحلَّف الجديد هو أن يقوم بزيارةِ إكرامٍ للرئيس إرْمان الذى فَتَنه بلُطفه ولسانه وأُنسه ، وهو إذ كان ابنَ بلدٍ لرُوبِسْپير وصديقاً له مقاسماً مشاعرَه فقد أبدى قلباً رقيقاً صالحاً ، وقد كان مُشْبَعاً من تلك المشاعر الإنسانية الغريبةِ عن فؤاد القضاة منذ زمن طويل والتى قام عليها مجد دُوپاتى (١) وبَكَّاريا (٢) ، وقد كان يُهَنِّئُ نفسه بما أدخله إلى النظام القضائىّ من لِين ، من إلغاءٍ لكلِّ تعذيبٍ شائن ولكلِّ تنكيلٍ جائر ، وقد كان يُسَرُّ من نُدْرَة عِقاب الموت وقَصْره على الجرائم الكبرى بعد أن كان يُسْرَف فى الحُكْم به فى الجرائم الصغرى ، ولو كان الأمرُ بيده لألغاه فى كلِّ ما لا يَمَسُّ السلامة العامة كما كان رُوبِسْپير يريد ، ولكن مع اعتقاده أنه يَخُون الدولةَ إذا لم يَفْرِض عقوبةَ القتل على مَنْ يقترفون جرائمَ ضِدَّ السيادة القومية .

---

(١) دوپاتى : رئيس برلمان بوردو (١٧٤٦ — ١٧٨٨) .

(٢) بكاريا : من فلاسفة ايطالية وعلماء قانون العقوبات فيها (١٧٣٨ — ١٧٩٤) .

وكان جميع زملائه يفكّرون هكذا : يفكرون فى أن المبدأ الملَكى القديم حَوْلَ « مصلحة الدولة » كان يُوحِى إلى المحكمة الثورية ، وأن دوام السلطان المطلق ثمانية قرون كان يسفر عن قضاتها ، وأنها كانت تفصل بين أعداء الحرية وَفْقَ مبادئ الحقوق الإلهية .

وفى اليوم نفسه يَدْخُل غَمْلانُ على المُتَّهم العامِّ الوطنىِّ فُوكِيه فى الغرفة التى يَعْمَل فيها مع مسجِّل قضاياه ، وقد كان فُوكْيه عُصْلُبِيًّا [١] غليظَ الصوت سِنَّوْرِىَّ العَيْن ظاهراً على وجهه العريض المَجْدُور [٢] ولونه الرَّصاصىّ أثرٌ من التَّلَف الذى تُوجِبه حياةٌ حَضَرِيةٌ منزوية فى رجالٍ أقوياء خُلِقُوا للهواء الطَّلق والتمرينات العنيفة ، وكانت الأضابير [٣] ترتفع حَوْله كجُدُر القُبُور ، وكان يُحِبُّ هذه الطوامير [٤] الهائلة التى تُريد أن تَخْنُقه كما يلوح ، وكانت له مقاصدُ قاضٍ مجتهدٍ عاكفٍ على واجباته ، وكان نَفَسه الساخنُ ممزوجاً برائحة العَرَق [٥] الذى يتناوله بقاءً على حاله والذى يَظْهَر أنه لا يَصْعَد فى دماغه لِمَا يُوجَد من جَلاَءٍ فى أقواله الوَسَطِ دائماً .

وكان يقيم بجَناح صغير من القصر هو وزوجُه الفتاة التى وَضَعَتْ له توأمين ، وكان منزلُه يتألف من هذه الزوجة الشابَّة والعَمَّة هَنْرِيتْ والخادمة پلاجْية ، وكان يَبْدُو حليمًا نحوَ هؤلاء النِّسوة ، ثم إنه كان فاضلاً بين أُسْرَته بارعاً فى مِهْنته خِلْواً من الآراء الكثيرة عُطْلاً من كلِّ خيال .

---

(١) العصلبى : القوى الشديد الخلقة العظيم من الرجال .
(٢) المجدور : المصاب بالجدرى .
(٣) الأضابير : جميع الاضبارة ، وهى الحزمة من الصحف .
(٤) الطوامير : جمع الطومار ، وهو الصحيفة .
(٥) العرق : المسكر الذى يتخذ بالتقطير من العنب وغيره .

ولم يَسْطِع غَمْلانُ أن يَمْنَع نفسَه من ملاحظته مغموماً أن كثيراً من قضاة النظام الجديد يشابهون قضاةَ النظام القديم روحاً وأُسلوباً ، والواقعُ أن إرْمان قام بوظائف المحامى العامِّ فى مجلس أَرْتوَا [١] ، وأن فُوكْيهْ كان نائباً فى شاتْليه ، وأنهما حافظا على طبعهما ، غير أن غَمْلان كان يؤمن بالبعث الثوريِّ .

ويغادِرُ مجلسَ القضاء ، ويجاوز رُواقَ القصر ، ويقِف أمام دكاكينَ عُرِضَت فيها أنواعُ السِّلَع عَرْضاً فنيًّا ، ويتصفَّح كُتُباً تاريخية وسياسية وفلسفية بين معروضات الوطنية تِينُو ككتاب « قيود العبودية » وكتابِ « رسالة فى الاستعباد » وكتابِ « جرائم الملِكات » ، ويقول : « حَسَناً ! هذه مؤلَّفاتٌ جُمهورية ! » ، ويسأل صاحبةَ المكتبة عن بيعها كثيراً من هذه الكتب ، وتَهُزُّ رأسَها نافيةً قائلة :

« لايُبَاعُ غيرُ الأغانى والروايات » .

وتُخْرِجُ مجلَّدًا صغيراً من دُرْجٍ وتُضِيفُ إلى ذلك قولَها :

« إليك شيئاً جميلاً » .

ويقرأ إيڤَارِسْتُ عُنوانَ « راهبة فى قميص » .

ويَجِدُ أمام الدكان المجاورة فليپ دِمَاهِى وهو يُؤَكِّدُ حُبَّه للوطنيةِ سانْ جُور الزاهيةِ الناعمة بين العطور والمساحيق ووُسَيِّدات [٢] الأطياب ، وهو يَعِدُ هذه البائعة الحسناءَ برسمِ صورةٍ لها ، وهو يطلب منها لقاءً فى حديقة التويلرى مساءً ، وكان ظريفاً ، وكان الإقناع يَجْرى من شفتيه وينبجس من عينيه ، وكانت سانْ جُور تستمع إليه وكانت تميل إلى تصديقه مُطْرِقَةً .

---

(١) أرتوا : ولاية قديمة بفرنسة .
(٢) الوسيدة : تصغير وسادة .

ويريد المحلّف الجديد أن يَحْضُر إحـدى المرافعات فى المحكمة وهو بين الجُمهور ، وذلك ليتعوّد القيامَ بالوظائف الهائلة التى وُلّيها ، ويَصْـعَد فى الدَّرَج الجالس عليهـا جمعٌ كبيرٌ كما لو كان الأمر فى مُدَرَّج ، ويدخل قاعةَ بَرْلُمان باريس القديمةَ .

ويختنق الإنسـانُ حتى يشاهِدَ محاكمةَ قائد ، وذلك كما كان يقول الشـائبُ برُوتُو : « إن مجلس العهد يقتدى بحكومة صـاحب الجلالة البريطانية فيحاكِم من يُغْلَب من القوّاد بدلاً من القوّاد الخائنين الذين لا يُحَاكَمون مطلقاً ، وليس من الضرورىّ أن يكون القائد المقهور مجرماً ، فلا بُدَّ من وجود قائد مغلوبٍ فى كلّ معركة ، ولاشىءَ أقلَّ من الحـكم بالقتل على قائدٍ يَهَبُ قلبَه للآخرين ... » .

وقد جَلَس كثيرٌ من هؤلاء على كرسى الاتهام ، من هؤلاء العسكريين الخِفَاف العُنُد الذين لهم أدمغةُ عصافيرَ فى جماجمِ بقر ، وكان ذلك لا يَعرِف شيئاً عن الحِصار والمعـارك التى قادها أكثرَ مما يَعْرِف القُضاةُ الذين يسألونه ، وكان الاتهام والدفاع يَفْرَقان فى البحث عن عدد الجُنْـد وعن الأهداف والعُـدَد والزُّحُوف وعكسِ الزُّحوف ، وكان جُمهور الوطنيين ، الذى يَتَتبع هـذه المجادلاتِ الغامضةَ التى لا نهايةَ لهـا ، يُبْصِر وراء القائد السخيف وطناً مُفتَّحَ الثُّغُور مُمزَّقاً يُقاسى ألفَ موتٍ ، وكان هؤلاء الوطنيون يَضْغَطُون بعيونهم وأصواتهم هيئةَ المحلَّفين الهـادئين على مقاعدهم حتى يَـنْزِل حكمُهم كدُبُّوسٍ على رؤوس أعداء الجُمهورية .

وكان إيڤَارِسْتُ يُحِسُّ هذا بحرارة ، كان يَشْعُر بأن اللذيْن يجب القضاء عليهما فى شخص ذلك المسكين هما الغُولان الفظيعان اللذان يُمزِّقان الوطن ، هما العصيان والهزيمة ، والأمرُ هو أن يُعْرَف هل هـذا القائدُ بريءٌ أو مذنب ! ولمّا عاد إلى قائدِه بأسُها ،

ولمّا سلّمت طُولونُ[1] نفسَها إلى العدوِّ ، ولمّا تقهقر جيشُ الرِّين أمام قاهرى مايانْس ، ولمّا أصبح من الممكن مَحْوُ جيش الشمال ، الذى ارتدَّ إلى معسكر سِزَار ، من قِبَل سادةِ ڤَلَنْسِين الإمبراطوريين والإنكليز والهولنديين ، صارت المصلحة تقضى بتعليم القوّاد أن يَغْلِبُوا أو أن يموتوا ، وقد خَرَج غَمْلانُ من قاعة المحكمة مسرعاً ، عند ما رأى هذا الجندىَّ الأشمَط العاجزَ الأبلهَ يتلاشى فى خرائطه كما تلاشى فى سهول الشمال ، لكيلا يَهْتِف مع الجُمهور : « إلى الموت ! » .

وفى مجلس القِسْم يتلقَّى المحلَّفُ الجديدُ تهنئةَ الرئيس أُولِيڤيه الذى حَلَّفَه عند هيكل البرنابيين الرئيسِ القديم المحوَّلِ إلى هيكل الوطن أن يُزِيل من نفسه باسم الإنسانية كلَّ ضَعْفٍ إنسانىٍّ .

ويَرْفَعُ غَمْلانُ يده ويَجْعَل شاهداً عليه روحَ شهيد الحرية مارَا الذى وُضِع تمثالُه النصفىُّ تِجاه عمُودٍ أمام تمثال لُوپِلْتيه النصفىِّ فى الكنيسة السابقة .

ويدوِّى بعضُ الهُتافات مع ضجيج ، ويرتجُّ المجلس ، فقد ارتفع صُراخُ زُمرةٍ من رجال القسم المسلحين بحِرابٍ عند مدخل صحن الكنيسة .

ويقول الرئيس : « إن مما يخالف نظامَ الجُمهورية أن يُحْمَل سلاحٌ فى اجتماعِ رجالٍ من الأحرار » .

ويأمرُ بوضع البنادق والحِراب فى مخزن الأمتعة المقدسة السابق .

ويَشْغَل الوطنىُّ بُوثيزاجُ ، وكان أحدبَ حادَّ البصر مُتَقَلِّص الشفتين ، وكان من لَجنة الاحتراس ، كرسىَّ الوعظ الذى صار منبراً تَعْلُوه قَلَنْسُوَةٌ حمراء ، ويقول : « يَخُوننا القُوَّادُ ويُسَلِّمون جيوشنا إلى العدوِّ ، فقد دَحَر الإمبراطوريون فِرَقاً

---

(١) طولون : مرفأ حربى فرنسى مشهور .

من الفرسان حول پيرُون وسانْ كِنْتان[١] ، وقد سُلّمت طُولُونُ إلى الإنكليز فأنزلوا إليها أربعةَ عشرَ ألفَ رجل ، وقد ائتمر أعداء الجُمهورية حتى فى وَسَط مجلس العهد ، وقد نُسِجَت فى العاصمة مؤامراتٌ لا يُحصيها عَدٌّ لإنقاذ النمسوية ، والآن ، حين أتكلم ، يُشَاع أن كابِي الابنَ فَرَّ من التانْپل[٢] وحُمِل إلى سانْ كلُو مُكَرَّماً ، فيُراد رفعُه على عرش الطاغية ، وما يقَع من غلاء الأَقْوَات ونزول الأوراق النقدية هو نتيجةُ مكايدَ يَحُوكها عُمَّال الأجانب بيننا وعلى أعيننا ، فباسم السلامة العامة أطلب من الوطنيِّ المحلَّف أن يكون شديداً على المؤتمرين والخائنين » .

وينزل من المِنْبَر ، فترتفع فى المجلس أصواتُ : « لتَسْقُطِ المحكمةُ الثورية ! ليَسْقُطِ المعتدلون ! » .

ويَصْعَد فى المِنْبَر الوطنيُّ دوپونُ البكْرُ ، الذى كان سَمِيناً زاهراً نجاراً فى ميدان تِيُونْفِيل ، ليسأل الوطنيَّ المحلَّفَ عن وَضْعِه فى قضية أتباع بريسُّو والأيِّم كابِي .

وكان إيڤارِسْت هائباً ولا يستطيع الكلام أمام الجُمهور ، ولكن الحفائظَ توحى إليه فيَنْهَض شاحباً ويقول بصوتٍ بهيم :

« إننى قاضٍ ، ولا أستلهم غيرَ ضميرى ، وكلُّ وعدٍ أقطعه يكون مخالفاً لواجبى ، وعلىَّ أن أتكلم فى المحكمة وأن أسكتَ فى سواها ، ولا أَعْرِفكم بَعْدُ ، وأنا حاكمٌ ، فلا أَعْرِف صديقاً ولا عدوًّا » .

ويَكُون المجلسُ مُنَوَّعاً متردداً حائراً كجميع المجالس فيَرْضى بذلك ، بَيْدَ أن الوطنيَّ دُوپُونَ البكر يعُود إلى المِنْبر غيرَ غافرٍ لعَمْلان تَوَلِّيه مَنْصِباً كان يَطْمَع فيه ، ويقول :

---

(١) من مدن فرنسة .

(٢) التانبل : برج فى باريس هدم سنة ١٨١١ .

« إننى أُدْرِك ، وأستحسن أيضاً ، وساوسَ الوطنىِّ المحلَّف ، ويُذْكَر أنه محبٌّ للوطن ، وعليه أن يَرَى هل يَسْمَح له وجدانه بأن يَجْلِس فى محكمة مُعَدّةٍ للقضاء على أعداء الجمهورية عازمةٍ على الرِّفْق بهم ، وهنالك مواطآتٌ يجب على الوطنىِّ الصالح أن يتخلّص منها ، أَوَلم يَثْبُت أن كثيراً من مُحَلَّفى هذه المحكمة رَشَاهم المتهمون بالذهب وأن الرئيس مُونْتَانِه اقترف تزويراً إنقاذاً لرأس الفتاة كُورْداى[1] ؟» .

يَهُزُّ القاعةَ تصفيقٌ حادٌّ عند سماع هذه الكلمات ، وكانت القِباب تُرَدِّدُ صداه عندما صَعِدَ فُورتونِه تروبِر فى المِنْبَر ، وكان قد نَحِفَ كثيراً فى الأشهر الخمسة الأخيرة ، وكانت وَجْنَتاه الحمراوان قد جاوزتا جلدَ وجهه الشاحب ، وكان جَفْناه قد التهبا ، وكذلك حَدَقَتاه الكابِيَتَان .

ويقول بصوت ضعيفٍ لاهثٍ قليلاً حادٍّ كثيراً : « أيها الوطنيون ، لايجوز الارتيابُ فى المحكمة الثَّوْرية قبل أن يُرْتَابَ فيما تَصْدُر عنه ، أى فى مجلس العهد ولجنة السلامة العامة ، وقد أَرْعَبَنَا الوطنىُّ بُوقِيزاج بدَلالته على الرئيس مُونْتَانِه الذى أفسد أصول المرافعة نفعاً لمجرمةٍ ، وماذا لم يُضِفْ فى سبيل راحتنا حَوْل عَزْل مُونْتانه وسَجْنِه وَفْقَ شكوى المُتَّهِمْ العامّ ؟! أَوَلا يُمْكِن أن يُسْهَر على السلامة العامة من غير أن تُلْقَى التُّهَمُ فى كلِّ مكان ؟ أَوَلا تُوجَد مواهبُ وفضائلُ فى مجلس العهد ؟ أَوَليس رُوبِسْپير وكُوتُون[2] وسانْ جُوسْت[3] من ذوى الصلاح ؟ ومما يَجْدُر ذكرُه صدورُ أعنف المزاعم عن أناسٍ لم يُرَوْا مجاهدين فى سبيل الجمهورية ! وما كانوا ليقولوا غيرَ ذلك حتى يَجْعَلُوها بَغِيضة ، أيها الوطنيون ، قليلُ ضوضاء

---

(١) كورداى : قاتلة مارا (١٧٦٨ – ١٧٩٣) .
(٢) كوتون : من رجال العهد بفرنسة (١٧٥٦ – ١٧٩٤) .
(٣) سان جوست : من رجال العهد بفرنسة (١٧٦٧ – ١٧٩٤) .

وكثيرُ عملٍ ! فبالمدافع ، لا بالصُّراخ ، تُنْقَذ فرنسة ، ولا يزال نصفُ سراديب القسم غيرَ محفور ، ولا يزال كثيرٌ من الوطنيين حائزاً مقاديرَ كبيرةً من النُّحاس ، نخاطب الأغنياءَ الذين تُعَدُّ هِبَاتُهم الوطنية أحسنَ ضامنٍ لهم ، أُوصي كرَمَكم ببناتٍ ، ونساء ، جنودنا الذين تُوِّجُوا بالمجد فى الحدود واللوَار [1] ومن هؤلاء أَذْكُرُ الفارسَ بُومْيِهْ (أُوغُوسْتَن) الذى كان خادمَ مطعمٍ بشارع القُدْس سابقاً فجلَب فى اليوم العاشر من الشهر الأخير خيلاً أمام كُونْدِه ليَسْقِيَها فهاجمه ستةُ فرسانٍ من النمسويين فقَتَل اثنين منهم وأَسَرَ الآخرين ، فأقترح أن يُعْلِن القِسمُ قيامَ بُومْيِهْ (أُوغُوسْتَنْ) بالواجب .

ويُصَفِّقُ لهذه الخُطبة ، ويفترق رجال القسم عند الهُتاف : « عاشت الجُمهورية ! » .

ويَظَلُّ تُرُوبِر فى الصَّحْن وحدَه فيصافحه غَمْلانُ قائلًا :

« شكراً ، كيف أنت ؟ »

تُرُوبِر شاهقاً ماجًّا بُصَاقاً مع دمٍ فى مِنْديله : « أنا ، جيدٌ جدًّا ، جيد جدًّا ! إن للجُمهورية أعداءً فى الداخل والخارج ، ويشتمل قِسْمنا على كثير منهم ، وبالحديد والقوانين ، لا بالصُّراخ ، تُبْنَى الإمبراطوريات . . . عِمْ مساءً يا غَمْلان ، عَلَىَّ أن أكتب بضعَ رسائل » .

ويَذْهَب من هنالك إلى مخزن الأمتعة المقدسة ذلك واضعاً مِنْديلَه على شفتيه .

وتُقَوِّم الوطنيةُ الأيِّمُ غَمْلانُ وردةَ عَمْرَتِها الحريريةَ أحسنَ من قَبْل ، وَتَتَّخذ بين عشيةٍ وضُحَاها وقاراً بُرْجُوَازيًّا وزهواً جُمهوريًّا ووَضْعاً جديراً بأُمٍّ وطنىّ محلَّف ،

---

(١) اللوار : نهر فى فرنسة .

وما رَضَعته من إجلالٍ للعدل ، وما كان يوحى به إليها ثوبُ القضاء الطويل وحُلّةُ الحاكم منذ صباها ، وما كانت تَشْعُر به فى كلِّ وقتٍ من رَهْبةٍ عند رؤية هؤلاء الرجال الذين أعطاهم الله حَقَّ الحياة والموت ، فى هذه الدنيا ، مشاعرُ عَدَّت بها ابنَها ، الذى كانت تَظُنُّه من الصِّبيان ، مُبَجَّلًا جليلًا قِدِّيساً ، وكانت تَحْسَب ، عن بساطةٍ ، دوامَ العدلِ فى أثناء الثورة قويًّا كما كان يَحْسَب مشترعو مجلس العهد دوامَ الدولة بتبديل النُّظُم ، وكانت المحكمةُ الثورية تَبْدُو لها مساويةً عَظَمةً لجميع المحاكم السابقة التى عَرَفت أن تَهابَها .

ويُبْدِى الوطنىُّ بروتُو للقاضى الشاب اهتماماً مع الحيرة وتساهلاً قَسْرِيًّا ، وكان ، كالوطنية الأيِّم غَمْلانَ ، يَرَى دوامَ العدل فى جميع النُّظُم ، ولكنه كان ، على خلاف هذه السيدة ، يزدرى المحاكم الثورية كمحاكم العهد السابق ، وبما أنه لم يَجْرُؤ على الجهر برأيه ولم يَسْطِع أن يَصْبِر على الصمت فإنه نَزَع إلى ما يَعُدُّه غَمْلانُ صواباً من غريب الكلام فلا يَذْهب إلى أنه مخالفٌ لحبِّ الوطن ، ومن ذلك قوله ذاتَ مرةٍ :

« كانت المحكمةُ الموقَّرة التى ستَجْلِس فيها عما قليل قد أُسِّسَت من قِبَل مجلس السِّتّات الفرنسىِّ فى سبيل سلامة الجمهورية ، ولا مِراءَ فى أن من نزاهة رأى مشترعينا تعيينَهم قضاةً لأعدائهم ، أَجَلْ ، إننى أُدرك الكَرَمَ من غير أن أعتقده سياسةً ، ويَلُوح لى أنه كان من البراعة أن يَقْضُوا فى الظلام على من تتعذر مسالمتُه من خُصُومهم وأن يشتروا الآخرين بالهبات أو الوعود ، فالمحكمةُ تضرب ضرباً وئيداً ، وتوجب شرًّا أقل من أن توجب ذعراً ، والمحكمةُ تَطْلُب العِبْرة على الخصوص ، ويَقُوم محذور محكمتكم على مسالمة مَنْ تخاف وعلى إحداثها من المصالح والأهواء المتناقضة حزباً كبيراً يستطيع القيامَ بعملٍ موحَّد قوىّ ، أنتم تَبْذُرون

الهَوْل ، والهولُ يُوجِد الأبطالَ أكثرَ من أن تُوجِدهم الشجاعة ، أو تستطيع ألاَّ تُبْصِر ، أيها الوطنيُّ غَمْلان ، انفجارَ خوارقِ الخوف ضِدَّكم ذاتَ يوم ؟ » .

وكان النحَّاتُ دِمَاهِى عاشقاً فى ذلك الأُسبوع لفتـاةِ البالِهْ إيغاليتِه ، فلُورا السمراءِ الطويلةِ ، فيَجِدُ من وقته خمسَ دقائقَ ليُهَنِّئَ فيها رفيقَه وليقولَ له إن مثل هذه التولية مما يُشَرِّف الفنونَ الجميلة كثيراً .

ومع أن إلودية الحَنُونَ كانت تَمْقُت كلَّ أمرٍ ثَوْرِيٍّ عن غير شعورٍ ، ومع أنها كانت تَخْشَى المناصبَ العامة كما تخشى أخطرَ المنافساتِ اللاتى يُمْكِن أن ينازعْنَها قلبَ عشيقها ، فإنها رَضِيَت سلطانَ قاضٍ دُعِىَ للحكم فى أهمِّ الأمور ، ثم إن نَصْبَ إيڤارِسْت مُحَلَّفاً كان له من الأثر الطيِّب حولَها ما تَقَرُّ به عيناً ، ومن ذلك مجىء الوطنيِّ جانْ بِليز إلى محترَف ميدان تيُونْڤيل ليُقَبِّلَ المحلَّفَ تقبيلاً حارًّا .

وكان بليزُ يرى مداراةَ سلطاتِ الجمهورية لجميع اللاثوريين ، وما انفكَّت المحكمة الثورية تُوحِى إليه بوَجَلٍ مع الإجلال منذ اتهامه بغَشِّ مِيرَة الجيش ، وكان يَرَى أنه من كثرةِ الظواهر والاشتراكِ فى الأعمال ما لا يَذُوق معه طَعْمَ الأَمْن المطلق ، فيلوح له وجوبُ مراعاة رجلٍ كالوطنيِّ غَمْلان ، ثم إنه كان وطنيًّا صالحاً محبًّا للقوانين .

و يَمُدُّ يده إلى المصوِّر المحلَّف ، ويَبْدُو وَدُوداً محبًّا للوطن عطوفاً على الفنون والحرية ، ويصافح غَمْلانُ الكريمُ هذه اليدَ التى مُدَّت إليه مع الرُّحْب .

قال جانْ بِليزْ : « أيها الوطنيُّ إيڤارِسْت غَمْلان ، أخاطبُ صداقتَك ومواهبَك ، وسآتى بك غداً إلى الأرياف حيث نقضى ثمانياً وأربعين ساعةً ، وهنالك نَرْسُم ونتحادث » .

والواقعُ أن بائع الصور المطبوعة هذا كان فى كلِّ سـنة يقوم بنُزَهٍ تدوم كلُّ واحدة منها يومين أو ثلاثة أيام ، وذلك مع مصورين يَرْسُمون مناظرَ وأطلالاً وَفْق ما يُشير به ، وكان يُدْرك بارعاً ما يُمْـكِن أن يَرُوقَ الجُمهورَ منها ، فيَجْلِب من هذه الجَوْلات قِطَعاً إذا ما أُتمَّت فى المحـترَف وحُفِرت بحِـذْقٍ وطُبِعَتْ مُلَوَّنةً أو قانيـةً [١] نال منها ربحاً ، وكان يَصْنَعُ من هـذه الرسوم أعالىَ أبوابٍ وزخارفَ جُدْرَانٍ تُبَاعُ بأحسنَ مما تُبَاع به نقوشُ أُوبِرْ رُوبِرْ [٢] .

وفى هـذه المرة يُريد أن يأتى بالوطنىِّ غَمْلان ليَرْسُم مناظرَ طبيعيـةً ما عَظُمَ المصوِّرُ بالمحَلَّف ، وتشتمل الزمرة على متفننيْن آخريْن ، على النحات دِماهى الذى يُجيد الرسم وعلى فِليب دُوبوَا الغامضِ الأمر والذى يُحْسِن العمل على غِرار رُوبِر ، وكان من العـادة أن ترافِقَ إلُوديْة فريقَ المتفننين مع رفيقتها الوطنيةِ هازَار ، وكان جانْ بليزْ يَعْرِف أن يَجْمَع بين هَمِّ مصالحه وتَعَهُّد ملاذِّه فيَـدْعو إلى هذه النزهة ممثلةَ ڤودْڤيل [٣] الوطنيةَ تِڤنَان ، يَدْعُو هذه التى صارت صديقةً طيبةً له .

---

(١) القانى : الشديد الحمرة .
(٢) أوبر روبر : مصور فرنسى (١٧٣٣ — ١٨٠٨) .
(٣) ڤودڤيل : دار تمثيل بباريس أسست سنة ١٧٩٢ .

١٠

فى الساعة السابعة من صباح يوم السبت طَرَق الوطنىُّ بِليزُ بابَ المحترَف بِمِقْبَضِ سَوْطه لابساً قَلَنْسُوَةً ذاتَ ثلاث قُرَنٍ وصُدْرَةً وردية وسِرْوالاً جلديًّا وجَزْمةً صفراء مَثْنِيَّةَ الأعلى بلونٍ آخر ، وذلك حينما كانت الوطنيةُ الأيِّم غَمْلانُ والوطنىُّ برُوتُو يتحادثان حديثاً لطيفاً ، وذلك حينما كان إِيقَارِسْتُ يَعقِد رَبْطَته البيضاء أمام قطعةٍ صغيرة من مرآة .

الوطنية : « سَفْرةٌ سعيدة يا مسيو بِليزْ ، ولكنْ بما أنكم ستَرْسُمون مناظرَ فخُذُوا معكم مسيو برُوتُو الذى هو مصوِّر » .

جانْ بليز : « إِذَنْ ، تعالَ معنا أيها الوطنىُّ برُوتُو » .

ويَقْبَل برُوتُو بعد أن اطمأن إلى أنه لا يُعَدُّ ثقيلاً ، ويَقْبَل برُوتُو لأنه أنيسٌ بمزاجه محبٌّ للَّهْو .

وقد صَعِدت الوطنيةُ إلُودية أربعَ طبقاتٍ لتعانق الوطنيةَ الأيِّم غَمْلان التى كانت تَدْعوها أمَّها الصالحة ، وكانت لابسةً ثوباً أبيضَ وكانت تَعْبَق بالعِطْر .

وتنتظر فى المَيْدان عربةٌ مُرْخاةُ الستائر يَجُرُّها حِصانان ، وتَجْلِس روزْ تِقنَان فى أقصى العربة مع جوليان هازَار ، وتَجْلِس إلودية عن شمال الممثلة من اليمين وتَجْعل الهيفاءَ جوليانَ بينهما ، ويَجْلِس برُوتُو فى الخلف مقابلاً للوطنية تِقنَان ، ويكون فليب دوُبْوا أمام الوطنية هازَار ، ويكون إيقَارِسْت أمام إلُودْية ،

وأما فِليب دِمَاهى فينْصِب نصفَه الصِنْديدىَّ الفوقانىَّ على الكرسىّ عن شمال الحُوذِىِّ فيثير حيرتَه بما يَقُصُّه عليه من وجود شجرٍ بأمريكة يَحْمِل خَلْعاً[١] مطبوخاً ونقانقَ[٢].

ويسير الفارس الممتاز الوطنىُّ بِليز راكباً حِصاناً ، ويتقدم العربة خوفاً من الغبار .

وكلما كَوَتِ العَجَلُ بَلاطَ الضاحية نَسِىَ المسافرون همومَهم ، وتَتَهلَّل وجوهُهم وتطيب نفوسُهم عند رؤية الحقول والشجرِ والسماء ، ويَلُوح لإلُوْدْية أنها خُلِقَت لتربية دَجاجٍ بجانب إيقَارِسْت حاكماً للصلح فى قريةٍ قائمةٍ على شاطئ نهرٍ قريبةٍ من غابة ، ويَفِرُّ دَرْدارُ[٣] الطريقِ حين مرورهم ، وتَثِبُ الكلابُ منحرفةً على العربة حينما تَدْخُل القُرَى وتَعْوِى عند سُوقِ الحُصُن على حين ينهض آسفاً كلبٌ كبيرٌ طويلُ الشعر من وَسَط الطريق ، ويُرَفْرِف الدَّجاج متفرِّقاً مجاوزاً الطريقَ فارًّا ، ويبتعد سِرْبُ الإوَزِّ رويداً ، ويشاهد الأولاد مرورَ العربة مُلَوِّحين ، ويكون الجَوُّ حارًّا وقت الضُّحَى ، وتكون السماء صافية ، وتنتظر الأرضُ المتصدِّعة نزولَ الغَيْث ، ويَترجَّلُون بالقرب من فِيلْجويف[٤] ، ويَمُرُّون من هذه المدينة الصغيرة ، ويدخل دِمَاهى دكانَ بائعةِ فواكهَ ليشترىَ كَرَزاً يُبَرِّدُ به الوطنيات ، ولا يظهر دِمَاهى لأن البائعةَ جميلةٌ ، ويناديه فليب دُوبْوَا باللقب الذى يَدْعُوه به أصدقاؤه غالباً :

---

(١) Andouilles

(٢) Cervelas

(٣) الدردار : شجر له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلى .

(٤) فيلجويف : من مدن فرنسة الصغيرة .

« بَرْبارُو [١] !... برْبارُو ! »

ويُنْصِت المارُّون عند سماع هذا الاسم المعتاد ، وتَظْهَر وجوهٌ فى جميع النوافذ ، ولما رأوْا شابًّا وسيمًا يَخْرُج من عند بائعة الفواكه ، مفتوحَ السُّتْرَة مُرْسَلَ القميص على صدرٍ صِنْديدىٍّ حاملاً سَلَّةَ كَرَزٍ على كَتِفه واضعاً ثوبَه على طرفِ عصاً ، ظَنَّ أناسٌ من السانْ كُولُوت أنه الجِيرُوندىُّ الطليلُ الدم فقبَضُوا عليه بعنفٍ ، وكادوا يَسُوقونه إلى البلدية على الرغم من احتجاجه الساخط لو لم يَشْهَد الشيخُ بُرُوتُو وغُلامانُ والفتيَاتُ الثلاثُ أن هذا الوطنىَّ يُسَمَّى فليب دِمَاهِى وأنه نَحَّاتٌ يعقوبىٌّ صالح ، ثم وَجَب على هذا الظَّنِين أن يُظْهِرَ ، وهو المُهْمِل ، شهادةَ غَيْرتِه الوطنية التى كان حاملاً لها عَرَضاً ، ولِذا يَتَفلَّت من أيدى الفَلاَّحين الوطنيين غيرَ مُضَارٍّ خلا ما كان من نَزْع تخاريم كُمٍّ قميصه ، حتى إنه تَقَبَّل اعتذارَ رجال الحرس الوطنىِّ الذين عانقوه وقالوا إنهم يَحْمِلونه إلى البلدية مع الإكرام .

ولما أصبح دِمَاهِى طليقاً محاطاً بالوطنيات إلُوديَة ورُوز وجُولْيان ألقى على فِليب دُوبُوَا ، الذى لم يُحبَّه والذى كان يَتَّهمه بالغَدْر ، ابتسامةً لاذعةً ، وقال مهيمناً :

« إذا كنتَ تُصِرُّ على تسميتى برْبارُو سَمَّيْتُك بريسُّو ، وهو رجلٌ قصيرٌ عَبْلٌ [٢] مضحكٌ دُهْنىُّ الشعرِ زيتىُّ الجلدِ لَزِج اليدين ، ولا يُشَكُّ فى أنك لست عدوَّ الوطن الرذيل بريسُّو ، ويؤثِّر فى الجُمهوريين منظرُك القبيح الكريه فيشنقونك تحت أول مِصْباح ... ألاَ تَسْمع ؟ » .

---

(١) بربارو : جيروندى من رجال العهد (١٧٦٧ – ١٧٩٤) .

(٢) العبل : الضخم .

وكان الوطنىُّ بليز يَسْقِى حِصانه ، فلما حضَرَ قال مُؤكِّداً إنه أصلح الأمرَ مع أنه ثَبَتَ للجميع تدبيرُه بغيره .

وتُرْكَبُ العَرَبَة ، ويَذْكُر دِمَاهِى للسائق أن كثيراً من سكان القمر هَبَطُوا إلى سهل لُونْجُومُو (١) هذا فيما مضى فقاربوا الضِّفْدَعَ شكلاً وَلَوْناً ، ولكن مع عُلوٍّ أكثرَ منه ، وكان فليپ دُوبوا وغَمْلانُ يتكلمان عن فنِّهما ، وكان تلميذ رِنْيُو ، دُوبوا ، قد سافر إلى رومة فرأى وِشاءَ (٢) رفائيل (٣) التى يَضَعُها فوق جميع أوابد الفنّ ، وهو ، وإن كان يُعْجَب بتلوين كُرِّيج (٤) وإبداعِ أنيبال كَرَّاش (٥) ورسم الدُّمِنِيكى (٦) لم يَجِدْ مايقاس بألواح پُونْپِيُو بَتُّونِى من حيث الطِّرازُ ، وفى رومة عاشَرَ مسيو مِيناجُو ومدام لُوبْران (٧) ، اللذين صَرَّحا بمناهضتهما الثورة ، من غير أن يُحَدِّث عنهما ، ولكنه كان يُثْنى على أنجليكا كَوْفمان (٨) الخالصةِ الذوق والعارفةِ بالآثار القديمة .

ويأسَفُ غَمْلانُ على أنه عَقَب ذُروةَ ارتقاء فنِّ التصوير الفرنسىِّ دورُ هبوط سريع عميق ، هذا الفنّ الذى ظَهَر متأخراً فلا يَرْجِع تاريخهُ إلى ماهو أقدمُ من لُوسُيُور (٩) وكلُود (١٠) وپُوسَّان (١١) والذى يناسب دَوْر انحطاط المدرستين :

---

(١) لونغجومو : من مدن فرنسة الصغيرة .
(٢) الوشاء : جمع الوشى ، وهو النقش .
(٣) رفائيل : مصور ونحات ايطالى مشهور (١٤٨٣ ــ ١٥٢٠) .
(٤) كريج : مصور ايطالى مشهور (١٤٩٤ ــ ١٥٣٤) .
(٥) أنيبال كراش : مصور ايطالى (١٥٦٠ ــ ١٦٠٩) .
(٦) الدمينيكى : مصور ايطالى (١٥٨١ ــ ١٦٤١) .
(٧) مدام لوبران : مصورة فرنسية (١٧٥٥ ــ ١٨٤٢) .
(٨) انجليكا كوفمان : مصورة سويسرية (١٧٤١ ــ ١٨٠٧)
(٩) لوسيور : مصور فرنسى (١٦١٦ ــ ١٦٥٥) .
(١٠) كلود : مصور فرنسى (١٦٠٠ ــ ١٦٨٢) .
(١١) پوسان : من أشهر مصورى فرنسه (١٥٩٤ ــ ١٦٦٥) .

الإيطالية والفلمنكية ، وتُعْزَى الأسبابُ إلى الطبائع العامة وإلى الأكاديميـة التى تُعَبِّر عنها ، ومن حسن الحظِّ أن أُلغيت الأكاديمية فأبدع داڤيد ومدرستُه فنًّا لائقاً بشعب حُرٍّ ، ويَضَعُ غَمْلانُ ، غيرَ حاسدٍ ، إنْكَن وتوبينو — لُوبْرانَ (١) فى الصفِّ الأول ، ويُفَضِّل فليپ دُوبْوَا أستاذَه رنيُو على داڤيد ، ويُعَلِّق أملَ فنِّ التصوير على الشابِّ جِيرار .

وتَمْدَح إلُودية للوطنية تِڤِنانَ قَلَنْسُوتَها المخملية الحمراء وثوبَها الأبيض ، وتُثْنِى هذه الممثلةُ على زينةِ رفيقتيها وتَدُلُّهما على ماتكون به أحسنَ مما هى عليه ، وذلك بإلغاء الزخارف على ماتَرَى ، وتقول :

« لم يُذْهَبْ إلى اللِّباس البسيط بما فيه الكفاية ، ونَعْلَمُ هذا فى دار التمثيل حيث يجب أن يُبْدِىَ الثوب جميعَ الأوضاع ، وفى هذا ، لافى غيره ، جمالُه » .

إلُودْية : « حسناً ماتقولين ياعزيزتى ، ولكن لاشىء أغلى من البساطة فى الزينة ، وليس عن فساد ذوقٍ ما نتخذه من البَهْرَج دائماً ، بل عن اقتصادٍ أحياناً » .

وتتكلمان عن أزياء الخريف والثياب البسيطة والتفصيل القصير .

تِڤِنان : « ما أكثر النساء اللائى يَقْبُحْنَ باتباع المُوضَة (٢) ! فيجب أن تَلْبَس كلُّ واحدةٍ وَفْقَ شكلها » .

غَمْلان : « لاشىء أجمل من النسائج التى تُلَفُّ حَوْلَ الجسم ويُلْحَفُ بها ، وكلُّ ما يُفَصَّلُ ويُخَاطُ كريهٌ » .

---

(١) توبينو — لوبران : مصور فرنسى ، وكان من رجال الثورة فأعدم فى باريس سنة ١٨٠١ .

(٢) La mode

وقد نُبِذَت ، مع استخفافٍ وعدمِ اكتراثٍ ، جميعُ هذه الأفكار التى وردتْ فى كتابٍ لِفِنْكِلْمان [١] بأحسنَ مما على لسان رجلٍ يخاطب الباريسيات .

إلودْية : « وللشتاء تُصْنَع حَشَايا من حرير على الزِّىِّ اللاَّپونى [٢] . . . وردِنْغُوتَاتٌ ذاتُ استدارةٍ على أسلوب زُولِيم فتُغْلَق بصُدْرَةٍ على الطريقة التركية » .

تِقنان : « تلك ثيابٌ ساترةٌ للثياب الرَّثَّة ، وهى تُباعُ حاضرةً ، أَعْرِف خَيَّاطةً صغيرة تَعْمَل كملَكٍ من غير أن تكلِّف غالياً ، فسأرسلكِ إليها يا عزيزتى » .

وبَطير الكلامُ خفيفاً سريعاً ناشراً مثيراً شُفُوفاً ، ناشراً خزّاً [٣] مُخَطَّطاً وحريراً بسيطاً وسُنْدُساً [٤] وبَزّاً [٥] ...

وكان الشيخُ بُرُوتُو، حين استماعه لهنّ ، يُفكِّرُ ، مع لَذَّةٍ سَوْدَاوية ، فى ستائر ذلك الفصل المصنوعة على أشكالٍ فاتنة فتدوم قليلَ أعوامٍ ثم تُبْعَثُ دَوْماً كأزهار الحقول ، وإن نَظَراته لتتحول عن هؤلاء الفتَياتِ الثلاث إلى زَعْفران الأُخْدود وخَشْخَاش التَّلَم إذ تُثَرَّى [٦] بدموع باسمة .

ويَبْلُغون أُرَانْجِيس حوالَىْ الساعة التاسعة ويقفُون عند فُنْدُق كلُوش حيث يُؤوِى الزوجان پواترين كلَّ راجل وراكب ، ويَمُدُّ الوطنىُّ بليزُ ، الذى قوَّم

---

(١) فنكلمان : عالم أثرى ألمانى (١٧١٧ – ١٧٦٨) .
(٢) نسبة الى لاپونية الواقعة شمال اسوج ونوروج وروسية .
(٣) الخز : ما نسج من صوف وحرير .
(٤) السندس : ضرب من نسيج الديباج أو الحرير .
(٥) البز : الثياب من الكتان أو القطن .
(٦) ثراه : نداه وبله .

هِنْدَامَهُ ، يَدَه إلى الوطنيات ، وهم ، بعد أن طُلِبَ إعدادُ غداء لهم وسبقتهم عُلَبُهم ومحافظهم ومَساندُهم ومَظالمُّم مع عَتَّالٍ من القرية ، ساروا مُشَاةً من الحقول نحو ملتقى الأورج والإيڤِتْ ، نحو هذه الأمكنة الساحرة التى يُرَى منها مَرْجُ لُونْغجُومُو والتى يحيط بها نهر السين وغابُ سانْ جِنْڤِيڤْ .

ويتمازجُ الدليلُ للزُّمرة الفنية ، جانْ بليزُ ، والمالىُّ السابقُ ، من غير ترتيب ، حَوْل السخىِّ ڤِرْبُوكه والبائعةِ الجائلة كَترينَة كوِيسُّو والأوانسِ شُودْرُون والساحرِ غَليشِهْ وأبناءِ كادِه رُسِّل المتأخرين ومدام أَنْغُو .

ويَرَى إيڤَارِسْتُ حُصَّاداً يَشُدُّون حُزَماً فيُولَعُ بالطبيعة من فوره ، وتَفيضُ عيناه دمعاً ، وتَمْلأُ أحلامُ الوِفاق والغرامِ فؤاده ، ويَنْفُخُ دِماهِى فى شعور الوطنيات بذورَ الهِنْدِباءِ البريةِ الخفيفةَ ، ويُظْهِرِ الثلاثُ مَيْلَ بناتِ المُدُن إلى الباقات فيقتطفن من المُرُوج بُوصِيراً [١] تزدحم أزهارُه سنابلَ حَوْل الساق ، ونباتَ جَرَسٍ تتدلَّى أزهارُه الناعمةُ طبقاتِ جلاجلَ [٢] ، وأغصانَ رَعْىِ الحمَامِ العِطرِيةَ ، وبَلَساناً ونَمَّاماً وصفراءَ [٣] وحَزَنْبَلاً ، ما دام كلُّ نباتٍ حقلىّ صيفىّ قد فَرَغ ، وبما أن جانْ جاكْ قد جَعَل علمَ النبات مُوضَةً لدى بنات المدن فإن أولئك الثلاث يَعْرِفن الأسماءَ والمعاشق من الأزهار ، وبما أن تُوَيْجَ الزهر اللطيف أخذ يَذْبُل من الجفاف وَيَنْسُل بين ذراعى الوطنية إلودية ويتساقط على رجليها كالمطر فقد قالت مُتحَسِّرةً :

« هكذا تزول الأزهار ! » .

ويبدأ الجميعُ بالعمل ، ويحاول كلٌّ أن يُفْصِح عن الطبيعة كما يراها ، ولكن كلَّ واحدٍ يراها على حَسَب مِنهاجِ أستاذٍ ، ولم يَمْضِ وقتٌ قصيرٌ حتى كان فليپ

---

(١) Bouillon blanc

(٢) الجلاجل : أجراس صغيرة واحدها جلجل .

(٣) الصفراء : نبات ورقه كالخس .

دُوبوْا مقتفياً أثرَ مزرعةٍ مهجورة وأشجارٍ مُختَبطة وسيلٍ ناضب على نمـط أوبرْ رُوبر ، ويجد إيقارِسْت مناظرَ پوُسّان على ضِفاف الإيڤتْ ، ويَعْمَـل فليپ دِماهِى أمام بُرْجٍ للحَمام على طريقة كالّو[1] ودُوپْليسى[2] الماكرة ، ويَرْسُم الشائب برُوتُو ، الذى يُباهى بتقليد الهولنـديين ، بقرةً ، وتَرْسُم إلودية كُوخاً ، وتَصْنَع اللَّوحَ لها صديقتُها جُولْيانُ التى كانت ابنةَ بائعِ أصباغ ، ويشاهدُها ، وهى تَرْسُم ، صِبيانٌ لاصقون بها ، وتُقْصيهم عن النُّورِ داعيةً إياهم بَعُوضاً أو مُعْطِيةً إياهم مُلَبَّساً ، وتَجِدُ الوطنيةُ تِڤنان بينهم لِطافاً فتَغْسِل وجوهَهم وتعـانقُهم وتَضَع أزهاراً فى شَعْرهم ، وهى تلاطفهم بدَعَةٍ مع سَوْداءَ لأنها لم تُبْهَجْ بأن تكون أمًّا ، ولأنها تودُّ أن تزدان بإظهارِ شعورٍ رقيق ، ولأنها تريد أن تمارِس فنَّها فى الأوضاع والجَمْع .

وهى التى لم تَرْسُم أو تُصَوِّر ، وهى تَقْصُرُ هَمَّها على تَعَـلُّم دَوْرِها ، وعلى تحسين موقعِها ، وهى تنتقل بين هـذا وذاك حاملةً دَفْـتَرها بيدها قائمةً بأمرٍ خفيف فاتن ، ويقول النساء : « لا رونقَ ، ولا شكلَ ، ولا جسمَ ، ولا صوتَ » ، وهى تملأ الفضاءَ حركةً ولوناً وانسجاماً ، وتبـدو هذه الذاويةُ المليحة الحسيرةُ التى لا تِـكلُّ بهجةَ السَّفَر ، وتتصف بمِزاجٍ متقلب مع مَرَحٍ دائم ، وبنَزَقٍ وسرعةِ غضبٍ مع أُنسٍ ولِينٍ ، وبلسانٍ لاذعٍ مع لهجةٍ مُهَـذَّبة ، وبعُجْب مع تواضعٍ ، وبصدقٍ مع بُطْلٍ ، فإذا كانت رُوزْ تِڤنان لاتُحْسِن إدارةَ شؤونها ولا تصير إلهةً مطلقاً فلسوءِ الوقت ولاختفاء اللُّبان وهياكل المَلاحة بباريس ، وكانت الوطنيةُ بليز ، التى إذا ما تكلَّمت عنها قَطَّبت ودَعَتْها « حَمَاةً » لها ، لا تستطيع أن تراها من غير أن تُذْعِن لمثلِ ذلك الفُتُون الـكثير .

---

(١) كالو : نحات ومصور فرنسى (١٥٩٢ ـ ١٦٣٥) .
(٢) دوبليسى : رسام ونحات فرنسى (١٧٤٧ ـ ١٨١٣) .

وفى فِيـدُو[١] تُعَادُ روايةُ « راهباتِ الزيارة[٢] » الغِنائيـة ، وتفاخر رُوزُ بتمثيلها دوراً غيرَ مُصَنَّعٍ فيها ، والطبيعىُّ هو الذى تَبْحث عنه وتَتَّبِعُه وتَجِدُه .

ويقول دِمَاهى الجميلُ : « إِذَنْ ، لن نرى پالِيما ؟ » .

وكان المَسْرَحُ الوطنىُّ قد أُغْلِق وأُرسل الممثلون إلى مادِلُونِت[٣] وپِلَاجْيَة[٤] .

وتَرْفَع تِفْنان عينيْها الجميلتين الساخطتين إلى السماء وتَصْرُخ قائلةً : « أهـذه هى الحرية ؟ » .

غَمْلان : « إن ممثلى المسرح الوطنىِّ أريستوقراطيون ، وتوجب رواية الوطنىِّ فرنسوا[٥] الأسفَ على امتيازات الأشراف » .

تِفْنان : « أَلَا تستطيع أن تَسْمَع غيرَ مَنْ يَتَمَلَّقونكم ؟ ... »

ويَشْعُرُ كلُّ واحدٍ بالجوع ، وتَعُود الزمرة الصغيرة إلى الفُنْدُق .

ويسير إِيڤَارِسْت بجانب إِلُودْيَة ويَذْكُر لها باسماً ذِكْرَياتِ لقائهما الأول ، ويقول لها :

« لقد سَقَط نُغَران[٦] من السَّقْف الذى كان يشتمل على وَكْرٍ لهما قريبٍ من النافذة ، وقد كنتِ تُغَذِّيهما زَقًّا ، وقد عاش أحدهما وطار ، وأما الآخر فمات فى العُشّ القُطْنىِّ

---

(١) فيدو : مسرح مشهور بباريس أيام الثورة الفرنسية .
(٢) Visitandines
(٣) مادلونت : سجن بباريس هدم سنة ١٨٦٦ .
(٤) پلاجية : سجن بباريس هدم سنة ١٨٩٩ .
(٥) فرنسوا : أديب وشاعر وسياسى فرنسى (١٧٥٠ – ١٨٢٨) .
(٦) النغر : فرخ العصافير .

الذى صنعتِه له ، « وهذا هو الذى قلتِ « إننى أُحبُّه أكثرَ من الآخر » ، وفى ذلك اليوم كنتِ ، يا إلُوذْية ، ذاتَ عُقْدَةٍ على شَعْرِكِ » .

وكان فِليپ دُوبوْا و برُوتُو وراءَ الآخرين قليلاً ، فيتَحدثان عن رومة التى ذهبا إليها فزارها الثانى سنة ١٧٧٢ ، وزارها الأول فى أواخر أيام الأكاديمية ، ويُحَدِّث الشيخُ برُوتُو عن الأميرة مُنْدرَاغُون التى كانت تسمعُ زَفَراتٍ من دون الكُونت أَلْتِيرى الذى عاد لا يَتْرُك لها غيرَ طَيْفه ، ولم يَغْفُل فليپ دُوبوْا عن قوله إنه طُلِب إليه أن يتغدَّى عند الكَرْدينال دُو برْنيس [1] الذى كان أكثرَ الناس قِرًى .

برُوتُو : « لقد عَرَفته ، ولا أكون مغروراً إذا قلتُ إننى كنت من عُشَرائه بعضَ الزمن ، فوجدته يحبُّ الرَّعاع ، وقد كان رجلاً أنيساً ، وهو ، مع اتخاذه نشر الأقاصيص مهنةً له ، كان يَحْمِل فى خِنْصَره من الفلسفة الصحيحة مالا تَجدُه فى رأس جميع يعاقبتكم الذين يريدون إصلاحَنا وحَمْلنا على التأليه ، والحقُّ أننى أُحبُّ أَكَلَةَ الربِّ [2] ، الذين لا يَعْلَمون ما يقولون ولا ما يفعلون ، أكثرَ من هؤلاء السَّعْرَى الهاذِين فى سَنِّ القوانين والعاكفين على قطع رؤوسنا ليَجْعَلونا من الفُضلاء والحكماء ويَحْملونا على عبادة الكائن الأعلى الذى بَرَأهم على صورته ، وفى الزمن الماضى كنتُ أجعل راعىَ كنيسة الإلِّيت يُقيم القُدَّاس فيقول بعد الشُّرْب : « لا ينبغى لنا أن نقول سوءًا عن الخَطَأَة ، فمنهم نعيش نحن القسوس على غيرِ استحقاق » ، فوافِقْنى ، أيها السيد ، على وجود حِكَمٍ صحيحة عن الحكومة عند بالع الدعاء هذا ، فيجب أن يُرْجع إليها وأن يُحْكم بين الناس كما هم ، لا كما يُرَاد أن يكونوا » .

---

(١) دوبرنيس : كان حبرا وشاعرا فرنسيا (١٧١٥ ـ ١٧٩٤) .
(٢) اسم كان يطلقه البروتستان على الكاثوليك بسبب تناول القربان .

وتَدْنُو تِقْنانُ من الشائب برُوتُو ، وتَعْلَمَ أن هذا الرجل كان كثيرَ الحشمِ والنفقات فى العهد الماضى ، وتتمثل الفقرَ الحاضرَ ، المُلِمَّ بهذا المالىِّ السابق ، من خلال تلك الذكرى الساطعة فتجده أقلَّ خِزْياً لأنه أمرٌ شامل نشأ عن الانهيار العامّ ، وهى تتنوَّرُ فيه ، عن فُضُولٍ ، بقيةَ أولئك الكريزُوسين [1] الأسخياء الذين كان يُثْنِى عليهم ، مع الحسرة ، مَنْ يَكْبُرها من الممثلات ، وهذا إلى أن رِدِنْغُوتَ هذا الرجل البسيط البُرْغُوثىَّ الرَّثَّ مع النظافة كان يَرُوقها .

قالت تِقْنانُ : « من المعروف ، يا مسيو برُوتُو ، أنك كنت تَنْساب فى حديقةَ جميلة بين غِياضِ الآس ، وفى ليالٍ منيرة ، مع ممثلاتٍ وراقصاتٍ على صوت المزامير والرَّباب البعيد . . . وَاهاً ، أَوَلَمْ تَكُن إلاهاتُك فى الأُبِرا والمَسْرح الفرنسىِّ أجملَ منا نحن الممثلاتِ الوطنيات للمسكينات ؟ » .

برُوتُو : « لا تَظُنِّى ذلك أيتها الآنسة ، واعْلَمِى أنه لو كان يُلاقَى مثلُك فى ذلك الزمن لنُزِّهَتْ وحدَها كملكةٍ لا منافِسَ لها ، وذلك فى حديقةٍ تُريدِين أن تَنْسِجى حَوْلها رأياً فاتناً ... »

وكان فُندق كلُوش رِيفيًّا ، وكان غُصْنٌ من الآسِ البرىِّ يَتدلَّى فوق باب العَجَل المؤدِّى إلى ساحةٍ رطِيبةٍ يَسْرَح الدَّجاجُ فيها ، وكان البيت قائماً فى أقصى الساحة مؤلَّفاً من طبقة أرضية ومن طبقة ثانية مُعْتَمِراً [2] بغماءٍ [3] من قِرْميدٍ ذى أُشْنة [4] ومتواريةً جُدُرُه بأشجارِ وردٍ مزهرةٍ كلُّها ، وعن اليمين تُظْهر دعائمُ رؤوسَها فوق

---

(١) جمع كريزوس ، وهو آخر ملوك لوديا ، وهو مشهور بغناه الوافر (٥٦٠ – ٥٤٨ ق. م.) .

(٢) من اعتمر الرجل اذا تعمم .

(٣) الغماء : سقف البيت ، وقيل ما فوقه من تراب وغيره .

(٤) الأشنة : شىء نباتى يتكون على الشجر والصخر وغيرهما .

سور الحديقة الأسفل ، وعن الشمال يَظْهَرُ مُرَاحٌ مع مِعْلَفٍ خارجيّ ومَكْدَس مصنوعةٍ جُدُرُه من آجُرٍّ بين ألواحٍ خشبيةٍ تتألف من اتصال بعضها ببعض زوايا حادَّةٌ ، ويستند سُلَّمٌ إلى الحائط ، وفى تلك الناحية أيضاً ، أى تحت مِظَلَّة خشبية زاخرة بالآلات الزراعية والأُرُوم (١) ، يَرْقُبُ ديكٌ أبيضُ دَجاجَه من فوق مركبة خشبية ذات دولابين ، وفى تلك الجهة تُسَدُّ الساحة بمرابطَ يرتفع أمامها ، كالتراب الشامخ ، كَوْمَةُ زِبْلٍ تَرُدُّها بمذْراتها فى تلك الساعة ابنةٌ عَرْضُها أعظمُ من طولها وشعرُها بلون التِّبْن ، وكان السائل من الزِّبْل يملأ خُفَّها الخشبى ، ويَغْسِل رجليها الحافيتيْن اللتين تُرْفعان حيناً بعد حين فيُرَى عَقِباها الأصفران كالزعفران ، وتَكْشِف تَنُّورَتُها المُشَمَّرَة عن وَسَخِ رَبْلَتَىْ ساقيْها الكبيرتين المخفوضتين ، وبينا كان فِليب دِمَاهِى يَنْظُرُ إليها مبهوتاً لاهياً بلَعِب الطبيعة التى صَنعت هذه البنتَ العريضةَ إذ سُمِع صاحب الفُنْدُق منادياً :

« اذهبى ، يا لا ترونش (٢) ، وأَحْضِرى الماء ! » .

وتَعُود وتُظْهِر وجهاً ورديًّا وفماً عريضاً تُعْوِزُه مِطَشَّة (٣) ، فلا بُدَّ من قَرْن ثَوْر لثَلْم هذه الأسنان القوية ، وتَضْحَك حاملةً مِذْراتَها على ظهرها ، وتشابه الأفخاذَ ذراعاها المُشَمَّرَتانَ اللتان تَلمعان على نور الشمس .

وكانت المائدة منصوبةً فى القاعة السُّفْلَى حيث طُهِى الدَّجاج تحت حجارةِ الموْقدِ البارزةِ المُبَطَّنة ببنادقَ قديمةٍ ، وكان طولُ القاعة يزيد على عشرين قدماً ، وكانت القاعةُ مُكَلَّسةً غيرَ منارةٍ بسوى زُجاج الباب الضارب إلى خُضْرة و بنافذةٍ

---

(١) Souches

(٢) تجىء بمعنى الأرومة ، وهى أصل الشجرة .

(٣) المطشة : خشبة مستديرة يرمى بها الصبيان فى أحد ألعابهم .

واحدة محاطةٍ بالوَرْد حيث كانت الجدة تُدير مَغْزَلها ، وكانت هذه تَلْبَس عَمَراً[١] مُخَرَّماً يَرْجِـع إلى عهد الوصيِّ على العـرش ، وكانت أصابعُ يدها العُقْدُ المُلوَّثةُ بالتراب تُمْسِك المِغْزَل ، وكان الذُّباب يَقَع على طرف جَفْنَيْها فلا تَطْرُدُه ، وهى قد كانت بين ذراعى أمِّها حينما رأت لويسَ الرابعَ عشرَ فى عَرَبةٍ .

وكانت قد سـافرت إلى باريس منذ ستين سنة ، وقد قَصَّت على النِّسـوة الثلاث الواقفات أمامها ، بصوتٍ ضعيف شادٍ ، نبأَ رؤيتها دارَ البلدية والتويلرى والسَّمَاريتَان ، وأنها حينما جاوزت البُونْ رُوَيَّال[٢] أبصرت تَخَرُّق مركبٍ مشحونٍ بالتفاح وأن التفاح ذهب مع الماء فصار لونُ النهر أُرْجُوانيًّا .

وكانت قد أُخبرتْ بما حدث من انقلابٍ جديد فى المملـكة ، ولاسيما ما كان من اختلافٍ بين القِسِّيسين الحالفين وغير الحالفين ، وكانت تَعْرِف نشوبَ حروبٍ أيضاً ووقوعَ مجاعاتٍ وظهورَ علاماتٍ فى السماء ، وما كان ليُعْتَقَد قتلُ الملك ، فقد ذكرتْ أنه هُرِّب من سِرْدابٍ وأن رجلاً من العامَّة سُلِّم إلى الجَلَّاد بدلاً منه .

وكان آخرُ مولودٍ لِبُوَاتْرِينْ ، جانُّو ، يُرَى فى مَهْده عند رِجْل الجدَّة ، وكان يُسِنُّ ، وتَرْفَع تِقِنَانُ مَهْدَ الصَّفْصاف وتبتسم للولد الذى يَئِنُّ أنيناً خفيفاً من الحُمَّى وتَشَنُّج العَضـل ، ولا بُدَّ من أن يكون قد نَهَكه المرض ، فقد دُعِىَ الطبيبُ الوطنىُّ ، والنائبُ فى مجلس العهد ، بِلْيُور ، الذى لايَقْبِض أَجْراً على عِيَاداته .

وتَظْهَر الوطنيةُ اللعوبُ تِقِنَان كأنها فى منزلها فى كلِّ مكان ، ولا تُرْضيهـا الطريقة التى غَسَلَت لاترُونْشُ بها الآنيةَ فتَمْسَح الصحونَ والأقداح والشَّوْكات ،

---

(١) العمر : المنديل تغطى به الحرة رأسها .

(٢) تجىء بمعنى الجسر الملكى .

و بينما كانت الوطنيةُ پواتْرين تَطْبُخ الحَسَاء وتَذُوقه صاحبةً للفُنْدق كانت إلُودْية تُحَوِّل رَغيفَ الأرطال الأربعة الطرىَّ الساخنَ إلى قِطَعٍ ، فيقول غَمْلان لها :

« لقد قرأتُ منذ بضعة أيام كتاباً لشابٍّ ألمانىٍّ ، نَسيتُ اسمَه ، حسنَ الترجَمة إلى الفرنسية ، وفى هـذا الـكتاب تُرَى الفتاةُ شـارْلُوت مثلَكِ ، ياإلُودْية ، وهى تَبْضَعُ قِطَعَ خبزٍ عليها زُبدة ، كما تصنعين ، فتَبْلُغ من فعـل ذلك بلطف وظرْف مايصير معه الشابُّ ڤِرتِر [1] عاشقاً لها » .

إلودية : « أَوَ انتهى هذا بزواجٍ ؟ »

إيڤارِست : « كلاَّ ، بل انتهى بموت ڤِرْتر الأليم » .

وقد تَغَدَّوْا هنيئاً عن جُوعٍ شديد ، غير أن الطعام كان رديئاً ، ويتَوجَّع جانْ بليز من ذلك ، وقد كان نَهِماً جاعلاً من حسن الطعام مبدأً فى حيـاته ، ولا ريب فى أن العَوَز العامَّ هو الذى كان يَحُضُّه على وضع نَهَمِهِ ضِمْنَ قاعدةٍ ، وكانت الثورة قد كَفَـأَت القُدُورَ فى كلِّ منزل ، ولم يكن عنـد عامَّة الوطنيين مايضعونه بين أسنانهم ، وكان مَنْ يَـكْسِب كثيراً على حسـاب البؤس العام ، كجانْ بليز ، يَذْهَب إلى المطعم حيث يملأ مَعِدتَه طعاماً ، وأما برُوتُو الذى كان يغتذى فى السنة الثانية من عهد الحرية بالـكستناء وكِسَر الخُبْز فقد ذَكَر له أنه كان يتَعَشَّى عند غريمُو دُولاَرنْير فى مدخل الشانْزِليزِه ، وكان راغباً فى استحقاق لقب صاحب الفم الناعم أمام كُرُنْب المرأة پواتْرين المطبوخ بشحم الخِنْزير فأكثر من بيان وَصفَاتِ الطَّهْوِ النِّطاسية وقواعدِ الطعام الفاخر ، وبما أن غَمْلان صَرَّح

---

(١) بطل رواية لغـوته اسمها « آلام الشـاب ڤرتر » ، وقد تزوج فتـاة غير عشيقته شارلوت .

بأن الجمهورىَّ يزدرى ملاذَّ المائدة فإن الجابىَ الشائبَ الولوعَ بالآثار القديمة أعطى هذا الإسپارطىَّ الشابَّ وَصْفَةَ الحسْو الأسودِ الحقيقيةَ .

ويَحْمِل جانْ بليز ، الذى لايَنْسَى الأمورَ الجدِّيَّة ، مَجْمَعه الغريبَ على وَضْعِ رسومٍ ومُسَوَّدات للفُنْدق الذى وَجَدَهُ على شىء من الرِّوائية فى خَرَابه ، وبينا كان فِليپْ دِمَاهِي وفليپ دُوبُوا يَرْسُمان المَعَالِفَ كانت لاترُونْش تُطْعِم الخنازير ، وَيَدْنُو من المتفننين ضابطُ الصحة الوطنىُّ پلْپُور الذى غادرَ القاعة السُّفْلَى حيث عالج پَوَاترينَ الصغير فى ذلك الحين ، ويُثْنِي على مواهبهم التى تَرْفَع شأن الأمة بأسْرِها دالاًّ إياهم على لاترُونْش بين الخنازير ويقول :

« أنتم تَرَوْن هذه المخلوقة ، هى ليست بِنْتاً كما تَظُنُّون ، بل بنتان ، واعلَمُوا أننى أتكلَّم حَرْفيًّا ، فلما دُهِشْتُ من حجم هيكلها العَظْمِيِّ الضَّخْم فحصتُه ، وأبصرتُ أنه مضاعَفُ العِظام فى الغالب ، ومن ذلك أن رأيت فى كلِّ فخذٍ عظمين ملتحمين ، وأنْ رأيتُ فى كلِّ كَتِفٍ تَرْقُوَتين ، وقد أبصرتُ أيضاً عَضَلاً مضاعفةً ، ولِذَا أَجِدُ أن هاتين توأمتان اقترنتا اقتراناً وثيقاً أو امتزجت إحداهما بالأخرى على الأصح ، والواقعُ أن الأمر مُمْتِع ، وقد أنبأتُ به مسيو سَنْتِيلِرْ فشَكَر لى ذلك ، وما تَرَوْن هنالك هو من العجائب أيها الوطنيون ، وهؤلاء الناس يُسَمُّونها « لاترونشَ » ، وعليهم أن يُسَمُّوها « لاترُونْشَتَيْن » ، فهما اثنتان ، وللطبيعة غرائبُها ... عِمُوا مساءً أيها الوطنيون المصوِّرون ! وستقع زوبعةٌ فى هذه الليلة ... » .

ويتناول جَمْعُ بليزَ العَشَاءَ على نُور الشَّمْع ، ويُمَثِّلُ مع ابنٍ وابنةٍ لپواترينَ ، فى قاعة الفُنْدُق ، دورَ « الغُمَيْضاء[1] » فيُسْبِغ الفِتْيانُ والفَتَياتُ عليه من الحُمَيَّا

(١) Colin-Maillard

ما يُفَسِّرهُ عُمرهم بما فيه الـكفاية فلا يُبْحَثُ عن إثارة شِدَّةِ الوقت وتَغَيُّره لأُوَارِهم ، ولما أَظلم الليلُ اقترح جانْ بليزُ أن يُتَلَهَّى فى القاعة الدنيا بألعابٍ نزيهة ، وتَطْلُب إلُودْية أن يُتَلَهَّى بـ « صيد الفؤاد » ، فيوافق الجميعُ على ذلك ، وتُشِيرُ هذه الفتاةُ فيُخطِّط فِليب دِمَاهِى بالطَّباشير[١] سبعةَ قُلُوبٍ على الأثاث والأبواب والجُدْران ، أى ما هو أقلُّ من عدد اللاعبين بواحدٍ ، وذلك لجعلِ الشيخ برُوتُو بين اللاعبين مع الفَضْل ، ويقومون برقص « حَذَار أيها البُرْج ! » دوائرَ دوائرَ ، ويَضَعُ كلٌّ يدَه على قلبٍ وَفْقَ إشارة إلُودْية ، ويَجِدها غَمْلانُ مأخوذةً عن غَفْلَةٍ منه وغَبَاوةٍ ، ويُعْطِى ، كرهنٍ ، تلك المُدْيةَ التى شَرَاها من سُوق سانْ جِرْمَنْ بستة أَفْلُسٍ وقَطَعَ بها الخبزَ للأُمِّ الفقيرة ، ويُعادُ الرقْصُ فلا يَجِدُ بليزُ وبرُوتُو وتِفنانُ فؤاداً مناوبةً فيؤدِّى كلٌّ منهم رهنَه ، يؤدَّى خاتَمٌ وكيسٌ وكُتَيِّبٌ مُجَلَّدٌ وسِوارٌ ، ثم يُقْتَرَع على الرِّهان فوق رُكبتىْ إلُودْية ويُبْـدِى كلٌّ قدرته على الإيناس فيُلَحِّن أُغْنيةً أو يُنشِد قصيدةً استرداداً لماله بهذا ويُنشِد برُوتُو موعظةَ حامى فرنسة فى نشيد العذراء[٢] الأول :

« إننى دِنِى[٣] وقديسُ فَنِّى ،
إننى أُحبُّ بلاد الغول ... »

ومع أن الوطنىَّ بليزَ أقلُّ علماً بالأدب فإنه ألقى جوابَ رِيشْمُونْدَ غيرَ متردِّدٍ :

« سيدى القديس ، هذا لا يساوى
تركَ الفردوس ... »

---

(١) La craie

(٢) نشيد العذراء : لڤولتير .

(٣) دنى : مبشر بلاد الغول الانجيلى ، وأول أسقف بباريس فى القرن الأول أو القرن الثانى ، قتل فى سان دنى .

وهنالك يتلو الجميع ، متلذذاً مع التكرار ، أوابدَ أَرْيوستَ الفرنسيِّ ، ويبتسم أكثرُهم اتِّزاناً من معاشق حنة ودُونْوَا ومغامراتِ أَغْنيس ومُونْروز ومآثر الحِمار المُجنَّح ، وكان جميعُ المُثَقَّفين يَعْرِفون على ظهر القلب أجملَ ما في هـذه المنظومة الفلسفية المُلْهِية ، وعلى ما كان من شِدَّة طَبْع إيڤَارِسْت غَمْلان فإنه يتناول مُدْيته الرخيصة من حِضْن إلُودْية وهو يُنْشِدُ مسروراً أبيـاتَ دخولِ غريسْبُورْدُون في جهنَّم ، وتُنْشِدُ الوطنيةُ تِڤنان أُغْنيـةَ نِينَا : « متى يَعُود الحبيب ؟ » من غير أن تستعين بأحد ، ويُنْشِدُ دِمَاهِي على لَحْنِ الفَارِيدُونْدِن :

« أخذ بعضُهم خِنْزيرَ القـديس أنطوان الصالح ،
وجعلوا منـه راهباً عنـد ما ألبسوه قُبَّعَـة ،
وعاد لا يسـاوى منـــه غيرُ طَرْز . . . »

ومع ذلك فإن دِمَاهِي كان مشغولَ البـال ، فقد كان في تلك الساعة شديدَ الحُبِّ للنسوة الثلاث اللائى قام بلَعِبِ «الرهنَ المُدْرَك» معهن ، واللاتى أَلقى عليهن نظراتٍ حادَّةً عَذْبة ، وقد أحبَّ تِڤنانَ لأناقتها ورِقَّتها وإتقانها فَنَّها ولأَلْحاظها وصوتِها المؤثِّر في الفؤاد ، وقد أحبَّ إلُودْية التي أحسَّ أنها فيَّاضةٌ غنيةٌ وَهَّابة عن طَبْع ، وقد أحبَّ جُولْيان هازَار على الرغم من شَعْرها الذابل وأهدابها البيض ونَمَشها وقوامِها النـاحل ، وذلك لأنه كان ، كدُونْوَا الذي حَـكَى عنه ڤُولْتير في « العذراء » ، مستعدًّا للإنعام ، عن كَرَمٍ ، بحبٍّ على الأقلِّ جمالاً ، وذلك على قَدْر ما تلوح له مُتَفَرِّغةً سهلةَ المنـال ، وهو ، إذْ كان خالياً من كلِّ زَهْوٍ ، فإنه لم يَطْمئنَّ أن يكون مقبولاً مطلقاً كما أنه لم يطمئن ألا يكون مقبولاً أبداً ، ثم إنه يُقَدِّم نفسه إلى كلِّ مصادفة ، ويستفيد من كلِّ لقاءٍ سـعيدٍ « للرهن المُدْرَك » فيَعْرِض

على تِقنان بعضَ الأمور اللطيفة فلا تَغْضب من ذلك ، ولـكن من غير أن تجيب عن ذلك على عَيْنِ الوطنىِّ بليزَ المِغْيار ، وعن الغرام ، كذلك ، يُحَدِّث الوطنيةَ إلُودْية التى يَعْرِف أنها مرتبطةٌ فى غَمْلان ، ولـكن من غير أن يَبْلُغ الطمعُ فيه ما يَطْلُب معه قلباً لنفسه وحدَها ، وما كانت إلُودْية لتُحِبَّـه ، وإنما كانت تَجدُه ظريفاً ، وإنما لم تُوَفَّق لـكَتْم هذا منه تماماً ، وأخيراً يَنقُل أعجلَ تمنياته إلى أُذُن الوطنية هازَار ، فتجيب عن ذلك بلهجةٍ حائرة قد تُحْمَل على انقيادٍ فاسد أو عدم اكتراث عابس ، ولم يكن دِمَاهى ليظنَّ أنها غيرُ مبالية .

ولم يشتمل الفُندق على غير غرفتين للنـوم ، وكانت الغرفتان فى الطبقة الأولى وعلى مستوى واحد ، وكانت الغرفة التى عن الشمال ، وهى أحسنُ الاثنتين ، مُمَسَّدَةً [1] بورقٍ ذى أزهار ومزخرفةً بمرآةٍ على قَدْرِ اليد محاطةٍ بإطارٍ مُذْهَبٍ عانى هجومَ الذُّباب منذ طفولة لويس الخامسَ عشرَ ، وهنالك ينتصب ، تحت مِظَلَّةٍ من نسيجٍ مُشَجَّر ، سريران مُجَهَّزان بوِسَادتيْن من ريشٍ وبلحافٍ من زَغَبٍ وبِغطاء ، وقد حُفِظَت هذه الغرفة للوطنيات الثلاث .

ولما حَلَّت ساعة الانزواء تَمَنَّى كلٌّ من دِمَاهى والوطنيـة هازَار ، الحاملين سِرَاجيْن بيديهما ، للآخر ليلةً سعيدة ، ويُزْلِقُ النَّحَّاتُ العاشق لبِنْت بائع الأصباغ بطاقةً يَرْجُو فيها أن تُوَافِيَـه عندما يكون الجميع نائماً ، وذلك فى طبقـة البيت الواقعة تحت سَقْف المنزل وفوق غرفة الوطنيات .

وكان بصيراً نبيهاً فدَرس الأحوال وتفقّد تلك الطبقةَ فى أثناء النهار ، فوجدها مملوءةً حُزَمَ بصلٍ وكُدْسَ فاكهةٍ ، لتَجِفَّ تحت أسرابٍ من الزنابير ، وصناديقَ

---

(١) مسد الشىء : أمر يده عليه شديدا ، وهى عامية .

وحقائبَ قديمةً ، ثم رأى هناك سريراً أعرج غيرَ صالح للاستعمال وفراشَ تِبْن مبقورٍ تَثِبُ منه البراغيث .

وكان يقابل غرفةَ الوطنيات غرفةٌ ذاتُ ثلاثة أَسِرَّةٍ صغيرة ينام الوطنيون المسافرون عليها كما يريدون ، بَيْدَ أن بروتو ، الذى كان من أهل الخلاعة سابقاً ، ذهب إلى النِّبْر لينام على العَلَف ، ويتوارى جانْ بليزُ ، ولم يَلْبَثْ دُوبوَا وغَمْلانُ أن نامَا ، ويَدْخُل دِمَاهِى الفراشَ ، ولكن هذا النَّحّاتَ نَهَضَ عند ما خَيَّم السكون على المنزل فصار كالماء الراكد ، وصَعِد فى السُّلَّم الخشبىِّ الذى أخذ يطقطق تحت رجليه الحافيتين ، وكان بابُ الطبقة التى هى تحت سَقْف البيت مفتوحاً قليلاً ، وكان ينبعث منه حَرٌّ خانقٌ ، وكانت تنتشر روائحُ حادَّةٌ من الفواكه العَفِنة ، وكانت لا ترُونْشُ نائمةً على السَّرير الأعرج فاغرةَ الفم مُقَلَّصةَ القميص مباعِدَةً ما بين ساقيها ، وكانت عظيمةَ البدن ، ويجاوز الرَّوْشن (١) شُعَاعٌ من القمر فيُثَرِّى بالأزرق والفِضِّى أَدَمَها فيَلْمَع نَضْرَةً وشباباً بين أَثَر الوَضَر (٢) وسائلِ الزِّبْلِ ، ويرتمى دِمَاهِى عليها ، وتستيقظ مرتجفةً وتخاف وتَصْرُخ ، ولكنها تَعْلَم ما يُرَاد بها وتطمئِنُّ فلا تُظْهِر حَيراً ولا كَدَراً ، وتتظاهر بأنها غافيةٌ غَفْواً يكون لها معه بعضُ الحِسِّ مع نَزْعِ الشعورِ بالأمور منها .

ويعود دِمَاهِى إلى غرفته حيث ينام إلى النهار نوماً هادئاً عميقاً .

ويُقْضَى نهارٌ آخرُ فى العمل ويَتَوجَّه الجَمْعُ الجائلُ فى غده إلى باريس ، ولمَّا دَفَع جانْ بليزُ أوراقاً نقديةً إلى الفُنْدُقِىِّ بِوَاتْرِين تَحَسَّر هذا الوطنىُّ لأنه صارَ

---

(١) الروشن : الكوة ، وهى الخرق فى الحائط .

(٢) الوضر : وسخ الدسم .

لا يَرَى غيرَ « النقـد المربَّع » ، ووعَدَ بتقديم أعظم الشكر إلى العـاهر الذى يُعِيدُ النقدَ الأصفر .

ويُقدِّم أزهاراً إلى الوطنيـات ، وذلك أنه أَمَرَ لاتْرُونْش فصَعِدت فى سُلَّمٍ لابسةً خُفًّا مُشَمِّرَةً ثيابَها مُبْدِيةً رَبْلَتَيْها الدَّرِنتَيْن[1] اللامعتين واقتطفتْ ، غيرَ مَلُولٍ ، وَرْداً من أشجار الورد المتسلِّقة الساترة للجدار ، ويتساقط الورد من يديها العريضتين ، على تنَانِير[2] إلُودْية وجُولِيان وتِـقِنان المبسوطةِ ، كالمطر والسيل والثلج الذى ينهالُ من الجبال ، وتُمْـلأُ العربةُ منه ، ويَصِلُون ليلاً جالبين إلى بيوتهم أحمالاً منه بين أذرعهم فيُعَطِّر شَذَاه نومَهم ويَقَظَتَهم .

---

(١) الدرن : القـذر .

(٢) Jupes.

١١

فى صباح اليوم السابع من سبتمبر ذهبت الوطنية رُشْمُور إلى بيت المحلَّف غَمْلان لتسترعىَ اهتمامَه حَوْلَ بعض ما يساورها فلاقت على المْجَاز برُوتُو دِيزِلِّت الذى كانت تُحبُّه فى الأيام المِلَاح ، وكان برُوتُو ذاهباً ليَحْمِلَ إلى بائع اللُّعَب فى شارع اللُّوَا اثنتى عشرةَ دستةَ[1] لُعَبِ إنسانٍ تتحرك بخيط ، وهو يَعْزِم على حَمْلها بأسهلَ من ذلك بأن يَرْبِطها على طرف خشبةٍ دقيقة طويلة وَفْقَ نَمَط البائعين الجائلين ، وقد كان يتصرف بظَرْفٍ مع جميع النساء حتى مع مَنْ كَلَّ انجذابُه إليهنَّ بفعل العادة الطويلة ، كما هى حال مَدَام دُو رُشْمُور ، على ألَّا تكون المرأةُ قد تُبِّلَتْ بالخيانة والغَيْبَة والخِدَاع والبَدَانة فصارت غيرَ مُشْتهاة ، ومهما يكن من أمرٍ فقد رَحَّب بها على المَجَاز القَذِر المُفَكَّكِ البَلاطِ كما كان يُرَحِّبُ على دَرَج المجاز فى الجُزَيِّرات راجياً أن تُشَرِّفه بزيارتها فى طبقته تحت سقف البيت ، وتَصْعَد مُسْرِعةً فى السُّلَّم وتَجِدُ نفسها تحت هيكلٍ خشبيٍّ ذى جُسُورٍ منحدرةٍ حاملةٍ سقفاً قِرْميدِيًّا ذا كُوَّة ، ولا يُمْكِن الوقوفُ هنالك ، فتَجْلِس على الكرسىِّ الوحيد فى هذا المحلِّ المظلم وتُجِيل نظرَها فى الآجُرِّ المُفَكَّكة ، وتسأل حائرةً مُكَدَّرَةً :

« أَوَتَسْكُن هنا يامُورِيس ؟ أنت لا تَخْشَى الثُّقَلاءَ هنا ، والشيطانُ أو السِّنَّوْرُ هو الذى يستطيع أن يَجِدَك هنا » .

---

(١) Douzaine

برُوتُو : « الحَيِّز صغيرٌ هنا ، ولا أكتُم عنكِ أن المطر يَنْزِل على فِرَاشى أحياناً ، وهذا محذورٌ واهٍ . وإذا ما كانت الليالى صافيةً رأيت القمرَ الذى هو صورة غرام الناس وشاهدُه ، والقمرُ هو ما يشاهِده العُشَّاق فى كلِّ حين يا سيدتى ، والقمرُ إذا ما كان ممتلئاً أصفرَ مستديراً ذَكَّر العاشقَ بمَوْضع أمانيه » .

الوطنية : « أَسْمَعُ » .

بروتُو مداوماً : « يَزيد مُوَاء الهِرَرة فى هذا المِيزَاب إذا ما حَلَّ فصلُها ، ولكن لِيُغْفَرْ للغرام كلُّ مُوَاءٍ وإيلاءٍ[1] على الغِماء[2] إذا مَلأَ حياةَ الناس أَلَمًا ووِزْراً » .

وكان لدى الاثنين من الحِكْمة ما يتدانيان معه مثلَ صديقيْن افترقا عشيَّةً لِيناما ، وهما يتحادثان بلطفٍ وإيلافٍ مع ما وقع من تباعدهما .

ومع ذلك فإن مدام دُو رُشْمُور تَبْدُو مشغولةَ البال ، فالهمُّ والهَلَعُ هما ما تأتيها الثورة بهما الآن بعد أن كانت الثورة باسمةً نافعةً لها ، وصارت الأَعشيةُ أقلَّ نَضْرةً ومسرَّة ، وعادت أنغامُ مِزْهرها لا تُثِير الوجوهَ العابسة ، وهَجَر أغنى اللاعبين موائدَ قِمارها ، واختفى أكثرُ عُشَرائها الذين غَدَوْا محلَّ ارتياب ؛ وقُبِض على صديقها المالىِّ مُورْهارْد ، ومُورْهارْدُ هذا هو الذى أتت المحلَّف غَمْلَان للشَّفاعة فيه ، وقد كانت ظَنِينةً أيضاً ، فقد فَتَّشَ رجالٌ من الحَرَس الوطنىِّ منزلَها ، وقَلَبوا أدراج خزائنها ، ونَزَعُوا ألواحاً من أرض بيتها ، وبَقَرُوا بحرابهم فراشها ، ولم يجدوا شيئاً فاعتذروا وشَرِبوا خَمْرها ، وقد كادوا ينتهون إلى أمر مراسلتها المهاجرَ مسيو

---

(١) الايلاء : اليمين ، القسم .

(٢) الغماء : سقف البيت .

دِكْسِيلِي ، وقد أنبأها بعضُ أصدقائها من اليعاقبة بأن عشيقها هنرى الجميل يجاوز الحَدَّ جَوْراً إظهاراً لصِدْقه فى عُنْفه .

وتَجْلِس على فِراش التِّبْن ، وتضَعُ مِرْفَقَيْها على رُكْبتيها وكَفَّيْها على خَدَّيْها ، وتسألُ صديقها القديم :

« ما رأيك فى جميع هذا يا مُورِيس ؟ »

برُوتُو : « أرى هؤلاء الناس يُبْدُون للفيلسوف والهاوى مناظرَ للتأمل والتسلية ، ولكن الأصلحَ لكِ ، يا عزيزتى ، أن تكونى خارج فرنسة » .

— إلى أين يسوقنا هذا ؟

برُوتو : « هذا ما سألتِنِي عنه ، يا لوِيزَة ، ذات يومٍ ، حينما كنا راكبَيْن عربةً على شاطئ نهر الشِّير قاصدَيْن الجُزَيِّرات ، وحينما كان حِصاننا الجامح يَنْهَب الطريق نهباً ، فما أشَدَّ حُبَّ النساء للاطِّلاع ! واليومَ ، أيضاً ، تريدين أن تَعْرِفى مصيرَنا ، فاسألى العَرَّافين عن ذلك ، فأنا غيرُ عَرَّافٍ يا صديقتى ، ولا يساعد أصحُّ الفلسفات على كشف المستقبل ، وستنتهى هذه الأمور ، فلكلِّ بداية نهاية ، وقد يُرَى لذلك مخارجُ كثيرة ، ومن ذلك انتصارُ الحلفاء ودخولُهم باريسَ ، والحلفاء غيرُ بعيدين منها ، والحلفاء مَنْ أشكُّ فى بلوغهم هذه الغاية لحماسةِ جنود الجُمهورية فى القتال وتَعَذُّرِ قهرِهم ، ومن ذلك إمكانُ تَزَوُّجِ رُو بِسْيِير السيدةَ المَلِكة ونصبُه وصيًّا على عرش المملكة مدةَ صِغَر لويسَ السابعَ عشرَ » .

الوطنيةُ صارخةً فاقدةَ الصبر تَدَخُّلاً فى هذه المكيدة : « أَوَتظُنُّ ذلك ؟ » .

برُوتُو مداوماً : « ومن المحتمل ، أيضاً ، أن يُكْتَب الفوز لقَائِدِه فتعود دولةُ القساوسة على أكوامٍ من الأنقاض وأكداسٍ من الجُثَث ، ولا تستطيعين

أن تتصورى ، يا صديقتى العزيزة ، أمرَ الإمبراطورية التى يَدَّخرها الإكليروس لجمهور الحمير (١) . . . عَفواً « النفوس (٢) » ، فقـد تشعَّب لسانى ، والراجحُ عندى هو أن المحكمة الثورية ستدمِّر النظام الذى أقامها ، فهى تُهدِّد كثيراً من الهامات ، ولا يُحْصَى عدد من تُرْهِبُهم ، وسيتفقون فيَقْضُون على النظام للقضاء عليها ، وأظنُّ أنك نصبتِ الشابَّ غَمْلاَن للقيام بهذه العدالة ، وهو صالح ، وهو هائلٌ لصلاحه ، وكلما فكَّرْتُ فيه ، يا صديقتى الحسناء ، اعتقدتُ أن هذه المحكمة التى أقيمت لإنقاذ الجمهورية أضاعتها ، وقد أراد مجلس العهد أن تكون له أيامُه وديوانُه النشيط وأن يَضْمَن أَمْنَه بقُضاةٍ يُولِّيهم ويكونون خاضعين له ، ولكن ما أكثرَ ما تبدو أيامُ مجلس العهد دون أيام العهد الملكى الكبرى ، ولكن ما أكثرَ ما يَبْدُو ديوانه النشيط دون ديوان لويسَ الرابعَ عشرَ سياسةً ! يَسُود المحكمةَ الثورية من حِسِّ العدل الأسفل والمساواة الباردة ما يجعلها ممقوته مضحكةً مثيرةً لنفور الناس أجمعين ، أَوَ تعلمين ، يا لويزَة ، أن هذه المحكمة ، التى ستَدْعُو للمُثُول أمامها ملكةَ فرنسة وواحداً وعشرين مشترعاً ، قد حكمتْ أمسِ على خادمةٍ لأنها هتفت : « عاش الملك ! » فعُدَّتْ سيئةَ النية مفكرةً فى القضاء على الجمهورية ؟ ! يَعْمَل قضاتُنا المُجهَّزون بريشٍ أسودَ على سُنَّة وِلْيَمْ شكسبيرَ العزيزِ على الإنكليز والذى أدخل إلى أشدِّ مآسيه دُعاباتٍ جافية » .

الوطنية تسأل : « وهل أنتَ سعيدٌ بالحبِّ دائماً ؟ » .

برُوتُو : « آهْ ! إن الحَمام تَطير إلى البُرْج الأبيض ، ولا تقع على البُرْج المُقوَّضُ » .

الوطنية : « أنت لم تُغَيِّر ... إلى اللقاء يا صديقى ! » .

---

(١) Anes (٢) Ames

وفى ذلك المساء يزور الفارسُ هنرى مدامْ دُورُشْمُور من غير أن يُطْلَب منه ذلك ، فيَجِدُها تُغْلِق كتاباً مشتملاً غِلافُه على عُنْوان الوطنىِّ رُولين فى ڤِرْنُون ، ويَعْرِفُ أن هذا كتابٌ إلى إنكلترة ، فرُولينُ كان يتسلَّم رسائلَ مدامْ دُورُشْمُور بواسطة حُوذِىٍّ (١) لدى شركة العَرَبات ، فبواسطة بائعِ سمكٍ يَحْمِله إلى دِيپ (٢) ، ثم بواسطة مَلَّاحٍ يَنْقُله ليلاً إلى سفينةٍ بريطانية تَطُوف حَوْل الساحل ، ويتناوله مسيو دِكسِيلّى بلندن ويُطْلِع ديوانَ سانْ جِيمْس عليه إذا ما وَجَدَه نافعاً .

وكان هنرى فَتىً وَسيما ، وما كان أَشيلُ جامعاً لمثل ذلك الجمال ومثل تلك الفُتُوَّة عندما تَقَلَّد الأسلحة التى قدَّمها أُولِيس (٣) إليه ، غير أن الوطنية رُشْمُور المفتونةَ ببطلِ القسم الشابِّ منذ قليلٍ حَوَّلتْ عنه أبصارَها وأفكارها منذ أُخبرتْ أنه كاد يُعَرِّضها للخطر ويُهْلِكها عندما وُشِىَ به إلى اليعاقبة كمجاوزٍ للحَدِّ ، وقد كان هنرى يَشْعُر بأنه ليس مما لا يُطِيقُه أن يَتَخَلَّى عن حُبِّ مدام دُورُشْمُور ، ولكن الذى كان يؤلمه هو أنها عادت لا تُكْرِمه ، وقد كان هنرى يَرْكَن إليها فى تسديد نفقاتٍ كانت تَحْمِلُه عليها خدمةُ الجمهُورية ، ثم فَكَّرَ فيما تستطيعه النساء من غاياتٍ وفى قدرتهنَّ على التحول بسرعةٍ من أعظم رِقَّةٍ إلى أشدِّ قسوة وفيما يَسْهُل عليهن من التضحية بمن أحببنه وبمن كُنَّ يَعْبُدْنه ، وتَصَوَّرَ ما يُمْكِن لويزَة الجَذَّابَة هذه أن تَصْنَعه ذاتَ يومٍ من رَمْيِه فى السجن تَخَلُّصاً منه ، فرأى من الحكمة أن يستردَّ هذه الحسناءَ المفقودة ، وفى هذا سِرُّ حضوره مُسَلَّحاً بضروب فُتُونه ، ويَدْنُو منها ويبتعد عنها ، ثم يَدْنو منها ويَمَسُّها مَسًّا خفيفاً ويَفِرُّ

---

(١) الحوذى : سائق العربة .
(٢) ديب : مدينة فرنسية واقعة على ساحل بحر المانش .
(٣) أوليس : من أبطال تروادة كما جاء فى أساطير اليونان .

منها وَفْق قواعد الاغـراء فى الرقص الصامت ، ثم يَرْتَمى على كرسىّ ، ويثنى على الطبيعة والعزلة بصوته المؤثر الذى يَنْفُذ قلوبَ النساء ويَعْرِض عليها ، وهو يتأوَّه ، نزْهةً فى إرْمِنُوڤِيل (١) .

ومع ذلك فإنها تَعْزِف على مِزْهرها ببعض الألحان وتُلْـقى نَظَراتِ هَلَعٍ ومَلَال حَوْلها ، وَينْهض هَنْرى عابساً عازماً بغتة ، ويخبرها بأنه سيذهب إلى الجيش وبأنه سيكون أمام مُوبُوجَ (٢) بعد بضعة أيام .

وتوافق على ذلك بهَزِّ رأسها غيرَ مُبْدِيةٍ ارتياباً ولا حَيْرَةً .

هنرى : « أتُهَنِّئينى بهذا القرار ؟ »

— « أهنئك به » .

وكانت تنتظر صديقاً جديداً يَرُوقها إلى الغـاية وتنالُ منه فوائدَ كثيرةً ، كانت تنتظر صديقاً من طِرازٍ آخر ، تنتظر مِيرَابُوياً (٣) مبعوثاً ، تنتظر دَنْتُوناً (٤) مُهَذَّباً صار مَيَّاراً (٥) ، تنتظر أسداً يرمى جميع محبِّى الوطن فى نهر السِّين كما يقول ، وتنتظر دَقَّ الجَرَس فى كلِّ دقيقة ، وترتعش .

وتَصْمُت صَرْفاً له ، وتتثاءب ، وتَتَصفَّح كتاباً موسيقيًّا ، وتتثاءب مرةً أخرى ، وترى أنه لا يَنْصرف فتقول له إن عليها أن تَخْرُج وإنها ذاهبـةٌ إلى مَخْدَع تَـبَرُّجها .

---

(١) ارمنوڤيل : قرية فى فرنسة فيها ضريح جان جاك روسو .

(٢) موبوج : من مدن فرنسة .

(٣،٤) التنوين فى الاسمين الأعجميين ، ميرابو ودنتـون ، هو لورود الاسمين فى الأصل للجنسية لا للعلمية .

(٥) الميار : جالب الميرة .

ويقول لها بصوتٍ مضطرب :

« وَدَاعاً يا لويزة !... هل يُكْتَب لى أن أراكِ ؟ » .

وتَبْحَث يداه فى المكتب المفتوح .

ويَسير فى الشارع ويَفْتَح الكتاب الموجَّه إلى الوطنىِّ رُولين ويَقْرَؤُه بعناية فيَجِدُه مشتملاً على وصفٍ طريفٍ للحالة النفسية العامة فى فرنسة وعلى حديثٍ عن الملكة وتِقنان والمحكمة الثورية وعلى أمورٍ سِرِّيَّة كثيرة عن بُروتُو دِيزِلِّت الصالح .

ويُتِمُّ قراءةَ الكتاب ، ويُعِيدُه إلى جيبه ، ويتردَّد بضعَ ثوانٍ ، ثم يَعْزِم ويقول فى نفسه إن خيرَ البِرِّ عاجلُه ، ويتوجَّه إلى قصر التويلْرى ، ويَدْخُل غرفةَ انتظار لَجنَة السلامة العامة .

وفى الساعة الثالثة من مساء ذلك اليوم يَجْلِس إيڤارِسْت غَمْلان على مقعد المحلَّفين مع أربعةَ عشرَ زميلاً كان يَعْرِفهم غالباً ، مع زملاءَ من البُسطاء ، من الصالحين ومحبِّى الوطن ومن العلماء والمتفننين أو الصُّنَّاع ، أىْ من مصوِّرٍ مثلِه ومن رسَّام ، أى من رجلين موهوبين ، ومن جَرَّاحٍ وخَرَّاز ، ومن مَرْكيزٍ سابقٍ أقام أدلَّةً كبيرة على غَيْرته الوطنية ، ومن طابعٍ وباعَةٍ ، ثم من مِثالٍ على الشعب الباريسىّ ، ويَقْعُدون هنالك لابسين ثيابَ عُمَّالٍ أو بُرْجوازٍ مُحَلِّقين رؤوسَهم على طريقة تِيطُس[1] أو لابسين شعراً مستعاراً معقوداً بشَرِيطٍ من الوراء أو لابسين قبعاتٍ مُقَرَّنةً غائصةً على الأعين أو قبعاتٍ مُدَوَّرةً موضوعةً على خلف الرأس ، أو قلانسَ حُمْراً ساترةً للآذان ، وكان بعضهم لابساً سُتْرَةً وصُدْرَةً وسِرْوالاً

(١) تيطس : من أباطرة الرومان .

كما فى العهـد السابق ، وكان آخرون منهم لابسين سُتْرَةً قصيرة وسِرْوالاً مُخَطَّطاً على زِيِّ السانْ كُولُوت ، وكانوا لابسين جَزَماتٍ أو أحذيةً ذاتَ أبازيم أو خِفافاً ، وكانوا يَعْرِضون على أشخاصهم جميعَ أنواع ثياب الرجال المستعملة فى ذلك الحين ، وبما أنَّهم جَلَسوا غيرَ مَرَّةٍ فيما مَضَى فإنهم كانوا مستريحين حيثُ هم ، كما يلوح ، خَلَا غَمْلان الذى كان حاسداً لهم على راحتهم ، ويَخْفِق قلبُـه ، وتَدُنُّ أُذُناه ، وتُغْشَى عيناه ، ويَغْبَرُّ كلُّ ما هو حَوْلَه .

ويُعْلِن الحاجبُ حضورَ المحكمة ، ويَجْلِسُ ثلاثةُ قضاةٍ على مِصْطَبةٍ صغيرة وأمام مِنْضدةٍ خضراء ، ويَظْهَرون لابسين قبعاتٍ ذاتَ سِمَاتٍ وذاتَ ريشٍ أسودَ فى أعلاها ولابسين حُلَلَ المحاكمة مع شَرِيطٍ مثلَّثِ الألوان يتدلَّى منـه على صدورهم وِسامٌ فِضِّيٌّ ثقيل ، ويَجْلِسُ فى الأمام عند أسفل المِصْطبة نائبُ المُتَّهِم العـامِّ بمثل ذلك الزِّيِّ ، ويَجْلِس المسجِّل بين المحكمة وكرسيِّ المتَّهَم الخالى ، ويَجِدُ غَمْلانُ هؤلاء النـاسَ الذين يختلفون عَمَّن رأى سابقاً حتى الآن أعظمَ جمالاً وأكثرَ اتزاناً وأشدَّ رَهْبَـةً وإن كانوا يتخذون أوضاعاً مألوفةً مُقَلِّبين أوراقاً أو منادين حاجباً أو مائلين إلى الوراء لسماعِ رسالةِ مُحَلَّفٍ أو ضابطٍ .

وكانت ألواحُ حقوق الإنسان معلَّقةً ، وكان تمثـالا لُو يلْتيه دوسانْ فارْجُو ومارَا النصْفِيان منصوبين عن اليمين وعن الشِّمال على حِذاء الجُدُر الإقطاعية ، وتُرَى مقاعدُ الحضور فى أقصى القاعة أمام مقعد المحلَّفين ، وتَشْغَل الصفَّ الأولَ نساءٌ شُقْرٌ وسُمْرٌ وشُهْبٌ ذواتُ عصائبِ رأسٍ عاليةٍ تُظَلِّلُ أطرافُها المُغَضَّنةُ خدودَهنَّ ، وتَلْتَقِى مناديلُ عُنُقٍ ، أو تذْنَى مَرْيَلَةٌ (١) زرقاءُ ، على صدورهنَّ فيَظْهَرْن ذواتِ

---

(١) Bavette

ثُدِيّ ، عن زِيّ ، كما لو كُنَّ من المراضِع ، ويُمْسِكْنَ طَرَفَ الحاجز مُتَكتِّفات ، ويُرَى وراءهنَّ وطنيُّون مبعثَرون على مُدَرَّج لابسون من الثياب المُنوَّع ما تكتسب الجموع معه شكلاً غريباً بَدِيعاً ، ويشاهَد عند المدخل من اليمين ، وخلف حاجزٍ زاخرٍ ، حَيِّزٌ يَقِف الجُمهور فيه ، والجُمهورُ فى هذه المَرَّة قليل ، فما كانت القضية التى يُباشِرها هذا الفرعُ من المحكمة ليُهِمَّ غيرَ قليل من الحُضور ، ولا ريب فى أن ما تباشره الفروعُ الأخرى من القضايا فى الوقت نفسه أكثرُ تأثيراً فى الناس .

وذلك ما أَلْقَى السَّكِينةَ قليلاً فى قَلْبِ غَمْلانَ الذى قد لا يُطِيق جَوَّ المحاكماتِ الكبرى الملتهبَ عن ضَعْفٍ ، ويُحَدِّق إلى أدقِّ الجزئيَّات ، فيلاحظ وجودَ قطن فى أُذُن المسجِّل ووجودَ بُقْعَةِ مِدادٍ على إضبارة نائب المُتَّهِم ، ويَرَى ، كما لو كان بِمِنْظارٍ ، تيجانَ الأعمدةِ المنحوتةَ فى زمنٍ زالت فيه كلُّ معرفةٍ بالأصول القديمة ، فتَعْلُو الأعمدةَ القُوطية باقاتٌ من القرَّاص والآس ، غير أن أبصارَه كانت تَرْجِع ، بلا انقطاع ، إلى ذلك الكرسىِّ الذى ذهب وقتُه والمُجَهَّزِ بمُخْمَلٍ أُتْرخِيٍّ [١] أحمرَ بالٍ مَقْعَداً مُسَوَّدٍ ذراعاً ، وكان رجالٌ من الحرَس الوطنىِّ المسلح واقفين فى جميع الأبواب .

وأخيراً يظهر المتهَم مَحْفُوراً من قِبَلِ جنودٍ غيرَ مُقَيَّدٍ كما يأمُر القانون ، وقد كان رجلاً فى الخمسين من سِنِيه نحيفاً جافياً أسمرَ اللون أَصْلَع الرأس أجوفَ الخدين رقيقَ الشفتين بَنَفْسَجِيَّهما لابساً ثوباً على الزِّىِّ القديم ، ولا ريب فى أن عينيه تَلْمَعان كالجواهر وخدَّيْه يَلْمعان كالدِّهان عن حُمّى ، ويَجْلِس ، وكانت ساقاه المشتبكتان نحيلتين إلى الغاية ، وكانت يداه الكبيرتان عَقْدَوايْن ... وكان

---

(١) نسبة الى أترخ من مدن هولندة ، وهى مشهورة بنسج المخمل .

يُدْعَى مارِى أَدُولْف غِلِّرْغ ، وكان متهماً بالإسراف فى عَلَف الجمهورية ، ويُلْقِى إعلانُ الاتهام أموراً خطيرةً كثيرة على عاتق المتهم لا تجدُ واحداً منها ثابتاً مطلقاً ، ويُسْأل غِلِّرْغُ فيُنْكِر مُعْظَمها ويفسِّر الأخرى تفسيراً ملائماً له ، ويَظْهَر مُحْكم اللسان فاترَ البيان حَسَنَ الكلام فيُوحى بأنه رجلٌ لا تُسْتَحَبُّ محاورته ، ويبدو حاضرَ الجواب ، فكان ، إذا ما وَضَع القاضى له سؤالاً مُوَرِّطا ، يَظَلُّ هادئَ الوجه ثابتَ القول ، ولكن مع تقبُّض يديه المضمومتين إلى صدره غَمًّا ، ويلاحظ غَمْلانُ هذا فيَهْمِس إلى جاره المصوِّر مثله بقوله :

« انْظُر إلى إبهاميْه ! » .

ويأتى الشاهد الأول بوقائعَ ثقيلةٍ ، وكان الاتهامُ يقوم عليه وحدَه ، وقد ظَهَر من دُعِىَ بعده من الشهود مناسباً للمتهَم ، وقد احتدَّ نائبُ المتَّهِم العامِّ ، ولكنه ظلَّ غيرَ صريح ، ويتكلم المحامى بلهجةٍ من الصدق ما يَنَال المتَّهَم معه عطفاً لم يَعْرِف أن يَفُوز به بنفسه ، وتُرْفَع الجلسة ، ويجتمع المحلَّفون فى غرفة المذاكرة ، وينقسم المحلَّفون إلى فريقين متساويين عدداً تقريباً بعد نِقَاشٍ غامضٍ مبهم ، فمن جهةٍ يُرَى الأخلياء الفاترون المُبَرْهِنُون الذين لا تثيرهم الأهواء ، ومن جهة أخرى يُرَى مَنْ يَسيرون مع العواطف فلا تُؤثِّر البراهين فيهم إلا قليلاً وَيَحْكُمون بالقلب ، ويَدِينُ أولئك دائماً ، وأولئك هم الصالحون الخُلَّص الذين لا يُفكِّرون فى غير إنقاذ الجمهورية ولا يبالون بسواها ، ويؤثِّر وضعُهم فى غَمْلانَ كثيراً فيَشْعُر باتحاده فيهم .

ويرى غَمْلانُ : « أن غِلِّرْغَ ماكرٌ ماهر فاجرٌ ضارَبَ على عَلَف فرساننا ، فبراءتُه هى خلاصُ خائنٍ ، هى خيانة للوطن ، هى إعدادُ الجيش للهزيمة » ، وكان غَمْلانُ قد أبصر فرسانَ الجمهورية فوق مطاياهم وهى تَعْثُرُ لِبَتْر فرسان العدوِّ إياها ... « ولكنْ إذا ما كان غِلِّرْغُ بريئاً ؟ . . » .

ويُفكِّرُ من فوره فى أمرجانْ بليزَ المتهَمِ بعدم الأمانة فى أمر الميرة أيضاً ، وما أكثرَ مَنْ يُعِدُّ الهزيمةَ ويُهَيِّئُ زوالَ الجُمهورية بالسيْر على غِرار غِلِّرْغ وبليزْ ! فالعبرةُ أمرٌ لا بُدَّ منه ، ولكن إذا ما كان غِلِّرْغُ بريئاً ؟ . . .

غَمْلان بصوتٍ عالٍ : « لا توجَد أدلَّة » .

رئيسُ المحلَّفين الصالحُ الخالص رافعاً كتفيه تهكماً : « لا توجَد أدلةٌ مطلقاً ! » .

وأخيراً تَبْلُغُ أصواتُ الحكم سبعةً وتَبْلُغ أصواتُ البراءة ثمانيةً .

ويعود المحلَّفون إلى القاعة وتُعْقَد الجلسة ، ويجب على المحلَّفين أن يَبْنُوا الأسباب التى قام عليها قرارُهم ، ويتكلم كلٌّ منهم أمام الكرسىّ الخالى مناوبةً ، فيُسْهِب بعضهم فى الكلام ويقتصر آخرون على كلمةٍ واحدة ، ومنهم من يَنْطِق بقولٍ غيرِ مفهوم .

ولما أتت نَوْبةُ غَمْلانَ نَهَضَ وقال :

« لا بُدَّ من براهينَ قاطعةٍ تجاه جنايةٍ كبيرة كخِرمان حُماةِ الوطن وسائلَ النصر ، وذلك ما ليس لدينا » .

ويُقْضَى بأن المتهَم غيرُ مذنب بأكثرية الأصوات .

ويؤتَى بغِلِّرْغ أمام المحلَّفين مصحوباً بضوضاءِ عطفٍ من الحُضُور الذين يبَشِّرونه بالبراءة ، ويتحوَّل إلى رجلٍ آخر ، فقد زال جفاءُ ملامحه ولانت شفتاه ، وبدت عليه هيئة الجَلال ودلَّ وجهه على البراءة ، ويتلو الرئيس بصوتٍ هائج حكمَ المحلَّفين بإطلاق المتهَم ، وتُدَوِّى القاعة هُتافاً ، ويُهْرَعُ الشُّرْطىُّ الذى جلبه إليه ، وينـاديه الرئيس ويعانقه عِناقَ إخاء ويُقَبِّـله المحلَّفون ، وتَذْرِفُ عَيْنا غَمْلانَ سخينَ العَبَرات .

ويَموج فى قاعة القصر ، المُنارة بأشعة الشمس الأخيرة ، جَمْعٌ صَيَّاحٌ ، ففى آخر النهار قضت فروعُ المحكمة الأربعةُ ، بثلاثين حُكْمَ إعدامٍ ، وكان يَنْتظر على دَرَج السُّلَّم الكبير نساءٌ من الحُضُور ، جالساتٌ القُرْفُصَاء ، انصرافَ عَرَبات المحكوم عليهم بالإعدام ، بَيْدَ أن غَمْلانَ ، لنازلَ من الدَّرَج بين مَوْج من المحلَّفين والحُضَّار ، لم يَرَ شيئاً ، ولم يَسْمَع شيئاً ، غيرَ ما صَنَع من إقامةِ عَدْلٍ ومن عملٍ إنسانىٍّ ومن تهنئتِه لنفسه بأنه قرَّر البراءة ، وترتمى إلُودْيَة بين ذراعيه بيضاءَ دامعةً باسمةً ، وتظلُّ مغشيًّا عليها ، فلما أفاقت وعاد إليها صوتُها قالت له :

« أىْ إيڤارِسْت ! أنت جميل ، أنت صالح ، أنت كريم ! لقد كان صوتُك القوىُّ العَذْب يَمُرُّ علىَّ بأمواجه المَغْنَطِيَّة فيُكَهْرِبنى ، وكنتُ أنظر إليك جالساً على مَقْعدك ، وما كنتُ أرى غيرَك ، ولكنك ، يا صديقى ، لم تَرَنى إذَنْ ؟ ولم تُخْبَرْ بأننى كنتُ هنالك ، فى الصف الثانى من اليمين ، بين الحُضُور إذَنْ ؟ رَبَّاهُ ! ما أجمل صُنْعَ الخير ! أنت أنقذتَ هذا البائس ، ولولاكَ لفُرِغَ من أمره ، ولأصبح من الهالكين ، أنت أعدتَه إلى الحياة ، إلى حُبِّ أهله ، وعليه أن يبارِك لك فى هذا الحين ، إننى سعيدةٌ فخورٌ بحبِّك يا إيڤارِسْت ! » .

ويتأبَّط أحدُهما ذراعَ الآخر ويسيران من الشوارع ، ويَشْعُران بأنهما صارا من الخِفَّة ما يَظُنَّان معه أنهما يطيران .

ويذهبان إلى « مصوِّر الغرام » ، فلما بَلَغا الأُرَاتْوَار قالت إلُودْيَة : « أرى أَلَّا نَمُرَّ من المخزن » .

وتُدْخِلُه من باب العَرَبات ، ويَصْعَد معها إلى المنزل ، وتُخْرِج فى المَجَاز مِفْتَاحاً حديديًّا كبيراً من كيسها وتقول :

« مَنْ يَنْظُرْ إليه يَقُلْ إنه مِفتاحُ سجنٍ ، فستكون سجينى يا إِيڤارِسْت » .

ويجاوزان غرفةَ الطعام ويكونان فى حُجْرة الفتاة .

ويُحِسُّ إِيڤارِسْتُ على شفتيْه طَرَاءَ شَفَتَىْ إِلُودْية الحارَّ فيعتصرها بين ذراعيه ، وتُفْلِت منـه وتُسْرِع لدَفْع المِزْلاج مُنكَّسةَ الرأس ذابلةَ العينين مُفرَّقةَ الشعر مائلةَ القامة نصفَ مُغْمًى عليها ...

وكان الليل مرسِلًا سُدُولَه عنـد ما فتحت إِلُودْية بابَ المنزل لعشيقها وقالت له فى الظلام مُخَافتةً :

« مع السلامة يا حبيبى ! فهـذه هى الساعة التى يَدْخُل المنزلَ فيهـا أبى ، فإذا سمعتَ وَقْعَ قدَمٍ على الدَّرَج فاصْعَدْ إلى الطبقة العليـا مُسْرِعاً ، ولا تَـنْزِل إلَّا بعد زوال الخَطَر ، وانقُرْ نافذةَ البَوَّاب ثلاث مراتٍ حتى يُفْتَحَ لك بابُ الشارع ، مع السلامة يا حياتى ، مع السلامة يا روحى ! » .

فلما كان فى الشارع رأى انفتاحَ نافذة غرفةِ إِلُودْية واقتطافَ قرنفلةٍ حمراءَ بيدٍ صغيرةٍ وسقوطَ هذه القَرَنْفُـلَة على رجليْه كقَطْرةِ دمٍ .

١٢

يَحْمِل الشيخ بُروتُو اثنتى عشرةَ دستةَ [١] لُعَبٍ تتحرك بالخيط إلى بائع اللُّعَب فى شارع اللُّوَا : الوطنىِّ كايُّو ، فيستقبله هذا البائع بغِلْظَةٍ بين لُعَبه وصُوَره المضحكة ، مع أنه أنيسٌ مهذَّبٌ عادةً .

قال بائع اللُّعَب : « احْذَرْ أيها الوطنىُّ بُروتو ، احْذَرْ ! ليس هـذا وقتَ الضحِك ، ليست كلُّ مداعبةٍ مقبولةً ، فلقد زارنى أمسِ عُضْوٌ فى لَجنة سلامة القسم ونظر إلى لُعَبك ووجَدها لا ثَوْرِيةً » .

بُروتُو : « كان يَهْزأ » .

— كلَّا ، أيها الوطنىُّ ، كلَّا ! إن هذا الرجلَ لا يَمْزَح ، وقد قال إن التمثيل الوطنىَّ فى هـذه اللُّعَب قد شُنِّع عن خيانةٍ ، وإنها صُورٌ هزليـة لـكُوتُون وسانْ جُوسْت ورُوبِسْـبِير ، وهذا ما فَطِن إليه ، وهذا خُسْرٌ كبيرٌ أُصابُ به ، وهذا يُعَرِّضنى للخطر .

— ماذا ! أتتحول هذه الأَرْلـكِينات [٢] والجِلَّات [٣] والسكارَامُوشَات [٤]

---

(١) Douzaine

(٢) أرلكن : رجل هزلى خيالى أدخل الى جميع مسارح أوربة منذ القرن السابع عشر .

(٣) جل : علم لرجل خيالى هزلى .

(٤) سكاراموش : اسم رجل كان ممثلا للكوميديا الايطالية (١٦٠٨ — ١٦٩٤)

الـكُولينات[١] والـكُولينتّات التى أصوِّرها كما كان بُوشِه يصوِّرها منـذ خمسين عاماً ، إلى كُوتُونات وسانْ جُوستات مشنَّعين ؟ لا تَجِدُ رجلًا عاقلًا يَزْعم هذا » .

الوطنىّ كايُّو : « من المحتمل أن تـكونَ قد سِرْتَ عن غير خُبْثٍ و إن كان يجب أن يُرْتاب من رجلٍ نابغةٍ مثلك دائماً ، ولـكن اللَّعب خَطِر ، أَوَ تريد مثالاً ؟ لقد قُبِضَ منذ يومين على ناتْوالَ ، الذى هو صاحبُ مَسْرحٍ صغيرٍ فى الشانْزِليزه ، لأنه مَثَّلَ مجلس العهد على طريقة كرَاكُوز وعِيواظ[٢] » .

بُروتُو رافعاً الغِطاءَ عن لُعَبه الصغيرة المعلَّقة : « وهذه صدمةٌ أخرى ، وانْظُر إلى هذه الوجوه المستعارة ، انظر إلى هذه الوجوه ، فهل تدلُّ على غير أناسٍ من ممثلى الروايات الهزلية والرِّعائية ؟ وكيف سمحتَ لنفسـك ، أيها الوطنى كايُّو ، أن تقول إننى أمثِّل مجلس العهد ؟ » .

بُهِتَ بُروتُو ، ولم يكن ليظنَّ أنه يُرْتابُ بسكارَامُوشـاتِه وكُولِّينـاتِه مع مجاراته حماقة الإنسان كثيراً ، وقد احتجَّ ببراءتها و براءتِه ، غير أن الوطنىَّ كايُّو لم يُرِدْ أن يَسْمَع شيئاً .

كايُّو : « خُذْ لُعَبَك أيها الوطنىُّ بُروتُو ، وأنا أُوَقِّرك ، وأنا أُعِزُّك ، ولـكننى لا أريد أن أُلام أو أُهَمَّ بسببك ، أنا أحترم القانون ، وأُريد أن أظلَّ وطنيًّا صالحاً ، وأن أُعامَل هكذا ، عِمْ مساءً أيها الوطنىُّ بُروتُو ، ارْجِـعْ بلُعَبك » .

يَسْلُك الشـائبُ بُروتُو طريقَ منزله حاملاً مُتَّهَماتِه بطرف عصـاً طويلة على كَتِفه ، ويَسْخَر منه الأولاد ظانِّين أنه بائعُ سَمٍّ قاتل للفئران ، وتساوره أفـكارٌ كئيبة ، ولا رَيْبَ فى أنه لا يعيش من لُعَبه وحدها ، فهو يَصْنَع صوراً تساوى الواحدةُ

---

(١) كولين : طابع وكتبى فرنسى (١٤٧٥ ــ ١٥٤٦) .

(٢) Polichinelle

منها عشرين فَلْساً ، وذلك تحت رُتُجِ [١] وداخلَ بِرْمِيلٍ فى السُّوق ، وذلك مع راتقاتٍ ، فكثيرٌ من الشبان الذاهبين إلى الجيش يريدون تَرْك صُوَرهم للفتيات من صواحبهم ، غير أن هذه الأشياءَ الصغيرة تُتْعِبه كثيراً ، وهَيْهَاتَ أن يَصْنَع صُوَرَه متقنةً كلُعَبه ، ومما كان يَحْدُث أحياناً أن يُستخدَم كاتباً عند سيدات السوق ، ولكن مع احتمال حَمْلِ هذا على الاشتراك فى مؤامرات الملَكيين والوقوع فى أعظم الأخطار ، ويَذْكُر وجودَ بائعِ لُعَبٍ آخرَ اسمُه جُولِى فى شارع نُوف دى پِتِى شانْ القريبِ من ميدان قَنْدُومَ السابقِ ، ويَعْزِم على الذهاب إليه غداً ليَعْرِض عليه ما رَفَضه الجبانُ كايُّو .

وتُمْطِر السماءُ رَذَاذا ، ويُسْرِع برُوتُو فى السَّيْر خشيةَ تَلَفِ لُعَبه ، ويَمُرُّ من الْپُون نُوف القاتم القَفْر ، ويدور حَوْلَ عَطْفةِ ميدان تيونْفيل ، ويرى على نور مِصباحٍ ، وعلى نُصْبٍ ، شيخاً نحيفاً يَلُوح نُحُولُه تَعَباً وجُوعاً مع بقاء شىءٍ من الجلال عليه ، وكان هذا الشائبُ لابساً رِدِنْغُوتاً طويلاً مُخَرَّقاً ، وكان حاسراً ، وكان فى الستين من سِنِيه كما يظهر ، ويَدنُو برُوتُو من هذا البائس ويَعْرِف أنه الأبُ لُونْغمارُ الذى أنقذه من الشَّنْق تحت المِصباح منذ ستة أشهر حينما كانا مصفوفَيْن ضِمْن ذَنَبٍ من الناس أمام فُرْن شارع القدس ، ويرى برُوتُو عَرْضَ خدمةٍ أوَّلية على هذا الراهب فيَدْنُو منه ويُفَهِّمه أنه العَشَّارُ الذى كان بجانبه بين الرَّعَاع يوم العَوز الأكبر ، ويسأل عن إمكان مساعدته .

برُوتو : « يَظْهر أنكَ تَعِب يا أبى ، فخُذْ قَطْرةً من الشراب المُقَوِّى » .

ويُخْرِج برُوتُو قِنِّينَةَ عَرَقٍ صغيرةً كانت ، مع ديوان لُوكْريس ، فى جيب رِدِنْغُوته البُرغوثىِّ اللون .

---

(١) الرتج : جمع الرتاج ، وهو الباب العظيم .

« اشْرَبْ ، وسأساعدك على بُلُوغ منزلك » .

ويَرُدُّ الأبُ لُونْغمارُ القِنِّينةَ بيده ويحاول النهوضَ، غير أنه يسقط على النُّصْب ويقول بصوتٍ ضعيف ، ولـكن مع رَصانة :

« سيدى ، إننى أقيم بشارع بِكْبُسْ منذ ثلاثة أشهر ، وقد أُخبرتُ بأنه أُتِىَ فى الساعة الخامسة مساءً للقبض علىَّ فى منزلى ، فلم أدخل بيتى ، وليس لدىّ ملجأ ، وأَتَسَكع فى الشوارع ، وأرانى تَعِباً قليلاً » .

برُوتُو : « والآن شَرِّفنى ، يا أبى ، باقتسام منزلى » .

البَرْنابىّ : « أنت تَسْمَع منى أننى متَّهم » .

برُوتُو : « وأنا أيضاً ، ولُعَبى أيضاً ، وهـذا شَرٌّ من كلِّ شىء ، وأنت تراها ، تحت هذا النسيج الرقيق ، مُعَرَّضة للرَّذاذ الذى يُقْرِسـنا ، واعْلَم ، يا أبى ، أننى أصنع هذه اللُّعَبَ لأعيش بعد أن كنتُ عَشَّاراً » .

ويَضَعُ الأبُ لُونْغمار يَدَه فى يد المالىِّ السابق التى مُدَّت إليه ويَقْبَل الضِّيافة التى عُرِضت عليه ، ويُقَدِّم برُوتُو إليه ، فى بيته ، خُبزاً وجُبناً ، وخمـراً كان قد وضعها فى مِزْرابه لتَبْرُد ، وذلك لأنه كان مُتْرَفاً .

ويقول الأبُ لُونْغمار بعد أن سَـكَن جوعُه :

« سيدى ، صار لزاماً علىَّ أن أُنبئكَ بالأحوال التى أدت إلى فِرارى وإلى ارتمائى مُحْتَضَراً فوق النُّصْب الذى وجدتَنى عليه ، فلما طُردتُ من دَيْرى صِرْتُ أعيش من الراتب الزهيد الذى عَيَّنه المجلس لى ، وقد كنت أُعطِى دروساً فى اللاتينية والرياضيات وأكْتُب رسائلَ حَوْل اضطهاد كنيسة فرنسة ، حتى إننى أَلَّفْتُ كتاباً على شىءٍ من الاتساع لأُثبت أن يمينَ القُسُوسِ الدستوريةَ مخالفـةٌ للنظام

الـكَهَنُوتىّ ، ويُسْفِر استفحال الثـورة عن نَزْع جميع تلاميذى منى ، ولا أستطيع قبض راتبى مالم أُبْرِزْ شهادةً ناطقةً بوطنيتى وَفْقَ القانون ، وهذه الشهادة هى التى ذهبتُ إلى البلدية لأُطالِب بها معتقداً استحقاقى لهـا ، وبما أننى عُضْوٌ فى المنَظَّمَـة التى أسَّسها الرسولُ مار بُولُس بنفسه ففاز بلقب الوطنىِّ الرومانىِّ فإننى حَـدَّثتُ نفسى بأن أتبَّعَ سُنَّتَه فأسـيرَ سَيْرَ الفرنسىِّ الصالح المحترِم لجميع القوانين البشرية التى لا تناقض القوانين الإلٰهية ، وأُقدِّم عريضتى إلى الجَزَّار والموظَّف البلدىّ المُفوَّضِ إليه أن يَتسلَّم العرائضَ التى هى من هذا النوع ، ويسألنى عن مهنتى ، فأقول له إننى كنت قِسِّيساً ، ويسألنى عن زواجى فأقول له إننى غير متزوج ، ويقـول لى : أَسَفاً ، ثم يسألنى ، بعد أسئلةٍ كثيرة ، عن إثباتى وطنيتى فى ١٠ من أغسطس و٢ من سـبتمبر و ٣١ من مايو ، ويُضِيف إلى هـذا قولَه : « لا يُعْطَى شهادةً غيرُ مَنْ يُثْبتون وطنيتَهم بسلوكهم فى ثلاث أحوال » ، ولم أَسْطِع أن أقدِّم إليه جواباً مُقْنعاً ، ومع ذلك فقد كتب اسمى وعُنوانى واعداً إياى بالبحث عن أمرى سريعاً ، ولم يُخْلِفْ وعده ، فـكانت نتيجةُ بَحْثِه أن جاء منزلى فى أثناء غِيابى اثنان من وكلاء لَجْنة السلامة العامة فى بِكْـيُس ، مع قوةٍ مسلَّحة ، لِسَوْقى إلى السجن ، ولا أَعْرِف الجُرْمَ الذى أُتَّهَمُ به ، ولـكن قُلْ إنه يجب أن يُرْثَى لمسيو كُولِن الذى بلغ من كُدْرة النَّفْس ما يلوم معه قِسِّيساً لم يُظْهِر وطنيته فى ١٠ من أغسطس و٢ من سبتمبر و ٣١ من مايو ، فرجلٌ هذا هو تفكيره يستحقُّ الشفقة » .

بُروتُو : « وأنا أيضـاً ليست عندى شهادة ، وكلانا مشتَبَهٌ فيه ، غير أنك تعِبٌ ، فَنَمْ ياأبى ، وسنَعْمَل على سلامتك غداً » .

ويُعْطِى ضيفَه مطْرَحَ [1] الصوف الـكبير ، ويحتفظ لنفسه بالفِراش التِّبْنِىِّ

(١) المطرح : ما يفرش وينام عليه .

الذى يَطْلُبُه الراهبُ مصرًّا ضارعاً فيُجابُ إلى طلبه خَشْيةَ أن ينام على البَلاط .

ويُتِمُّ بُروتُو هذا الترتيبَ ويُطْفِئُ الشَّمْعةَ عن اقتصادٍ وحَذَر .

الراهب : « سيدى ، أشكرُ لك ما تَصْنَع لى ، ولـكن واحَرَباه ! إنه من قِلَّة النتـائج لك ماأُنْبِئُـكَ به ، قد يُثِيبُك الربُّ على ذلك ! ويكون لك بذلك من النتائج مالا حَدَّ له ، بَيْـدَ أن الرَّبَّ لايَعْبَـأ بما لايُصْنَع لتبجيله وبما لا يَنْشأ إلا عن فضيلةٍ طبيعية صِرْفة ، ولذا أبتَهِلُ إليك ، ياسيدى ، أن تَفْعَـل فى سبيله ما رأيتَ أن تفعلَه لى » .

بُروتُو : « لا تَشْغَلْ بالك بالأمر مطلقاً يا أبى ، ولا تَشْـكُرْ لى أبداً ، فما صنعتُ الآن وما تبالِـغ فى الثناء عليه لم أفعلْه حُبًّا لك ، فعلى ما أنت عليه من أُنْسٍ ، يا أبى ، لم أبْلُغ من العِلْمِ بك ما أُحِبُّكَ معه ، وكذلك لم أصنعْ ماصنعتُ عن حُبٍّ للإنسانية ، فلستُ من البساطة كدُونْ جُوَانْ [1] ما أعتقدُ معه ، كما يَعْتقدُ ، أن للإنسـانية حقوقَهَا ، ويُحْزِنني وجودُ هذا الوهم فى نفسٍ حُرَّةٍ مثل نفسِه ، وإنما أفعل ذلك عن تلك الأَثَرِية [2] التى تُوحى إلى الإنسان بجميع أعمال الـكرم وبَذْلِ النفس ، وذلك بجعله يَعْرِف نفسـه فى جميع البائسين ، وذلك بإعداده للرِّثَاءِ لمصيره فى سوء مصير الآخرين ، وذلك بحَثِّهِ على مساعدة إنسانٍ يشابهه طبيعةً ونصيباً فيعتقد أنه يساعد نفسه بمساعدته ، وذلك ما أصنعه عن بِطَالَةٍ أيضاً ، وذلك لأن الحيـاة هى من هذه التفاهة مايجب أن يُتَلَهَّى بها بأىِّ ثمنٍ كان ، وذلك لأن الـكَرَم لَهْوٌ تافهٌ يُقْبَـل عليه لعدم وجود ماهو ألذُّ منه ، والـكرمُ هو ما أصنعه عن عُجْبٍ وعن

---

(١) دون جوان : رجل أسطورى من أصل اسبانى .

(٢) Egoïsme

ميلٍ إلى التَّفَوُّق عليك ، والـكرمُ هو ما أصنعه عن مِنْهَاجٍ وعن إثباتٍ لِمَا يَقْدِر الزِّنْدِيقُ عليـــه » .

الأب لُونغمَار : « لا تَغُرَّنْك نفسُك أيها السيد ، فلقد حَبَانى الله بفَضْلٍ لم يُنْعم عليك بمثله حتى الآن ، وإن كنتُ دونَك قيمةً وأقلَّ منك مزايا طبيعيةً ، ودَعْنِي أُفَضِّلْ عليك مع ذلك ، وذلك لأنك لاتستطيع أن تُحِبَّنى مادمتَ لاتَعْرِفنى، ولأننى أُحِبُّك أكثرَ من نفسى من غير أن أَعْرِفك ، فالرَّبُّ يأمرنى بهذا » .

قال الأب لُونغمَارُ ذلك ، ثم رَكَع على البَلاط ، وتَلاَ دعاءه ، ثم اســتلقى على الفِراش التِّبْنِيِّ ونام نوماً هادئاً .

١٣

يَتَبَوَّأ إيڤارِسْتُ مَقْعَده من المحكمة للمرة الثانية ، ويتحادثُ قبل الجلسة ، هو وزملاؤه المحلَّفون ، حَوْل ما انتهى من الأخبار صباحاً ، ومن هذه الأخبار ما هو كاذب ، ومنها ما هو مشكوكٌ فيه ، ولكنَّ ما أمْكن حفظه منها هائلٌ ، وهو أن جيوش الحلفاء المسيطرةَ على الطُّرُق تَزْحَف وأن ڤانْدِه منصورةٌ ، وأن لِيوُنَ عاصية ، وأن الإنكليز الذين تَسَلَّموا طُولُونَ أنزلوا إليها أربعةَ عشرَ ألفَ رجل .

وتلك الأمور هى أهليةٌ عند هؤلاء القضاةِ بمقدار ما هى حوادثُ تُهِمُّ العالمَ بأَسْره ، وهم ، إذ اعتقدوا هلاكهم بهلاك الوطن ، جعلوا من السلامة العامة شغلَهم الخاصّ ، وصارت مصلحة الأمة التى خُلِطَت بمصلحتهم تُمْلِى عليهم مشاعرَهم وأهواءهم وسلوكَهم .

وبينما كان غَمْلان جالساً على مقعده إذ تناول من أمين لَجْنة الدفاع ، تُرُوبِرْ ، كتاباً بتوليته وكالةَ البارود ومِلْحِه :

« فتَبْحَثُ فى جميع سراديب القسم لاستخراج الموادِّ الضرورية فى صنع البارود ، ومن الممكن أن يكون العدوُّ أمام باريسَ غداً ، ويجب أن يُجَهِّزنا ترابُ الوطن بالصاعقة التى نُلْقيها على ظالميه ، وإنى أرسل إليك ، رَبْطاً ، تعليماتِ مجلس العهد حَوْلَ تدبير ملح البارود ، مع السلام والإخاء » .

ويؤتَى بالمتهَم فى أثناء ذلك ، والمتهَمُ هو من آخر القُوَّاد الذين أرسلهم مجلس

العهد إلى المحكمة ، وأكثرهم غُموضاً ، ويرتعش غَمْلانُ عند ما رآه ، فقد اعتقد أنه يُبْصِر ثانيةً ذلك العسكرىَّ الذى كان ، وهو بين الجُمهور منـذ ثلاثة أسابيع ، قد رآه يحاكَم ويُرْسَل إلى المِقْصَلة ، والرجلُ هو ذلك العنيدُ المحدودُ العقل ، والرجلُ يُجيب مداوراً جافياً فيُفْسِد أحسَن أجوبته بذلك ، وما يُبْدِيه من مماحكاتٍ ومناقراتٍ ومن تُهَم يُحَمِّلُها مرؤوسيه كان يَصْرِف الأذهان عن دفاعٍ مَجيدٍ يقوم به عن شرفه وحياته ، وفى هذه القضية كان كلُّ شىء مبهماً مجادَلاً فيه ، فلا يُعْرَف شىء عن وَضع الجيوش وعـدد الجنود ومقدار المِيرة والذخيرة وعن الأوامر الصادرة والأوامر الواردة وحركاتِ الـكتائب ، ولا يَعْرِف أحدٌ شيئاً عن هذه التصرُّفات المختلطة العقيمة البعيدة من الهَدَف والتى أدت إلى إحدى الهزائم ، ومن الغريب أن كلَّ واحد ممن هنـالك ، ومنهم المحامى والمتهَم والمتهِمُ والقضاةُ والمحلَّفون ، كان لا يعترف للآخر ، ولا لنفسه ، بأنه لا يُدْرِك تلك الأمور ، وكان القضاة يتلهَّوْن برسم الخطط وبالبحث عن السَّوْق والتعبئة ، وكان المتهَمُ يُفْسِد أوضاعه الطبيعية باللَّجاج .

وكان يجادَل بلا هَدَف ، وكان غَمْلان ، فى أثناء هـذا الجِدال ، يَتَمَثَّلُ صناديقَ الذخائر المُوحِلة والمدافعَ المقلوبةَ على العَجَل فى طُرُق الشمال القاسية ، ويتصوَّر عدمَ انتظام الفِرَق المقهورة فى جميع الدُّروب على حين يَبْرُز العـدوُّ فى كل ناحيـة من المضايق المتروكة ، ويَسَّمَّعُ صُرَاخاً صادراً عن ذلك الجيش المَخُون متهماً القائدَ ، وتُخْتَمُ المرافعات ، وتُمْلَأُ القاعة بالظلِّ ، ويَظْهَرُ وجهُ مارا غيرُ الواضح مثلَ طيفٍ على رأس الرئيس ، وينقسم المحلَّفون الذين دُعُوا إلى النُّطق ، ويَقْضِى غَمْلانُ ، غَصَّانَ صَوْتاً ، ولـكن مع الحَزْم ، بأن المتهَم مجرمٌ بخيانة الجُمهورية ، ويرتفع من الجَمْع هُتَافُ استحسان ملاطِفٌ عِفَّته الفتيَّـة ، ويُتْلَى القرارُ على نور المشاعل ، ويترجرج هذا النُّور الأكدرُ على صُدْغَىِ المحـكوم عليه الأجوفَيْن حيث يُرى

العَرَقُ راشحاً ، ويَخْرُج غَمْلانُ ، ويَرَى جُمهوراً مِهْذاراً من النساء الموسومات يَمُوج على الدَّرَج ، ويَسْمَعَ ذِكْراً لاسمه الذى أخذ ملازمو المحكمة يَعْرِفونه ، ويتهافت عليه نِسْوَةٌ من ملازِماتِ المحكمة هازَّاتٍ أَجْمَاعَ كُفُوفهنَّ مطالباتٍ برأس النمسوية .

وكان على غَمْلانَ أن يقْضِيَ غداً فى أمر امرأةٍ فقيرة ، فى مصير حاملةِ الخبز الأيِّم مِيرْيُون ، وكانت هـذه الأرملةُ تَمُرُّ من الشوارع وهى تَدْفَع عَرَبةً صغيرة ، وهى تَحْمِـل لُوَيْحاً خشبيًّا أبيضَ لتفْرِضَ عليه بمُدْيتها حُزُوزاً دالَّةً على حساب الخبز الذى تسلِّمه ، وكانت تَـكْسِب ثمانيـةَ أَفْلُسٍ مُيَاوَمةً ، وظَهَر نائبُ المتهِم العامُّ عنيفاً تجاه هـذه التَّعِسة التى يَظْهَرُ أنها هَتَفت بـ « عاش الملك ! » عِدَّةَ مرات ، وأنها أبدتْ مقاصدَ لا ثَوْرِية فى البيوت التى تَحْمِـل إليها خبزاً كلَّ يوم ، وأنها شريكةٌ فى مؤامرةٍ تَهْدِف إلى تهريب زوجة كابِى ، ويسألها القاضى فتعترف بجميع الوقائع التى عُزِيت إليها ، وهى تُظْهِر ، عن بساطةٍ وتعصُّب ، من المشاعر المَلَكية ما يَبْلُغ درجةَ الحماسة وتُهْلِك به نفسَها .

وتَنْصُر المحكمةُ الثورية مبدأ المساواة بظهورها شديدةً على الحَمَّالات والخادمات كشدَّتها على الأريستوقراطيين والماليين ، وما كان غَمْلان ليتصوَّر غيرَ هـذا فى العهـد الشَّعبىِّ ، وقد رأى أن من ازدراء الشعب والعِتِىِّ عليـه أن يُسْتثنى من النَّـكال ، وأن هـذا يَعْنِى عَدَّ الشعب غيرَ أهلٍ للعِقاب ، فقَصْرُ المِقْصَلة على الأريستوقراطيين ضَرْبٌ من الامتيازات الجائرة كما لاح له ، ويُخَيَّل إلى غَمْلان أن الجزاء أمر دينىٌّ ينطوى على فضيلة ومزايا خاصة ، ويَرَى غَمْلانُ وجوبَ معاقبة المجرمين وأن من هضم حقوقهم عدمَ مجـازاتهم ، ويَنْطِق بتجريم الأيِّم مِيرْيُون وبأنها أهلٌ للقتل آسفاً على كون المتعصبين الذين أوجبوا هلاكها ليسوا هنالك حيث يقاسمونها نصيبَها مع أنهم أشدُّ ذَنْباً منها .

ويَذْهَب إِيقَارِسْتُ فى كلِّ مساءٍ تقريباً إلى اليعاقبة الذين كانوا يجتمعون فى كنيسة الدُّومينيكان القديمةِ المعروفةِ عند العوامِّ باليعاقبة ، شارع أُونورِه ، والكنيسةُ قائمة على ساحةٍ تشتمل على شجرة الحرية ، على حَوَرَةٍ تُسفِرُ أوراقُها المُهْتزَّةُ عن حَفيفٍ دائم ، والكنيسةُ قائمةٌ على طرازٍ هزيل ثقيل مُعْتَمِرٍ بآجُرٍّ فتَعرِض جَمَلُوناً [١] عارياً ذا كُوَّةٍ مدوَّرة وبابٍ مُقَنْطرٍ يَعْلُوه العَلَمُ ذو الألوان الوطنية والمُتَوَّجُ بقَلَنْسُوَة الحرية ، وقد استولى اليعاقبة على مسكن الرهبان المُشَتَّتين وانتحلوا اسمَهم كما صنع الكُرْدِليون [٢] والفُويَّان [٣] ، وكان غَمْلانُ قبل زمنٍ مواظباً على جَلَسَات الكُرْدِليين لِمَا لم يَجِدْ عند اليعاقبة ما عند الدَّنْتُونيين من خِفَاف وسُتَرٍ وصُرَاخ ، وكان يَسُود نادى رُوبسْپيرَ حَذَرُ الإدارة واتِّزانُ البُرْجوَازية ، فأخذ غَمْلانُ بعد قتل صديق الشعب يلْزَمُ دروسَ مَكْسِيمِيلْيان [٤] الذى كانت أفكارُه تسيطر على اليعاقبة ، ومن ثَمَّ كانت تسيطر على جميع فرنسة بواسطة ألفِ فَرْعٍ لهم ، وكان غَمْلان ، فى أثناء تلاوة المَحْضَر ، يُسَرِّح طَرْفَه على الجُدُر الجُرْدَ الكامدة الناظرة إلى اجتماعات قضاةِ التفتيش الغُيُرِ فى جرائم خيانة الوطن بعد أن كانت تُؤْوِى الأبناءَ الروحيين لقاضى التفتيش الأعظم فى البِدَع .

وهنالك كانت تقوم أعظمُ سلطاتِ الدولة بلا أُبَّهة وتمارَس بالقول ، ومن هنالك كان يسيطَر على العاصمة والإمبراطورية وتُمْلَى مراسيمُ مجلس العهد ، وكان

---

(١) Pignon

(٢) نسبة الى الكردليه ، وهو الراهب من منظمة الفرنسيسكان وقد أنشأ دنتون ومارا وكميل ديمولان فى دير الكردليين ناديا لم يلبث أن اتحد بنادى اليعاقبة .

(٣) الفويان : رهبان منظمة سيتو ، وقد قام فى ديرهم نادى الدستوريين ، وكان من أعضائه ميرابو ولافايت وأندره شينيه وبرودوم .

(٤) مكسيميليان : هو زعيم الثورة الفرنسية المشهور روبسبير ، وقد مر ذكره .

هؤلاء الصانعون لنظام الأمور الجديد والبـالغون من احترام القانون ما ظَلُّوا معه ملَـكيين سنة ١٧٩١ وما أرادوا معه أن يَبْقَوْا كذلك ، عن شِدة تَمَسُّكٍ بالدُّستور ، حتى بعد الرجوع من ڤارين [١] ، والمُحِبُّون للنظام القائم حتى بعد مذابح شانْ دُومارْس ، وغيرُ الثائرين ضدَّ الثورة ، والبعيدون من الحركات الشعبية ، يتَعهدون فى نفوسهم القاتمة القوية حُبًّا للوطن أدى إلى ولادة أربعةَ عشرَ جيشاً ونَصْبِ المِقْصَلة ، وكان غَمْلاَنُ يَقْضى العجبَ من انتباههم وحَذَرهم ومعتَقَدهم وحبِّهم للنظام وقدرتِهم على السيطرة وحكمتهم البالغة .

وكان لا يُسْمَعَ من الجمهُور الذى يتـألف البَهْوُ منه غيرُ اهتزازٍ إجماعىٍّ منتَظم كاهتزاز ورق شجرة الحرية القـائمة عند العَتَبة .

وفى ذلك اليوم الموافق ١١ من ڤَنْدِمْيِر [٢] صَعِد فى المِنبر متئـداً شابٌّ مائلُ الجبين ثاقبُ النظر أَذْلفُ [٣] الأنف حادُّ الذَّقَن مَجْدُورُ الوجه فاترُ الملامح ، وكان هذا الرجل يَلْبَس ثوباً أزرقَ مُظهِراً للقوام ... وكانت له تلك الهيئةُ الموزونة ، تلك المِشْيةُ الرصينةُ ، التى كان بعضهم يقول بسببها هازئاً إنه يشابه معلِّمَ رقصٍ والتى كان آخرون يحَيُّونه بسببها باسم «أُورْفِه [٤] الفرنسىّ » ، ويُلْـقِى رُوبِسْپِير ، بصوتٍ جَلِىّ ، خُطبةً بليغةً ضدَّ أعـداء الجمهورية ، ويَطْعَن ببراهينَ لاهوتية هائلة فى بريسُّو وشُرَكائه ، وتَدُوم خُطبتُه طويلاً وتَفيضُ انسجاماً ، ويحَلِّق فى سمـاء الفلسفة فيقَذِف المؤتمِرين الذين يَزْحَفون على الأرض بالصواعق .

---

(١) ڤارين : من مدن فرنسة الصغيرة قبض فيها على لويس السادس عشر حين فراره الى خارج فرنسة .

(٢) فندمير : الشهر الأول من السنة الجمهورية فى فرنسة .

(٣) الأذلف الأنف : ذو الأنف الشاخص طرفه مع صغر أرنبته .

(٤) أورفه : شاعر وموسيقى تراكى كما جاء فى أساطير اليونان .

ويَسْمَع إيڤارِسْتُ ويَفْهَم ، وإيڤارِسْتُ كان ، حتى ذلك الحين ، يَتَّهم الجيرونْدَ بالاستعداد لإعادة المَلَكية أو لنصرِ حزب أُورْليان ، وبالتفكير فى خَرَاب المدينـة الباسلة التى أقذت فرنسة والتى ستنقذ العـالَم ذاتَ يوم ، والآن قد اطَّلع على أرفع الحقائق وأزكاها بصوت الحكيم ، فتتمثل له لاهوتية ثورية ، وتَسْمُو نفسُه فوق العوارض الجافيـة معصومةً من خطأ الحواسِّ داخلةً مِنطقةَ اليقين المُطْلَق ، والأمورُ مختلطةٌ كثيرةُ الالتباس بنفسها ، وهى من التعقيد ما يُحارُ فيها ، ويُبَسِّطُها رُوبِسْـپِير له ، ويَعْرِضُ الخيرَ والشرَّ له فى صِيَغٍ بسيطة واضحـة ، يَعْرِضهما فى الـكلمتين : الاتحادية وعدم التجزئة ، فيقول إن السـلامةَ فى الوَحدة وعدمُ التجزئة وإن الهلاك فى الاتحادية ، ويُحِسُّ غَمْلانُ من السرور العميق ما يُحِسُّه المؤمن الذى يَعْرِف الـكلمةَ المنقِـذَةَ والـكلمةَ المهلـكة ، وستَعْرِف المحكمةُ الثورية ، بعد اليوم ، ما هو الجُرْمُ المطلَق وما هوَ الجُرم الشَّفهىُّ ، وبما أن إيڤارِسْتَ ذو نَفْس دينية فإنه يَتَلَقَّى هـذا الوحىَ بحماسة قاتمة ، ويَهِيم فؤاده ويُشْرَح صدرُه لِمَا نال من رَمْزٍ يَمِيزُ به الجُرْمَ من البراءةِ فيما بعـد ، فأنتِ ، يا كنُوزَ الإيمان ، تَقُومِين مقامَ كلِّ شىء !

ويُغِيره الحـكيمُ مَـكْسِيمِيلْيان ، أيضاً ، حَوْل المقاصد الخبيثة عنـدَ مَنْ يريدون مساواةُ الأموال وتقسيمَ الأرَضين ، وإلغـاءَ الغِنَى والفقر وإقامةَ حالٍ متوسـطة سعيدة بين الجميع ، وكان يُغْوَى بحِكَمِهم فيَسْتحسنُ فى بدءِ الأمر نِيَّاتِهم الملائمةَ لمبادئ الجُمهوريِّ الحقيقىِّ ، غير أن رُوبِسْـپِير فَضَحَ له دسائسَهم فى خُطَبـه لدى اليعاقبة ، وأظهر له فيها أن هؤلاء الناسَ ، الذين يَبْدُون خالصى المقاصد ظاهراً ، يَهْدِفون إلى هدم الجُمهورية ، وأنهم لا يُرْهِبُون الأغنياءَ إلَّا لإغراء الأعداء الأقوياء الحاقدين بالسلطة الشرعيـة ، والواقعُ أن مبـدأ التملك إذا ما هُدِّد تَحَوَّلَ الأهلون

الكثيرو الارتباط فى ما يَمْلِكون ضِدَّ الجمهورية من فَوْرهم ، ويعْدِل إرهابُ أصحاب المصالح سلوكَ سبيل الائتمار ، ومن يتظاهرْ بإعداد سعادة الناس وسيادة العدل فيقترحْ تساوى الناس فى المال واشتراكهم فى الرزق و يُوجِّهْ جهودَ الوطنيين نحو هذا يكن خائناً فاجراً أشدَّ من الاتحاديين خطراً .

ولكن جرائمَ الملاحدة وقبائحَهم هى أعظمُ ما كَشَفتْ له حكمةُ رُوبِسْپِير ، ولم يُنْكِرْ غَمْلانُ وجودَ اللهِ قطُّ ، و إنما كان يعتقد وجودَ الإله مع إنكار الوحى ، و إنما كان يعتقد وجودَ عنايةٍ رَبَّانية حافظةٍ للناس ، و إنما كان يعترف بأنه لايُدْرِك الكائنَ الأعلى إلا مُبْهَماً ، وذلك مع كثيرِ تمَسُّكٍ بحرية الضمير ، وذلك مع قولٍ بأن من الممكن أن يسير ذوو الصلاح من الناس على غِرار لامِتْرى[١] و بُولانْجه[٢] والبارون أُلْباك ولالَنْد[٣] و إلْقِسْيُوس والوطنىِّ دُوپُوِى[٤] فيُنْكروا وجودَ الله على أن يقيموا أدباً طبيعيًّا و يَجِدُوا فى أنفسهم منابعَ العدل وقواعدَ حياةٍ فاضلة ، حتى إنه كان يَشْعُر بعطفٍ على الملاحدة حينما يراهم عُرْضةً للإهانة والاضطهاد ، وقد فتَحَ مَكْسِيمِيلْيانُ ذهنَه وأزال الغِشاوَةَ عن بصره ، وذلك أن هذا الرجل العظيمَ كان قد أبان له بنزاهةِ بلاغتِه حقيقةَ الإلحاد وطبيعتَه ومقاصدَه ونتائجَه ، وذلك أنه أثبت له كونَ هذا المذهب الذى وُلِدَ فى رِداه الأريستوقراطيين ومَخادعهم هو أكبرُ بِدْعةٍ غادرة تَصَوَّرها أعداء الشعب لإفساد أخلاقه واستعباده ، وأن من الإجرام أن يُنْزَع من أفئدة البائسين ما لهم به سُلْوانٌ من وجود قدرةٍ

---

(١) لامترى : طبيب وفيلسوف دهرى فرنسى (١٧٠٩ – ١٧٥١) .
(٢) بولانجه : أديب وفيلسوف فرنسى (١٧٢٢ – ١٧٥٩) .
(٣) لالند : فلكى فرنسى (١٧٣٢ – ١٨٠٧) .
(٤) دوبوى : من رجال العهد الفرنسى (١٧٤٢ – ١٨٠٩) .

صَمَدانية تُثيبُ وتُجازى ، وأن من الحِنْثِ[١] أن يُسْلَمُوا ، بلا دليلٍ ولا رادع ، إلى أهواءٍ يَنْحَطُّ بها الإنسان ويَغْدُو بها عبداً ساقطاً ، وأن أبيقورية[٢] إِلْقِسْيُوسَ المَلَكيةَ تؤدى إلى الخَلاعة والجَوْر وجميعِ الآثام ، وهو لم يَنْفَكَّ يَكْرَه الملاحدة منذ تَلَقَّى هذه الدروسَ من وطنيٍّ كبير كذلك ، ولا سيما مَنْ كان من الملاحدة طَيِّبَ النفس مسروراً كالشيخ بروتو .

وكان على إِيقَارِستَ فى الأيام التالية أن يَقْضِيَ بلا انقطاعٍ فى أمر مَدِينٍ سابق بإتلاف حُبُوبٍ تجويعاً للشعب ، وفى أمر ثلاثة مهاجرين عادوا لإيقاد نار الفتنة فى فرنسة ، وفى أمر فتاتيْن من الپاليه إيغالِيتِهِ ، وفى أمر أربعةَ عشرَ مُؤْتَمِرٍ بريتانىٍّ ، وفى أمر نساءٍ وشِيبٍ وشبَّانٍ وسادةٍ وخُدَّام ، والجُرمُ مُوَكَّدٌ ، والقانون صريحٌ ، وكان يوجد بين المذنبين امرأةٌ فى العشرين من عمرها ، فاتنةٌ طافحةٌ شباباً مع شَبَح دُنُوٍّ أجلها ، وكانت تُمْسِك شعرَها الذهبىَّ عُقْدَةٌ زرقاء ، وكان ينمُّ على جِيدها الأبيض الأغيدِ مِنْدِيلُها الخفيف .

ويَقْضِى إيقَارِسْت بالموت دائماً ، وإذا عَدَوْتَ بستانيًّا شائباً وجدتَ جميعَ المتهَمين قد أُرسلوا إلى المِقْصَلة .

ويَحْصِد غَمْلانُ وفرعُه فى الأسبوع التالى خمسةً وأربعين رجلًا ، وثمانىَ عشرةَ امرأة .

ولم يُفَرِّق قضاة المحكمة الثورية بين الرجال والنساء مستلهمين مبدأً قديماً قدَم العَدالة نفسِها ، وإذا كان الرئيسُ مُونْتَانِه قد تأثَّرَ بشجاعة شارْلُوت كُورْداىَ[٣]

---

(١) الحنث : الذنب والاثم .
(٢) نسبة الى الفيلسوف اليونانى أبيقور (٣٤١ ــ ٢٧٠ ق . م .) .
(٣) شارلوت كورداى : قاتلة مارا (١٧٦٨ ــ ١٧٩٣) .

وجمالها فحاول إنقاذَها بتحريف أصول المرافعات وخَسِر كرسيَّه لذلك فإن النساءَ كُنَّ، فى الغالب، يُسْأَلْنَ بلا محاباة على حَسَب القاعدة المشتركة بين جميع المحاكم، وكان المحلَّفون يخافونهن فيحذرون حِيَلَهنَّ وتصنُّعَهنَّ ووسائلَ إغوائهنَّ، وهنَّ إذ يُساوينَ الرجالَ شجاعةً فإنهن يَحْمِلْن المحكمة بهذا على معاملتهنَّ كالرجال، وكان مُعْظَم من يَقْضُون فى أمرهن قليلى الافتتان أو ذوى افتتان عابر فلا يؤثِّرْن فيهم مطلقاً، فيُجَرِّمون هؤلاء النسوةَ أو يُبرِّئونهنَّ وَفْقَ ضميرهم وأوهامهم وحَمِيَّتهم وحبِّهم الفاتر أو الحارِّ للجُمهورية، ويَظْهَرْن كلُّهنَّ مُتَبَرِّجاتٍ تقريباً، ويَظْهَرْن كلُّهنَّ أنيقاتٍ بمقدار ما يَسْمَح به حالُهن التَّعِس، ولكن كان يوجَدُ بينهن قليلُ فَتَياتٍ وقليلُ جميلاتٍ ما أَذْواهنَّ السِّجْنُ وأذبلتهنَّ الهموم، وكان نورُ القاعة يدلُّ على وَصَبهن وغَمِّهن وجُفُونهن الذاوية وعلى بُثُورٍ فى وجوههن وعلى تقلص شفاههن وميلها إلى البياض، ومع ذلك فإن المَقْعَدَ المُقَدَّر قد استَقْبل غيرَ مرةٍ فتاةً جميلةً بشُحُوبها على حين يَغْشَى بصَرها ظِلٌّ مأتميٌّ شبيهٌ بأستار الشهوة، وسواءٌ على المحلَّف ألان أم اشتد عند هذا المنظر، وسواء عليه أبحث من خلال سِرّ حواسّه المعطَّلة فى أسرار هذه المخلوقة التى يتمثلها حيةً وميتةً معاً أم لم يفعل، يتلذَّذُ، حين يُثِير أخيلةَ الشهوة والإدماء، بتسليم هذا البَدَن المُبْتَغَى إلى الجلَّاد، وهذا ما قد يُستحبُّ السكوتُ عنه، ولكن مع تعذُّر إنكاره عند مَنْ يَعْرِف الرجال، وكان المتفننُ الفاتر العالِم إيڤارِسْت غَمْلانُ لا يَعْرِف من الجمال غيرَ ما هو على النمط القديم، وكان الجمال يوحى إليه باحترامٍ أكثر من أن يوحىَ إليه بارتباكٍ، وكان ذوقُه الكلاسىُّ (١) من التشدُّد ما يَنْدُر معه أن يَجِدَ امرأةً تلائمه، وقد كان من عدم

---

(١) Classique

التأثُّر بفتُون الوجه الجميل كعدم تأثُّره بألوان فراغُونار وأشكال بُوشِه ، وهو لم يَعْرِف الرَّغبةَ فى غير الغرام العميق .

وكان ، كمُعْظَم زملائه فى المحكمة ، يعتقد أن النساءَ أشدُّ خَطَراً من الرجال ، وكان يُبْغِض أميراتِ العهد الماضى ، هؤلاء اللاتى يَتَمثَّلهنَّ فى رُؤَاه المملوءةِ كُرْهاً وهنَّ يُعْدِدْنَ ، مع إليزَابِتْ والنمسوية[1] ، قنابلَ لقتل محبى الوطن ، وكان يُبْغِضُ ، أيضاً ، جميعَ صواحب الماليين والفلاسفةِ والأدباءِ الجميلات لتمتعهنَّ بملاذَّ حسيَّةٍ وروحية وعَيْشِهنَّ فى زمنٍ حَلَتْ فيه الحياة ، وكان يُبْغِضُهن من غير أن يعترف بحقده ، فإذا ما عُرِضَتْ عليه إحداهن للقضاء فى أمرها جَرَّمها عن غِلٍّ ظاناً أنه يَفْعَل هذا عن عَدْلٍ فى سبيل السلامة العامة ، وما كان يتصف به من صَلاحٍ وتَقْوَى وحكمةٍ فاترة وإخلاصٍ للدولة ، ثم من فضائلَ ، كان يَدْفَع رؤوساً مؤثِّرةً فى الفؤاد إلى المِقْصَلة .

ولكن ما هى هذه الأعجوبة وماذا تَعْنِى ؟ كان يجب ، منذ قليل ، أن يُبْحَث عن المجرمين وأن يحاوَل اكتشافُهم فى عُزْلتهم وأن يُحْملوا على الاعتراف ، والآن عاد الأمر لا يكون اقتناصاً بجَمْعٍ من الكلاب السَّلُوقية ولا تعقيباً لصيْدٍ خائف ، فانظُرْ إلى الضحايا كيف تُقَدِّم نفسَها من كلّ ناحية ، انظُرْ إلى الأشراف والعَذَارَى والبغايا كيف يواثبون المحكمة وينتزعون من القضاة ما يحدونه بطيئاً من الحكم عليهم ويطالبون بالموت كَحَقٍّ لا يصبرون على تأخير تمتعهم به ، وكأنه لم يُكْتفَ بالجَمْع الذى أسفرتْ غَيْرَةُ الوُشَاةِ عن امتلاء السجون به والذى لم يألُ المتهمُ العامُّ

---

(١) اليزابت ، أخت لويس السادس عشر (١٧٦٤ – ١٧٩٤) والنمسوية هى ملكة فرنسة مارى أنطوانت .

وأتباعُه جُهداً فى تقديمه إلى المحكمة ، بل صار من الواجب أن يَتَقَدَّمَ إلى الموت من لم يُرِدْ أن ينتظر ، وما أكثر مَنْ كانوا من الإسراع والزَّهْو ما يَحْسُدون معه القضاةَ والجلَّادين على قتلهم إياهم فيَضْرِبُون أنفسَهم بأيديهم ! وتَعْدِل صَوْلةُ الموت صَوْلةَ الذبح ، ومن ذلك أن كان فى الكُونْسيرْجيرى[1] عسكرىٌّ شاب عُصْلُبىٌّ وسيمٌ محبوبٌ وَدَّع فى السجن عشيقةً باهرةَ الجمال فقالت له : « عِشْ من أجْلى ! » ، ولم يُرِدْ أن يعيش من أجْلها ولا من أجْل الحبِّ ولا من أجْل المَجْد ، ويُشْعِل غَلْيُونه[2] بورقة اتهامه ، وينتحل المذهبَ الملَكىّ طَلَباً للموت مع أنه جُمهورىٌّ يَتَنَسَّمُ الحرية من جميع المَسَامِّ ، وتحاول المحكمة أن تُبَرِّئه فيكون المتهمُ هو الأقوى ويُضْطَرُّ القضاة والمحلَّفون إلى الإذعان .

وكان إيڤارِسْتُ هَلوعاً ذا وَسْواس بطبيعته فتمتلىء نفسُه أوهاماً وهموماً من دروس اليعاقبة ومنظرِ الحياة ، وفى الليل يسيرُ من شوارعَ سيئةِ الإنارة ليزور إلُودْية فيظنُّ عند كلّ منفذٍ أنه يرى فى القَبْو مطبعةً للورق النقدىّ الزائف ، وأنه يُبْصِرُ فى أفصى دكان الخبَّاز أو العطَّار الخالية مخازنَ مملوءةً مُؤَناً محتكَرة ، ويخيَّلُ إليه أنه يَسْمَع ، من خلال زُجَاج الطُّهَاة اللامع ، أحاديثَ تُجَّار الأوراق النقدية الذين يُعِدُّون خرابَ البلد بصبِّهم خَمْرَ بُون[3] أو شابْلِى[4] من القَنَانى ، ويُبْصر فى الطُّرُق الضيقة العَفِنَة بناتِ الهوى مستعداتٍ لدَوْس رموز الوطن مع تصفيق الشبيبة الظريفة ، ويَرَى فى كلِّ مكانٍ مؤتمرين وخائنين ، ويقول فى نفسه : « أيتها

---

(١) الكونسيرجيرى : سجن بباريس أيام الثورة الفرنسية .

(٢) Pipe

(٣) بون : من مدن فرنسة .

(٤) شابلى : من مدن فرنسة الصغيرة .

الجمهورية ! ليس لكِ غيرُ معينٍ واحدٍ تجاه أعدائك الكثيرين فى السِّرِّ والعَلانيَة، ويا أيتها المِقْصَلة المقدسة ، أنقذى الوطن ! ... »

وتنتظره إلُودْية فى غرفتها الصغيرة الزرقاء القائمة فوق « مصوِّر الغرام » ، وتَضَع مِرَشَّتَها الخضراء على طَرَف نافذتها ، وعند إناء قَرَنْفُلها ، إشارةً إلى إمكان دخوله ، والآن يُثيرُ كُرْهَها ، والآن يَلُوح لها غُولاً ، وهى تخافه وتَعْبُده ، ويَقْضيان الليلةَ مُتَراصَّيْن ، ويتبادل العاشقُ السَّفَّاحُ والفتاةُ الشَّهَّاءَةُ قُبلاتٍ حارَّةً صامتيْن .

١٤

يَنهَض الأبُ لُونغمارُ وقتَ الفَجْر ، ويَكْنُسُ الغرفةَ ، ويغادرها لإقامة القُدَّاس فى بِيعةٍ[1] بشارع أَنفِر يقوم بخِدْمتها قَسٌّ غيرُ مُقْسِم ، وكان يوجد فى باريس أُلُوف البِيَع حيث يَجْمَع رجالُ الدين المتمرّدون زُمَراً صغيرةً من المؤمنين خِفْيَةً ، ومع أن شُرْطةَ الأقسام كانت حَذِرَةً كثيرةَ الرّيب فإنها تُغْمِضُ عيونَها عن هذه الزِّراب الخفيَّة خَوْفاً من الرَّعايا الهائجة وعن بقيةِ احترامٍ للأمور المقدسة ، ويُوَدّع الراهب البَرْنابىُّ مُضَيِّفَه الذى عانَى كثيراً فى حمله على العَوْدِ للغَداء فنال هذا المُضَيِّفُ موافقتَه على ألاّ يكونَ الطعامُ وافراً ولا ناعماً .

ويَظَلُّ بروتو وحدَه ، ويُوقِدُ مِطْبخه الترابىَّ الصغيرَ مُهَيِّئاً غَداءَ الراهب والأبيقورىّ قارئاً ديوانَ لُوكْرِيس مفكراً فى أحوال الناس .

ولم يكن هذا الحكيم ليُدْهَش من وجود أناسٍ بائسين ، من وجود لُعَبٍ لقُوَى الطبيعة ، فى وضعٍ صَعْبٍ مخالف للصواب غالباً ، ولكن هذا الحكيم كان من الخطأ ما يعتقد معه أن الثَّوْريين أخبثُ من الآخرين وأحمقُ واقعاً فى الخيال ، ومع ذلك لم يكن متشائماً ولم يَجِدِ الحياةَ سيئةً ، فقد كان يُعْجَب بكثير من نواحى الطبيعة ، ولا سيما الجهازُ السماوىُّ والحبُّ الجُثْمانىُّ ، ويَرْضى بمتاعب الحياة منتظراً اليومَ الذى لا يَعْرِف فيه رَهَباً ولا رَغَباً .

---

(١) البيعة : المعبد للنصارى .

ويُلوّن بعض اللُّعَب بدقة ، ويُصوّر زِرْلِينَ المشابهةَ لتِشِنان ، وكانت هذه الفتاةُ تَرُوقُه ، وكان يُثْنِي بأبيقُوريته على انتظام الذرّات التى تتألّف منها .

وتَشْغَلُه هذه الأمور حتى رجوع الراهب البَرْنابيّ .

ويقول له عند ما فتَح الباب : « إن طعامنا خالٍ من الدَّسَم واللحم كما قلتُ لك يا أبى ، فليس لدينا غيرُ كَسْتناء ، ويُعوِزها التّابِل » .

الأبُ لُونْغارُ صارخاً باسماً : « الكستناء ! لا طعامَ ألذّ منها ، وقد كان أبى ، ياسيدى ، شريفاً فقيراً من لِيمُوزان ، وكان لا يَمْلِك غيرَ بيتٍ خَرِبٍ على تلٍّ وغيرَ بستانٍ مُهْمَل وغَيْضَةٍ صغيرةٍ من شجر الكستناء ، وكان يغتذى مع زوجه وأولاده الاثنى عشرَ من الكستناء الخضراء ، وكُنّا جميعاً أقوياءَ أشداءَ ، وكنتُ أحدثَهم سِنّاً وأكثرَهم طَيْشاً فيقول أبى مازحاً بضرورة إرسالى إلى أمريكةَ لأكون قُرْصاناً ... آه ، ما أزكى رائحةَ هذه الكستناء ياسيدى ! هى تُذَكِّرنى بالمائدة المتوّجة بالأولاد حيث كانت أمى تبتسم » .

ويَتِمُّ تناولُ الطعام ، ويَذْهَب بُروتُو إلى بائع اللُّعَب بشارع نُوفْ دى پِتِى شانْ ، جُولِى ، ويشترى جُولى ما رَفَضه كايُّو من اللُّعَب ، وهو لم يُوصِ بصُنْع اثنتى عشرةَ دَسْتَةً[1] فقط ، كما كان يَفْعل كايُّو ، بل أَوْصَى بصنع أربعٍ وعشرين دَسْتةً كفاتحةٍ .

ويَبلُغ بُروتُو شارعَ الرُّوَيَّال السابقَ فيرى فى ميدان الثورة التمّاعَ مُثَلَّثٍ من الفولاذ بين خشبتيْن منصوبتيْن ، يرى المِقْصَلَة ، وكان يزدحم حَوْلَ المِقْصَلة جُمْهورٌ كبيرٌ مسرورٌ من مجيءِ الاطلاع منتظرٌ ورود العربات المملوءة بالمحكوم

---

(١) Douzaine

عليهم بالإعدام ، وكان يشاهَد هنالك نساءٌ حاملاتٌ سلالاً مُفَرْطَحاتٍ على البطن وهنَّ يَصْرُخْن : حَلْوَى نانْتِرْ ، وكان يشاهَد باعةٌ للأَشْربة وهم يُحرِّكون أجراسَهم الصغيرة ، وكانت تشاهَد عند قاعدة تمثال الحرية عَجُوزٌ وهى تُدِيرُ صُندوقَ عجائبَ ضمن مُسَيْرِحٍ تَعْلُوه دَوْدَاةٌ (١) يَرْتَجِحُ قِرْدٌ عليها ، وكانت تشاهَد تحت المِقْصَلَة كلابٌ وهى تَلْعَقُ دَمَ مَنْ أُعدِم عَشِيَّةً ، ويَقْفُلُ بُروتُو راجعاً نحو شارع أُنُورِه .

ويَدْخُل منزلَه حيث يقرأ البَرْنابيُّ كتابَ فَرْضه ، ويَمْسَح المائدة بعناية ويَضَعُ عليها عُلْبَـةَ ألوانه كما يَضع أدواتِ مِهْنته وموادَّها .

بُروتُو : « إذا كنتَ ، يا أبى ، لا تَجِدُ هـذا العملَ غيرَ لائقٍ بالصِّبْغة المُقدَّسة التى أنت عليها فإننى أرجو منك أن تساعدنى على صنع هذه اللُّعَب ، فلقد أوصانى مسيو جُولِى بصُنْع عددٍ كثيرٍ منها حتى لهـذا الصباح ، وإنك لتُقدِّمَ إلىَّ خِدَماً كبيرة إذا ما قَطَّعْتَ رؤوساً وذُرْعَاناً وسيقاناً وجُذُوعاً وَفْقَ هذا النموذج ، ولا تَرَى ما هو أحسنُ منها ، فهى على طريقة ڤاتُّو و بُوشِه » .

لُونْغمار : « حقاً أننى أرى ڤاتُّو و بُوشِه خَلِيقيْن بابتداع هذه اللُّعَب يا سيدى ، وكان يَجْدُر بسمعتهما أن يَصْنَعا لُعَباً بريئةً كهذه ، أكونُ سعيداً إذا ما ساعدتكَ ، ولـكننى أخشى ألَّا أكون من المهارة ما يؤهِّلُنى لهذا العمل » .

وكان الأبُ لُونْغمارُ على حَقٍّ فى ارتيابه من مهارته ، وكان لابُدَّ من عِدَّة تجاربَ غيرِ مُوَفَّقَةٍ حتى يُعْتَرَف بأنه لم يُخْلَق ليُقَطِّع بطرفِ المُدْيَة دوائرَ جميلةً فى كَرْتُونٍ رقيق ، ولـكنه ، عنـد ما سأل بُروتُو أن يُعْطيَه خَيْطَ قِنَّبٍ ومِتَـكّاً (٢) ، نَمَّ على

---

(١) الدوداة : الأرجوحة .

(٢) المتك : آلة تدخل بها التكة ، أى رباط السراويل .

أهليةٍ كبيرة فى منح هذه المُصوَّرات ، التى لم يَسْطِع أن يصنعها ، حركةً وتعليمِها الرقص ، وقد كان ظريفاً حينما جرَّبها فيما بعـد جاعلاً كلَّ واحد منها يَرْقُص بضعَ خُطواتٍ ، فلما استجابت له ارتَسَمت ابتسامةٌ على شفتيه الجافيتين .

وبينا كان يَجُرُّ خيطَ إحدى اللُّعَب ذاتَ مرةٍ قال :

« يُذَكِّرنى هـذا الوجهُ المُنكَّر بقصة غريبـة أيها السيد ، وقد حدثتْ سنة ١٧٤٦ ، وذلك أننى جاوزتُ امتحانَ المُبتدئ فى التَّرَهُّب بإشراف الأب ماجِيتُو الذى كان شيخاً عميقَ المعرفة صارمَ الطِّباع ، ومما تذكرونه على ما يحتمل أن كانت اللُّعَبُ المتحركة ، المُعَدَّةُ لتسلية الأولاد فى ذلك الزمن ، تجتـذب النساء والشُّبَّانَ والشِّيبَ اجتذاباً خارقاً للعادة ، فتثير سُعْراً فى باريس ، وكانت دكاكينُ البـاعة التى هى على المُوضَة تَطْفَح بتلك اللُّعَب ، وكان يوجد منها لدى الخواصِّ ، ولم يكن من النـادر أن ترى فى المُتَنَزَّهات والشوارع رجلاً رصيناً يُرْقِصُ لُعبتَه ، ولم يكن ليصونَ الأبَ ماجِيتُو سنَّه وسجيتُه ومهنتُه من العَدْوى ، فبينما كان يُبْصِر كلَّ واحدٍ جادًّا فى إيثاب إنسانٍ صغير مصنوعٍ من الكَرْتُون كانت أصابعه تَشْعُر بعـدم صَبْرٍ لم يَلْبَث أن صار يُزْعِجه كثيراً ، ومما حَدَث ، ذات يوم ، أن اضْطُرَّ إلى زيارة المحامى لدى البرلمـان ، مسيو شُوڤِلْ ، من أَجْلِ أمرٍ مهمٍّ ذى علاقةٍ بالمُنظَّمَة كلِّها ، فوقَع نظره على لُعبةٍ مُعلَّقةٍ فى المَدْخنـة فشَعَر برغبةٍ شديدة فى جَرِّ الخيط ، ولم يَفُزْ بذلك إلَّا بعـد جُهْد ، وقد لازمه هـذا الميلُ الطائش ولم يترك له شيئاً من الراحة ، وقد استحوذ عليه فى دراساته وتأملاته وصلواته ، وفى الكنيسة والمِنبَر ومَجْمَعِ الرهبـان وكُرْسىّ الاعتراف ، وقد اعتراه كَدَرٌ فظيع بعـد نَهْكٍ بضعة أيام فعَرَض الأمرَ على رئيس المُنظَّمة الذى كان من حسن الحَظِّ وجودُه بباريسَ فى ذلك الحين ، وقد

كان هـذا الرئيس دُكْتُوراً مِفْضالاً وواحداً من أساقفة كنيسة مِيلان ، فأَوْصَى الأبَ ماجِيتُو بقضاء رغبةٍ بريئة فى مَبْدئِها مزعجةٍ بنتائجها مشيراً إلى أن الإفراط فيها يؤدِّى إلى أعظم ارتباك فى النفس التى أَضْنَتها ، ويَرْجِعُ الأب ماجِيتُو إلى مسيو شُوقِلْ كما رأى الرئيسُ ، أو كما أمره به ، فيستقبله مسيو شُوقِلْ فى غرفتـه كما فى المرة الأولى ، ويَجِدُ اللُّعبة مُعَلَّقةً بالمدْخنة فيَدْنُو منها مُتَلَهِّفاً ويسأل مسيو شُوقِل أن يأذن له فى جَرِّ الخيط ، ويوافقه المحامى على ذلك مسروراً ويُسِرُّ إليـه بأنه كان يُرْقِص اللُّعبـة أحياناً وهو يُعِدُّ مرافعاته ، وأنه نَظَّمَ أمسِ دفاعَه الأخير عن امرأةٍ متهَمةٍ بقتل زوجها زُوراً على حركاتِ اللُّعبة أيضاً ويُمْسِك الأبُ ماجِيتُو الخيطَ بيده مرتعشاً ، ويُبْصِر اللُّعْبةَ وهى تتحرك كَمَسْوسٍ يُعَزِّم (١) ، وهكذا يَقْضِى وَطَرَ هَوَسِه ويُنْقِذ من ضِيقه » .

برُوتُو : « لا أَجد فى قصتكم ما يُدْهشنى يا أبى ، ومثلُ هذا الضِّيق مما يشاهَد ، ولـكن ليست الوجوه الـكَرْتونية هى التى تُسَبِّبُه دائماً » .

ومع أن الأب لُونْغمار راهبٌ فإنه لا يُحـدِّث عن الدِّين أبداً ، وبرُوتُو هو الذى يتكلَّم عنه دائماً ، وبما أنه يَشْعُرُ بعطف تجاه الراهب البَرْنابِىِّ فإنه كان يتلهَّى مداعباً بإثارته وتكدير صفوه باعتراضاتٍ على مبادئَ كثيرةٍ من الدين النصرانىّ .

وإن برُوتُو ليصنع زِرْلِيناتٍ (٢) وسكارَامُوشاتٍ (٣) معاً ذاتَ مرة إذ يقول له :

« إننى ، حينما أنظر إلى الحوادث التى وَضَعَتْنا حيث نحن حائراً فى معرفة أىُّ الأحزاب أَجَنُّ من الأخرى فى ميدان الجنون العامِّ ، لا أَجِدُنى بعيـداً من الاعتقاد بأن حزبَ البَلاط هو ذلك الحزبُ » .

---

(١) عزم : قرأ العزائم .
(٢و٣) من أسماء اللعب .

الراهب : « يصبح جميعُ الناس ، يا سـيدى ، مجانينَ مثلَ نَبُوخَذْ نَصَّر (١) إذا ما تركهم الرَّبُّ ، ولـكنك لا تَجِدُ فى أيامنا رجـلاً غارقاً فى الجهل والضلال كرئيس الدَّيْر مسيو فُوشِه (٢) ، ولم يكن مَنْ هو أشدُّ شؤماً على المملـكة مثله ، لا بُدَّ ومن أن يكون الرَّبُّ غاضباً على فرنسة لإرساله إليها رئيسَ الدير فوشه ! » .

— يلوح لى أننا رأينا جُنَاةً آخرين غيرَ فوشِه المسكين .

— لقد أَبْدَى رئيسُ الدير غريغوار (٣) مساوئَ مثلَ ذلك .

— ماذا تقول ، يا أبي ، عن بريسُّو ودَنْتون ومارا ومئةٍ غيرِهم ؟

— هؤلاء عَلْمانيون (٤) أيهـا السيد ، ولا يُمْـكِنُ العَلْمانيين أن يَحْمِلُوا مثل تَبِعات رجال الدين ، وهم لا يأتون الشَّرَّ من عَلٍ ، وليست جرائمُهم عامةً .

— وربّكم ، يا أبى ، ماذا تقول عن سلوكه فى الثورة الحاضرة ؟

— لا أدرك مقاصدَك أيها السيد .

— قال أبيقور : « إما أن يُريدَ الربُّ منعَ الشَّرِّ ولا يَقْدِر على منعه وإما أن يَقدِر على منعه ولا يريد منعَه ، وإما أَلاَّ يريدَ منعه ولا يقدر على منعه ، فإذا كان يريد منع الشرّ ولا يقدر عليه فهو عاجز ، وإذا كان يقدر على منعه ولا يريده فهو فاسد ، وإذا كان لا يقدر على منعه ولا يريده فهو عاجز فاسد ، وإذا كان يريد منعه ويقدرعليه فلماذا لا يَفْعَل ذلك يا أبى ؟ » .

---

(١) نبوخذ نصر : من ملوك كلدة (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) .

(٢) فوشه : كان راهبا فرنسيا ، ثم صار من حزب المونتانيار ورجال العهد ثم صار وزيرا للشرطة فى عهد نابليون .

(٣) غريغوار : راهب فرنسى ، وعضو فى مجلس العهد ، وعضو فى مجلس الشيوخ الامبراطورى (١٧٥٠ ـ ١٨٣١) .

(٤) Laïques

ويُلْقى بروتُو نظرةَ رضاءٍ على مُحاوِره .

ويقول الراهب : « لاشىء أدعى إلى الشقاء من المشاكل التى تُثيرها يا سيدى، ويظهر لى ، عندما أدرس أسباب الكفر ، أننى أرى نَمْلاً يعترض بعضَ الكلأ كالسَّدِّ الذى يعترض سَيْلا نازلاً من الجبال ، واصْبِرْ على عدم مجادلتك ، فلدىَّ من الأسباب الكثيرة والمواهب القليلة ما يَحْمِلنى على ذلك ، ومع ذلك فإنك تَجِد تَجريحَك عند رئيس الدير غِنِهْ [١] وعند عشرين آخرين ، وإنما أقول لك إن ما رَوَيْتَه عن أَبِيقور هو جَهالةٌ ، وذلك لأنه يُقْضَى فيه كما لو كان الرَّبُّ رجلاً له ما للرجال من أخلاق ، والآن تَرَى ، يا سيدى ، أن الكَفَرة ، من سِلْس [٢] حتى بايْل [٣] وڤولتير ، قد خَدَعوا البُلْهَ بمثل تلك المزاعم » .

بروتُو : « انظُرْ ، يا أبى ، إلى أين يَسُوقك اعتقادُك ، فإنك ، مع عدم اكتفائك بأن تجد كلَّ الحقيقة فى علم لاهُوتك ، لا تريد أن تَجِدَ أيةَ حقيقة فى كتب كثير من العباقرة الذين يفكِّرون غيرَ ما تُفكِّرون » .

لونغمار : « أنت مُخْطِئٌ تماماً يا سيدى ، فأنا أعتقد أن كلَّ شىء لا يكون باطلاً فى رأى الإنسان ، ويَشْغَل الملاحدة أدنى درجات المعرفة ، وفى هذه الدَّرَج أيضاً تُبْصِر بصيصاً من النُّور وأثراً من الحقيقة ، ومع أن الإنسان يَغْرَق فى الظُّلُمات حينئذٍ فإن له جبيناً وضع الله فيه الذكاء ، وهذا هو نصيبُ لُوسِيفِرَ [٤] » .

---

(١) غنه : راهب كاتب وجدلى فرنسى (١٧١٧ – ١٨٠٣) .

(٢) سلس : فيلسوف أفلاطونى ظهر فى القرن الثانى من الميلاد ، واشتهر بحملته على النصرانية .

(٣) بايل : كاتب فرنسى (١٦٤٧ – ١٧٩٦) .

(٤) لوسيفر : رأس الأبالسة .

بروتُو : « والآن لا أكون سخيًّا كثيراً يا سيدى ، فترانى أقول لك إننى لا أجد ذرةً من الذوق السليم فى كتب علماء اللاهوت » .

ومهما يكن من أمرٍ فإنه يَحْتَرِز من مهاجمة الدين مُقَدِّراً أنه ضرورىٌّ للأمم ، وإنما الذى يَتَمَنَّاه هو أن يكون وُعَّاظُه من الفلاسفة لا من رجال الجَدَل ، وهو يأسف على أن اليعاقبة أرادوا أن يستبدلوا به ديناً أكثرَ فُتُوَّةً وأشدَّ خُبْثاً ، أن يستبدلوا به دين الحرية والمساواة والجُمهورية والوطن ، وهو يلاحِظ أن الأديان فى عُنفوان شبابها هى أعظمُ ما تكون صَوْلَةً وقسوةً ، وأنها تَهْدأ إذا ما شابَتْ ، ويتمنَّى ، أيضاً ، أن يحافظ على الكَثْلَكة التى افترست كثيراً من الضحايا فى إبَّان سطوتها والتى غَدَت ضعيفةَ الشَّهْوةِ تحت أثقال السنين فصارت تَقْنَع بطَهْوِ أربعةٍ ، أو خمسةٍ ، من الملاحدة فى كلِّ مئة سنة .

ويضيف إلى ذلك قولَه : « ومع ذلك فقد كنتُ على وِئامٍ دائم مع أَكَلَة الرَّبِّ . . . وكان لدىَّ واعظٌ فى الجَزِيرات ، وكان يُقَام القُدَّاس هنالك فى كلِّ يوم أحد ، وكان جميعُ ضيوفى يَحْضُرونه ، وكان الفلاسفةُ أكثرَ مَنْ يَجْمع حواسَّه ، وكان فَتَيَاتُ الأُبرَا أكثرَ مَنْ يُبْدى هِمَّةً فى العبادة ، وحينئذٍ أكون سعيداً وأَعُدُّ أصدقاءَ كثيرين » .

الأب لُونغمارُ صائحاً : « أصدقاء ! أصدقاء ! . . . آه ! أتعتقد ، يا سيدى ، أن جميع هؤلاء الفلاسفة والأخدان كانوا يُحِبُّونك ، وهم الذين بلغوا من إفساد نَفْسِك ما يَصْعُب معه على الرَّبِّ أن يَعْرِف فيها أحدَ الهياكل التى شادها فى سبيل مَجْده ؟ » .

وتدوم إقامةُ الأب لُونغمارَ ثمانيةَ أيام عند العَشَّارِ من غير أن يُكَدَّر ، وكان

يَتَّبع قواعدَ مُنَظَّمته جُهْدَ المستطيع هنالك ، فإذا ما نَهَضَ من فِراشه التِّبْنِيِّ رَكع على البَلاَط لتلاوة أدعية الليل ، ومع أنه لم يكن لدى الاثنين ما يأكلانه من الطعام غيرُ حُتَامةٍ (١) فإنه كان يحافظ على الصَّوْم والزُّهدِ ، ويلاحظ الفيلسوفُ هذا الزهدَ أَسِفاً باسماً فيسأله ذات يوم :

« أَوَ تعتقد ، حقًّا ، أن الرَّبَّ يَتَلَذَّذ حين يراك تعانى أَلَمَ الجوع والبَرْد على هذا الوجه ؟ » .

الراهب : « لقد ضَرَبَ الرَّبُّ لنا مَثَلَ الأَلَم بنفسه » .

وفى اليوم التاسع من إقامة البَرْنابيّ بمنزل الفيلسوف يَخْرُج هذا وقتَ الشَّفَق حاملاً لُعَبَه المتحركةَ إلى جُولِى الذى هو بائعٌ للُّعَب بشارع نُوف دِى پِتِى شانْ ، ويَعُود سعيداً لبيعه إياها ، فلما كان فى ميدان كارُوزِلَ السابقِ التجأت إليه ، وهى تَعْدُو مع عَرَجٍ ، فتاةٌ لابسةٌ مِعْطفاً حريريًّا أزرقَ مُبَطَّناً بفَرْوٍ ومزخرفاً بجلد القاقُم (٢) ، وأمسكته معانقةً على طريقة الضارعات فى كلّ زمن .

وتَرْتجف ، وتُسْمَع دقَّاتُ قلبها السريعة ، ويُدْهَشُ هاوى دار التمثيل الشيخُ برُوتُو من خشوع الآنسة روكُور (٣) ، فيَجِدُ أنها لم تَرَه من غير عَرَض .

وتتكلم لاهثةً مُخَافِتةً خوفاً من أن يَسْمَعها المارُّون :

« خذنى معك ، ارحمنى بإخفائى أيهـــا الوطنىّ ! ... هم فى غرفتى بشارع

---

(١) الحتامة : ما بقى على المائدة من الطعام .

(٢) القـاقم : حيوان على شكل ابن عرس وأكبر منـه لونه أحمر قاتم فى الصيف وأبيض فى الشتاء .

(٣) اشارة الى الممثلة روكور التى نالت نجاحا كبـيرا فى المسرح الفرنسى (١٧٥٦ ـ ١٨١٥) ، وان كانت الفتاة التى لاقته غير هذه الممثلة .

فرُومَانْتُو ، فبينا كانوا يَصْعَدون التجأتُ إلى جارتى فلُورَا وقَفَزْتُ من النافذة إلى الشارع مُزْدراةً . . هم جاءوا ليُلْقُونى فى السجن وليقتلونى ... وقـد قتلوا ڤيرْجِينِى فى الأسبوع الماضى » .

و يُدْرِك برُوتُو جَيِّداً أنها تتكلَّم عن مندوبى لَجْنة القسم الثورية أو عن وكلاء لَجْنة السـلامة العامة ، وكانت الهيئة الثورية تشتمل على مُدَّعٍ عامٍّ فاضل ، على الوطنىّ شُومِتْ الذى يَتعقب بناتِ الهَوَى كأنهن أشدُّ الناس عداوةً للجُمهورية ، وكان يريد إصلاح الطبائع والأخلاق ، والحقُّ أن أوانس الپالِه إيغَالِيته كُنَّ قليلاتِ الوطنية ، وكُنَّ يأْسَفْن على الحال السابقة ، وكُنَّ لا يكْتُمْن هذا فى كلّ حين ، وكان قد قُصِلَ كثيرٌ منهن كمؤتمِراتٍ فأثار مصيرُهن كثيراً من خصومة أمثالهن .

و يسألُ الوطنىُّ برُوتُو الضارعةَ عن سبب إصدار الأمر بالقبض عليها .

وتُقْسِم له أنها لا تَعْرِف عن ذلك شيئاً ، وأنها لم تَفْعَلْ ما تُـلَام عليه .

برُوتُو : « إذَن ، لستِ متهمةً مطلقاً ، وليس هنالك ما تخافينه ؛ فاذهبى ونامى ، ودَعِينِى وشأنى » .

وهنـالك تعترف :

« لقد نَزَعتُ إشارتى وهَتَفتُ : عاش الملك ! » .

و يُوغِل معها فى الأرصفة الخالية ، وتَلْصَق بذراعه ، وتقول له :

« ولم يكن ذلك عن حُبٍّ للملك ، واعْلَمْ أننى لم أرَه ، ومن المحتمل أنه رجلٌ لا يختلف عن الآخرين ، ولـكن هؤلاء أناسٌ من الأشرار ، فهم يَظْـهَرون قُساةً تِجاه الفَتَياتِ البائسات ، وهم يُزْعجوننى ، و يؤذوننى و يُوسعوننى سَبًّا ، وهم يريدون أن يَحولُوا دون مزاولتى حِرْفتى ، وليس عندى غيرُها ، واعْلَمْ أنه لو كان لدىَّ سواها

ما اتخذتُها ... وماذا يريدون ؟ إنهم يشتدُّون ضِدَّ الصَّغَراء والضُّعفاء وباعةِ اللبن والفَحَّامة والسَّقَّائين والغَسَّالات ، وهم لا يَرْضَوْن إلاَّ بعد أن يُثيرُوا العالَم المسكين عليهم » .

وينظر إليها ، ويَجِد فيها ملامحَ الولد ، ويَذْهب عنها الخوفُ ، وتبتسم خفيفةً عَرْجاءَ ، ويسألها عن اسمها ، وتقول له إنها تُدْعَى أتِنايس وإنها فى السادسةَ عشرةَ من سِنِيها .

ويَعْرِض بروتُو أن يأخذها إلى حيث تريد ، وكانت لا تَعْرِف أحداً بباريس ، ولـكن كانت لها خالةٌ خادمة فى باليزُو[1] يُمْـكِن أن تَحْفَـظها عندها .

ويَعْزِم بروتُو ، ويقول :

« تعالَىْ يا بُنَيَّتى ! » .

ويَمْضِى بها مستندةً إلى ذراعه .

ويَدْخُل منزلَه فيجِدُ الأبَ لُونغمار وهو يَتْلُو كتابَ فَرْضه .

ويُرِيه أتِنايس التى يُمْسكها بيده ويقول :

« هذه فتاةٌ من شارع فُرُومَانتُو هَتَفتْ : « عاش الملك ! » ، وتَسْعَى شُرْطةُ الثورة فى أثرها ، وليس لديها ملجأ ، أَوَ تَسْمَحُ بأن تقضىَ الليلةَ هنا ؟ » .

ويُطْبِق الأبُ لُونغمارُ كتاب فرضه ويقول :

« الذى أَفْهَمُ من سؤالك ، يا سيدى ، هو أن يؤذن لهذه الفتاة ، الصادر ضِدَّها أمرٌ بالقبض مثلى ، أن تَقْضِيَ الليلةَ فى الغرفة التى أنْزِل بها حفظاً لسلامتها الدنيوية » .

---

(١) باليزو : مدينة صغيرة فى فرنسة .

— أَجَلْ ، يا أبى .

— وبأىِّ حَقٍّ أعارِض ذلك ؟ وهل أنا مُوقنٌ بأننى خيرٌ منها حتى أرى وجودَها إهانةً لى ؟

ويَجْلِسُ على كرسىٍّ قديمٍ خَرِبٍ لليلته مُوَكِّدًا أنه ينام عليه جَيِّداً ، وتنام أَتِنَايِيسُ على المطْرَح ، ويستلقى بِرُوتُو على الفراش التِّبْنِىِّ ويُطْفِئُ الشمعة .

وتُؤْذِن أبراجُ الكنائس بانقضاء الساعاتِ وأنصافِ الساعاتِ من غير أن ينَام ، ويَسْمَعُ أنفاسَ الراهبِ والفتاةِ المختلطةَ ، ويَطْلُعُ القمرُ ، الذى هو صورةُ مَعَاشقِه القديمة وشاهدُها ، ويُلْقِى شُعَاعاً فِضِّيًّا على البيت فيُنِيرُ شَعْرَ أَتِنَايِيسَ الأَشْقرَ وهُدْبَيْها الذهبيين وأنفَها اللطيف وفمَها الأحمرَ المستديرَ ، وأَتِنَايِيسُ نائمةٌ مضمومةُ الأصابع .

ويقول فى نفسه : « هذه هى عدوٌّ هائلةٌ للجُمهورية ! » .

ولَمَّا أفاقت أَتِنَايِيس كان الوقت نهاراً ، وكان الراهبُ ذاهباً ، وكان بُرُوتُو يقرأ ديوانَ لُوكْرِيسَ تحت الكُوَّة ويَعْلَمَ من دروس الأدب اللاتينىِّ الرفيع كيف يَعِيش بلا مَخَاوفَ ولا رغائبَ ، ومع ذلك كانت الحَسَرَاتُ والهمومُ تَلْتَهمه .

ولَمَّا فتحَت أَتِنَايِيسُ عينيها أبصرت فوق رأسها خَشَبَ السقف حائرةً ، ثم ادَّكَرَتْ فتبسَّمتْ لمُنْقِذها فمدَّت إليه يديها الصغيرتين الجميلتين القَذِرتين ملاطفةً إياه .

وتستوى على مَضْجَعِها وتشير بإصبعها إلى الكرسىّ الممزَّق الذى قضى الراهبُ ليلته عليه وتقول :

« هل ذهب ؟ ... قُلْ ، أو لم يذهب للوشاية بى ؟ » .

— كَلَّا يا بُنَيَّتِي ، يتعذَّرُ وجودُ رجلٍ صالحٍ كهذا الشائب المجنون .

وتسأل أَتِنَايِيسُ عن جنون هذا الرجل الساذج ، فلما ذَكَرَ بروتُو لها الدينَ لامته باتِّزانٍ على قوله هـذا مُصَرِّحةً بأن مَنْ لا دينَ له شرٌّ من الدَّوابِّ ، وبأنها ستدعو الله أن يَغْفِر ذنوبَه وأن يَشْمَله برحمته .

ثم تَرَى كتاباً فى يد بروتُو فتظن أنه كتابُ قُدَّاس وتقول :

« وتَرَى أنك تَتْلُو أدعيتَك أيضاً ! وسيكافئك الله على ما صنعتَ لى » .

وبما أن بروتُو قال لها إن هـذا الكتابَ ليس كتابَ قُدَّاسٍ وإنه كُتِب قبل إدخال مبدأ إقامة القُدَّاس إلى العـالَم ظَنَّتْ أنه تفسيرٌ للأحلام وسألت عن تفسير حُلُمٍ عجيب كانت قد رأته ، وكانت أُمِّيَّـةً ، ولم تَسْمَع عن وجود كتابٍ غيرِ هذين الكتابين .

ويُجِيبُها بروتُو عن ذلك بأن هـذا الكتاب يُفَسِّر حُلُمَ الحيـاة ، وتَجِدُ الفتاةُ الحسناء هـذا الجواب صعباً وتَعْدِل عن فَهْمِه وتغْمِس طرفَ أَنفها فى بَرْنِيَّـةٍ[1] كانت تقوم مقام الطُّسُوت[2] الفِضِّية عند بُروتُو ، ثم أصلحت شَـعْرها أمام مرآةٍ مُضَيِّفها مُدَقِّقَةً رصينةً ، وكانت تضع ذراعيْها البيضاوين المعطوفتين على رأسها فتَنْطق ببضع كلماتٍ حيناً بعد حين .

— لقد كنتَ غنيًّا .

— ما الذى جعلكِ تعتقدين هذا ؟

— لا أَعْرِفُ ، ولـكننى مُوقِنَةٌ بأنك كنتَ غنيًّا و بأنك أريستوقراطىٌّ .

---

(١) البرنية : اناء من خزف .

(٢) الطسوت : جمع الطست ، وهو اناء من نحاس وغيره لغسل الأيدى وغيرها .

وتُخْرِج من جيبها نَصَمَةً[١] فِضيَّة صغيرة للعذراء محفوظةً ضمن بِيعَةٍ من عاج كما تُخْرِج قطعةَ سُكَّرٍ وخيطاً ومِقصًّا وقَدَّاحةً وقِرَابَيْن أو ثلاثةَ أَقْرِبة ، وتأخذ من ذلك ما كان ضرورياً لها وتبدأ برَتْقِ تَنُّورَتِها[٢] التى مُزِّقَتْ من عِدَّة جهات .

برُوتُو : « ضَعِى هـذه السِّمَةَ المثلثةَ الألوان على مِنْديل رأسكِ من أَجْل سلامتكِ يا بُنَيَّتِي » .

أَتِنَايِيس : « أَصْنَعُ هذا طائعةً عن حُبٍّ لك ، لا عن حبٍّ للأمة » .

ولما أتمتْ لُبْسها وازَّيَّنَتْ جُهْدَ الاستطاعة أمسكت تَنُّورَتَها بيدها وحَنَتْ رأسها تحيةً كما تَعَلَّمت فى القرية وقالت لبرُوتُو :

« إننى خادمتك الخاشعة يا سيدى » .

وقد كانت مستعدَّةً لإرضاء المنعِم عليهـا بجميع الوجوه ، ولـكنها وَجَدَت من المناسِب ألَّا يَسْأَلَ شيئاً وألَّا تَعْرِض شيئاً ، وقد لاح لها أن من المَلَاحة أن يفْتَرقا كما تقتضيه الآداب .

ويَضَعُ برُوتُو فى يدها أوراقاً نقـدية لتَرْكَب عَرَبَةَ پاليزُو ، وكان ما أعطى نصفَ ثروتِه ، ومع أنه عُرِف بإسرافه نَحْوَ النساء فإنه لم يَصْنَع قَبْـلَ ذلك مثلَ هذه القسمة المتساوية تِجاه النساء .

وتسأَلُه عن اسمه :

« اسمى مُوريس » .

ويفتح لها بابَ المَخْدَع أَسِفاً .

---

(١) النصمة : الصورة المكرمة .

(٢) La jupe

« وَداعاً يا أَتِنايِيس » .

وتعانقه ، وتقول :

« إذا ما ذكرتَنى ، يا مسيو مُورِيس ، سَمِّنى مَرْت ، فهذا هو اسمى فى المعمودية ، وهو الاسمُ الذى كنتُ أُدعى به فى القرية . . . وَداعاً وشكراً . . . إننى خادمتك يا مسيو موريس » .

١٥

يجب إخلاء السجون الطافحة ، يجب أن يُقْضَى ، ويُقْضَى ، بلا توانٍ ولا هُدْنة ، ويَجْلِس القضاة بين جُدُر مستورة بِجُرَزٍ وقلانسَ حُمْرٍ ، كنُظَرَائهم السابقين بين أزهار الزنبق ، فيحافظون على ما كان لدى أسلافهم الملكيين هؤلاء من رصانة وهدوء هائل ، وكان المتهم العامُّ ومعاونوه الذين نَهَكهم التعب وأضناهم الأَرَق والعَرَق (١) لا يَنْفُضون إصْرَهم إلا بالجُهد الشديد ، وكان سوء صحتهم يجعلهم من الفواجع ، وكان المحلَّفون يختلفون أصلاً وأخلاقاً ، وكان بعضُهم مُثَقَّفاً ، وكان بعضُهم الآخرُ جاهلاً لئيماً أو كريماً رؤوفاً أو جافياً منافقاً أو صادقاً ، بَيْدَ أنه إذا ما حاق بالوطن والجمهورية خَطَرٌ شَعَرُوا كلُّهم ، أو تظاهروا بأنهم يَشْعُرون ، بَهَمٍّ واحد فى إيقاد لَهَبٍ واحد وظَهَروا كلُّهم قُسَاةً عن فضيلةٍ أو خوفٍ فبَدَوْا ذوى كيانٍ واحد ، ورأسٍ قاسٍ هائجٍ واحد ، وروحٍ واحدةٍ لحيوانٍ غامضٍ يُنْتِجُ كثيرَ موتٍ عن قيامٍ بوظائفه الطبيعية ، وسواءٌ عليهم أظهَروا عُطْفاً أم جُفَاةً ، عن سرعة انفعالٍ ، لا يَلْبَثون أن يُبَرِّئوا دامعى العينين متهماً ، كانوا يُجَرِّمونه منذ ساعة مع السُّخْرِية ، إذا ما هُزُّوا بغتةً بحركة مفاجئة ، وهم كلَّما تقدَّموا فى عملهم كَثُرَ اتِّباعُهم لاندفاع أفئدتهم صائلين .

وكانوا يَقْضُون متأثِّرين بما ينشأ عن فَرْط العمل من الحُمَّى والنُّعاس ، وبما

---

(١) Eau de vie .

يَصْدُر عن الخارج من إغراء ، وبما يَصْدُر عن ولىِّ الأمر من أوامر ، وبوعيدِ مَنْ تَزْخَر بهم مقاعدُ الحُضور من السانْ كُولُوت والصاخبات ، وبشهاداتٍ سخيفة مؤيِّدةٍ لشكاوَى سَعِرَةٍ ضِمْنَ جَوٍّ موبوءٍ ضاغط للأدمغـة مُدَنْدِنٍ فى الآذان ضاربٍ للأصداغ مُرْسِلٍ سِتاراً من دَمٍ على العيون ، وتَسْرِى بين الجمهور إشاعاتٌ عن رَشْوِ المحلَّفين بالذَّهب من قِبَل المتهمين ، ويُجيب جميعُ المحلفين عن هـذا باحتجاجاتٍ فظيعة وأحكام قاسية ، ثم لم يكن هؤلاء رجالاً شرًّا من غيرهم ولا خيراً من سواهم ، ثم كانت البراءةُ سعادةً ، لا فضيلةً ، فى الغـالب ، فأىُّ إنسان كان يَرْضَى أن يقوم مقامَهم كان يسير مثلَهم فيأتى هذه الأعمالَ الهائلةَ برُوح منحطة .

وأخيراً تَجْلِس أَنْطوانيت على الكرسىّ المقدَّر بعد انتظارٍ طويلٍ ، تَجْلِس لابسةً ثوباً أسودَ بين وِفاقِ بُغْضٍ احْتُرِمَتْ معه الشكليَّاتُ لِمـَا كان يُعْلَم من نتيجة المحاكمة مُقَدَّماً ، وكانت هـذه المتهمةُ تُجيب عن الأسئلة القاتلة عن غريزةِ البقاء طوراً وعن زَهْوها المعتاد طوراً آخر ، وعن عِزَّتها أُمًّا مَرَّةً ، تجاه فُضُوح أحد متهميها ، والقَذْفُ والبُهْتان هما ما كان يؤذَن فيـه للشهود ، فيَجْمُد الدفاعُ هَوْلاً ، وتقضى المحكمة وَفْقَ القانون راجيةً انتهاءَ جميع هـذا برَمْيِ رأس النمسوية إلى أوربة .

وتمضى ثلاثة أيام على إعـدام مارى أنطوانيت فيُدْعى غَمْلانُ لزيارة الوطنىّ فُورْتُونه تُرُوبِرَ المحْتضَرِ بعيداً ثلاثين خُطوةً من المكتب العسكرىّ الذى أفنى حياته فيه ، فيَجِدُه على سَريرٍ ذى سُيُورٍ فى حجرةٍ لراهب برنابىٍّ مطرود ، وكان رأسُه الأدكنُ قد جَوَّف الوِسادة ، وقد أدارت عينـاه ، اللتان عادتا لا تُبْصِران ، حَدَقتيْهما الكابيتين[1] نحوَ إيقارِسْت ، وتُمْسِك يداه المشلولتان يدَ الصديق وتضغطانها

(١) الكابى : الذى خمدت ناره .

بقوةٍ غيرِ منتظَرة ، وقد قَذَفَ دماً ثلاثَ مراتٍ فى يومين ، ويحاول أن يتـكلم ، ويَضْخُم صوتُه بعد ضَعفٍ ومُخافَتةٍ ويقول :

« ثاتِنيِي [١] ! ثاتِنيِي ! . . . لقد كَسَر جُورْدَانُ [٢] العدوَّ فى مُعَسْكَره . . . فرفع الحِصارَ عن مُوبُوج . . . وقد أَعَدْنا مَرْشيان [٣] ، لا ضَيْرَ . . . لا ضَيْرَ . . . » .

ويَتَبسَّم .

ولم تكن هذه أحلامَ مريض ، بل هى بصرٌ جَلِيٌّ بحقيقةٍ كانت تُنيرُ فى ذلك الحين هذا الدماغَ الذى تغشاه ظُلُماتٌ أبدية ، وقد لاح وقفُ الغَزْو فيما بعد ، فلما أُرْهِب القُوَّاد رأَوْا أنه لا سبيلَ لهم أحسن من الانتصار ، وما بَخِل به التطوع أعطاه تجنيدُ جيشٍ كبير مُدَرَّب ، وتُنْقَذ الجُمهورية إذا ما بُذِل جُهْدٌ آخر .

وتَدِبُّ الحياةُ بعد نصف ساعةِ اضمحلالٍ فى وجه فُورْتُونِه تُرُوبِر الذى جَوَّفه الفناء ، ويَرْفَع يديه .

ويَدُلُّ صديقَه بإصبعه على الأثاث الوحيـد الذى فى غرفته ، على مكتبٍ صغير من جَوْز .

ويقول بصوت ضعيف لاهث صادرٍ عن نَفْسٍ جَلِيَّة :

« أىْ صديقى ! أَتْرُكُ لك ديونى كما صَنَع أُداميدَاس ، وهى ٣٢٠ ليرة ، فتَجِدُ حسابَها . . . فى هذا الدَّفتر الأحمر . . . وَداعاً يا غَمْلان ، لا تَنَمْ واسْهَرْ على الدفاع عن الجُمهورية ، لا ضَيْر » .

---

(١) ثاتينيى : كورة فى شمال فرنسة .

(٢) جوردان : قائد فرنسى (١٧٤٩ ـ ١٧٩٤) .

(٣) مرشيان : مدينة صغيرة فى شمال فرنسة .

ويَحِلُّ ظلامُ الليل بالغرفة ، ويُسْمَع نَفَسٌ حائرٌ من المُحْتَضَر وحَكُّ لِحَافٍ بيديه .

فلما حَلَّ منتصفُ الليل أخذ يَنْطِق بكلمات لا حَدَّ لها :

« الإكثارُ من ملح البارود . . . تسليمُ البنادق . . . والصحةُ ؟ جيدة . . . إنزالُ هذه النواقيس . . . » .

وتَفيضُ روحُه فى الساعة الخامسة صباحاً .

وتُعْرَضُ جُثَّتُه فى صَحْن كنيسة البَرْنابيين السابقة عند أسفل هيكل الوطن ، وعلى سَرِيرِ المُعَسْكر ، وتُسَجَّى بعَلَمٍ مثلث الألوان ، ويُعَصَّب جبينُه بإكليلٍ من بَلُّوط .

ويحيط بسَرِيره المأتميِّ اثنا عشرَ شائباً لابسين حُلَلاً لاتينية وحاملين سُعُوفاً بأيديهم ، واثنتا عشرةَ فتاةً مُجَرِّراتٍ براقعَ طويلةً وحاملاتٍ أزهاراً ، ويكون عند قَدَمى الميت ولدان حاملٌ كلٌّ منهما مَشْعَلاً مُنَكَّساً ، ويَتَبيَّن إيڤارستُ فيهما ابنةَ بَوَّابتهِ جوزفينَ التى تذكِّره رصانتُها الصِّبيانية وجمالُها الساحرُ بملائكة الحبِّ والموت اللائى كان الرومان ينحتونها على ضرائحهم .

ويتوجَّه المَوْكِبُ نحو مقبرة سانْ أندره دِيزَار على أنغام المَرْسِيلْيز ، ولا ضَيْر .

ويَطْبَع إيڤارستُ قُبلَةَ الوَداع على جبين فُورْتُونِه تروبِر باكياً نَفْسَه حاسداً مَن استراح متمثِّلاً عملَه .

ويَعُود إلى منزله ، ويُخْبَرُ بأنه عُيِّن عُضْواً فى مجلس الثورة العامّ ، وقد رُشِّح لهذا المَنْصِب منذ أربعة أشهرٍ ، فَيُنْتَخَب له بثلاثين صَوْتاً من غير منافسٍ بعد تصويتٍ عِدة مرات ، وعاد لا يُصَوِّت أحدٌ ، فقد هُجِرَت الأقسام ، وصار الأغنياء

والفقراء لا يَبْحَثون عن غير الخلاص من الأعباء العامة ، وأخذ أعظمُ الحوادث لا يُثير حماسةً ولا فُضُولاً ، وأصبح الناسُ لا يطالعون صُحُفاً ، وشَرَع إيڤَارِسْتُ يَشُكُّ فى بقاء ثلاثة آلافٍ ، أو أربعة آلافٍ ، من أهل العاصمة البالغين سبعمئة ألفٍ ، جُمهوريين روحاً .

وفى ذلك اليوم يَمْثُلُ الواحدُ والعشرون أمام المحكمة .

هم أبرياء أو مذنبون عن نكباتِ الجُمهورية وجرائمها ، هم شُمَّخٌ غُفَّلٌ طُمَّاح خِفاف ، هم معتدلون أشداء معاً ، هم ضعفاء فى الهَوْل والحِلْم ، هم نِشَاطٌ فى شَهْر الحَرْب مُتَوانُون فى إدارة دَفَّتها ، هم مَسُوقون إلى المحكمة على طريقتهم ، ولم يكونوا أقلَّ من ذلك عُنواناً لشباب الثورة الزاهر ، وقد كانوا فُتُونَ الثورة ومجدَها ، وهذا القاضى الذى يسألهم مع حِبَاءِ العارف ، وهذا المتهمُ الشاحبُ الذى يُعِدُّ أمام مِنْضَدته الصغيرة هنالك هلاكَهم وخِزْيَهم ، وهؤلاء المحلَّفون الذين سيطفئون دفاعَهم عما قليل ، وهذا الجُمهور المستمع الذى يُوسِعُهم شتائمَ وزِيَاطاً ، هذا القاضى وهؤلاء المحلَّفون والناسُ هم الذين هَتَفُوا لبلاغتهم وأَثْنَوْا على مواهبهم وفضائلهم ، ولكنهم صاروا لا يَذْكُرون ذلك .

وكان إيڤَارِسْتُ قد جعل من ڤِرْنيو[1] إلهه ومن بريسُّو عَرَّافه ، وعاد إيڤَارِسْتُ لا يذكر ذلك ، وإذا ما بقى فى ذاكرته شىء من إعجابه القديم فذلك ليُدْرِكَ به أن هؤلاء الغيلان كانوا قد أضَلُّوا أطيبَ الوطنيين .

وبينما كان غَمْلانُ عائداً من المحكمة إلى منزله إذ سَمِع صُراخاً مؤثّراً صادراً عن جُوزِفِينَ الصغيرةِ التى تَضْرِبها أمُّها لِلَعِبها فى الميدان مع أولادٍ طائشين وتوسيخِها ثوبَها الأبيَض الجميل الذى كانت تَلْبَسُه فى مأتم الوطنىِّ تروبِر .

(١) فرنيو : سياسى فرنسى (١٧٥٣ ـ ١٧٩٣) .

١٦

ما فتئ إيڤارِسْت منـذ ثلاثة أشهر يُضَحِّى على مذبح الوطن كلَّ يومٍ أناساً مشهورين أو خاملين ، ثم تكون له قضيةٌ ضدَّ متهَمٍ جاعلا منه متهَمَهُ .

وذلك أن إيڤارِسْتَ كان يَرْقُبُ وهو جالسٌ فى المحكمة غاوِىَ الوُدية بين جَمْع المتهَمين الذين يَمُرُّون أمامَه ، وذلك وَفْقَ الصورة التى كَوَّنها فى خياله الشَّغَّال مستعيناً ببعض الأوصاف المقرَّرة ، وقد كان يتَمثله شَابًّا جميلًا ماجناً ، وقد كان يَبْنِى يقينَه على أنه هاجَرَ إلى إنكلترة ، وقد اعتقد أنه يكتشفه فى شابٍّ مهاجرٍ اسمُه مُوبِل الذى عاد إلى فرنسة فوَشَى صاحبُ فُنْدُقٍ فى پاسِّى [1] بنَزِيله هذا فبحثت نيابةُ فُوكْيهْ — تِنْقِيل فى أمره كما فعلتْ فى ألف أمرٍ آخر ، وقد وُجِدتْ معه رسائلُ عَدَّها الاتهامُ أدلَّةً على مؤامرةٍ حاكَها مُوبِل وعُمَّالُ پيت مع أنها لم تكن فى الحقيقة غيرَ رسائلَ كتبها إلى هذا المهاجر صيارفةٌ بلندن أَوْدَعهم أموالاً ، ومع أن الشابَّ الجميلَ مُوبل هذا كان منهمكاً فى إنكلترة بمغازلة النساء على الخصوص ، وقد عُثِرَ فى دَفتره على أثرٍ لصلته بإسپانية التى كانت محاربةً لفرنسة ، مع أن هـذا لا يَعْدُو حَدَّ السرائر المنزلية ، وإذا كانت النيابةُ لم تَرُدَّ التهمة عنه فللمبدأ القائل إنه لا ينبغى للعدالة أن تُسْرِعَ فى إطلاق السُّجَناء .

---

(١) باسى : من أحياء باريس فى الوقت الحاضر ، وقد كانت أيام الثورة من ضواحى باريس .

ويَطَّلع غَمْلانُ على أول استنطاقٍ عُرِّض له مُوبل فى غـرفة التحقيق ، وتَقِفُ نظرَه أخلاقُ هـذا الشابّ المطابقةُ ، كما يتَصور ، لِمـا يَعْزوه إلى الرجل الذى كان قد خان إلُودية ، ويَقْضِى ساعاتٍ طويلةً فى غرفة المسجّل مطالعاً إضبارتَه بنشاطٍ ، وتَزِيدُ رِيبَهُ حينما وَجَد فى دَفترٍ صغيرٍ قديمٍ لهذا المهاجر عُنوانَ « مصوِّر الغرام » وإن كان مقروناً بعُنوان « الممثِّل الأخضر » وبعُنوان « تصوير ولىِّ العهد » وبعُنوانٍ كثيرٍ من مخـازن الصُّوَر والألواح ، وتتحول شُبَهُ إيقَارِسْت إلى يقين عندما عَلِم أنه ضَمَّ إلى دَفتره ذلك أوراقَ قَرَنْفُلٍ أحمـرَ مُغَطَّاةً بورقٍ حريرى ، مفكّراً فى أن القَرَنْفُل الأحمر هو الزهرُ المفضل لدى إلُودْية التى تَغْرِسه على نافذتها وتَضَعُهُ فوق شَعْرِها وتَجْعَلُه دليلاً على الُحبّ كما يَعْلَم .

وهنـالك ، بعد يقينه ذلك ، يَعْزِمُ على سؤال إلودية كاتماً عنها جميعَ الأحوال التى عَرَف بها الجانى .

وبينما كان صاعداً فى دَرَج منزله إذ شَمَّ من أول مجازٍ رائحةَ فاكهة قويةً ، ثم وَجَدَ فى محترَفه إلُودية وهى تساعد الوطنيةَ غَمْلان على صُنْعِ مُرَبَّبِ سَفَرْجل ، وبينما كانت مُدَبِّرةُ المنزل العجوزُ هـذه تُوقِدُ المِطْبخَ ناويةً أن تقتصد فى الفحم والسُّكَّر مع المحافظة على نفاسة المُرَبَّب كانت الوطنية بليزُ ، الجالسةُ على كرسىٍّ تِبْنِىٍّ والمُنطَّقَةَ بوِزْرَةٍ سمراءَ والمالئةُ حِضْنَها بالسفرجل ، تُقَشِّرُ هـذه الفاكهةَ الذهبية وتَطْرَحها أرباعاً فى قِدْرٍ نحاسيةٍ ، وقد كانت أطرافُ مِنـديلها ملقاةً إلى الظَّهْر ، وكانت خُصَلُ شعـرها السُّودُ ملتويةً على جبينها النَّدِىّ ، وكان يَشِـعُّ منها فُتُونٌ منزلىٌّ ولُطْفٌ أهلىٌّ يُوحِيان بالخواطر العَذْبة واللذة الهادئة .

« تَرَى ، ياإيڤَارِسْتُ ، أننا نَعْمَل فى سبيلك ، وستأكل فى الشتاء كلّه مُرَبَّباً لذيذاً من السفرجل ، فتَقْوَى به مَعِدَتُك ويُسَرُّ به فؤادُك » .

غير أن غَمْلانَ يَدْنو منها ويُسَارُّها فى أُذنها بهذا الاسم :

« جاكْ مُوبِل . . . »

وإن الأمر لكذلك إذ جاء الخرَّازُ كُنبالُو ليُرِىَ أنفَه الأحمر من الباب المفتوح قليلاً ، وقد أحضر الأحذيةَ التى جَدَّد أعقابها مع قائمة الحساب .

وكان الخرَّازُ يخشى أن يُعَدَّ وطنيًّا سيئاً فيستعملُ تقويماً جديداً ، ومع أن الوطنية غَمْلان كانت تُحبُّ الوضوح فى الحساب فقد تاهت فى فُرُوكْتِيدُور[1] وڤندمير .

وتتأوه : « أَىْ يَسُوع ! إنهم يريدون تغيير كلِّ شىء ، يريدون تغييرَ الأيام والشهور والفصول والشمس والقمر ! رَبَّاه ، ما هو جُرْموق[2] ٨ من ڤَنْدِمير هذا يا كُنبالُو ؟ » .

« ألْقِ أيَّتها الوطنيةُ نظرةً على تقويمكم لتحكمى فى الأمر » .

وتُنَزِّلُه ، وتَنْظُرُ إليه ، وتُحَوِّل نظرها عنه من فَوْرها وتقول مذعورةً :

« ليس عليها مَسْحةٌ نصرانية ! » .

الخرَّاز : « لم يقتصر الأمر على هذا ، فقد صار عندنا ثلاثةُ آحادٍ بدلاً من أربعة ، وليس هذا كلَّ ما فى الأمر ، فقد فُرِضَ تغييرُ طريقة حسابنا ، ولن يكون عندنا فَلْسٌ ولا درهمٌ ، بل يُنَظَّم كلُّ شىءٍ على الماء المُقَطَّر » .

---

(١) فروكتيدور : الشهر الثانى عشر من السنة الجمهورية .

(٢) الجرموق : ما يلبس فوق الحذاء ليقيه من الطين ، ويقابله فى الفرنسية Galoche

وهنالك ، عند هذا الـكلام ، تَرْفَع الوطنيةُ غَمْلان عينيها إلى السقف مرتجفةَ الشفتين وتقول متحسِّرةً :

« لقد أفرطوا ! » .

و بينما كانت تتأوَّه كراهبات الجُلْجُثَة [1] كانت الفَحمةُ التى حُوِّلت إلى جَمْرةٍ تمْلأ المحترَف ببخارٍ فاسد يَجْعَـلُ ، مع رائحة السفرجل المُدَوِّخة ، هواءه غيرَ صالح للتنفس .

وتتوجَّع إلودية من حِكَّةٍ فى نَحْرها وتَطْلُب فتحَ النـافذة ، ولـكن إيڤارِسْت يُـكَرِّر للوطنية بليز اسمَ « جاكْ مُوبِل » بعـد انصراف الوطنىّ الخرَّاز ورجوعِ الوطنية غَمْلان إلى مِطْبخها .

وتنظر إليه حائرةً ، وتقول له هادئةً غيرَ متوقِّفةٍ عن تقطيع السفرجل أرباعاً :

— « والآن ؟... جاكْ مُوبِل ؟.. »

— هو !

— مَنْ ؟ هو ؟

— أنتِ أعطيتِه قَرَنْفلةً حمراء .

وتُصَرِّح بأنها لم تَفْهَم من ذلك شيئاً ، وتسألُه أن يُوضِـح .

« هذا الأريستوقراطىّ ! هذا المهاجر ! هذا الرذيل ! ... »

وتَرْفَع كَـتِفيها هزوءاً ، وتُنْـكِر أنها تَعْرِف جاكْ مُوبِل غيرَ متصنِّعةٍ .

والواقعُ أنها لم تَعْرِفه قَطُّ .

---

(١) جبل الجماجم بالقدس .

وتُنكِر أنهـا أعطتْ أحداً قَرَنْفُلاً خلا إيڤَارِسْت ، ولـكن مع احتمال سوء ذاكرتها حَوْلَ هذا .

وهو سيِّئُ العِلْمِ بالنِّساء ، ولم يكن ذا بصيرةٍ نَفَّاذة فى أخلاق إلودية ، فهو يَظُنُّها قادرةً على التصنع وعلى مخادعة مَنْ هو أدهى منه .

« ولِمَ الإنكار ؟ أنا أعْرِف » .

وتُؤَكِّد غيرَ مرةٍ أنها لا تَعْرِف إنساناً يُدْعى مُوبِل ، وتَفْرُغ من بَشْرِ السفرجل فتطلب ماءً إزالةً للوسخ اللازج بأصابعها .

ويُحْضِر غَمْلان طَسْتاً لها .

وتُجَدِّد إنكارَها وهى تَغْسِل يديها .

ويُكَرِّر قولَه إنه يَعْرِف ، وتَصْمُت .

وهى لا تُبْصِر ما يَهْدِف إليه عاشقُها بسؤاله ، وهى بعيدةٌ كلَّ البعد من التفكير فى كون مُوبِلَ ، الذى لم تَسْمَع عنه حديثاً قط ، سيَمْثُل أمام المحكمة الثورية ، وهى لم تدرك شيئاً من الظُّنُون التى تساوره مع علمها أنها لا تقوم على أساس ، وهى ، إذْ لم تأمُل أن تُبَدِّدها ، عادت لا تكترث للأمر ، وقد صارت لا تَدْفَع عنها زعمَ معرفتها بمُوبِل ، مُفَضِّلةً ضَلَال الغَيُور عن الطريق ، عارفةً أن أقل عارض يَدُلُّه على الصراط السَّوِىِّ على ما يحتمل ، وقد تنافر غلامُهـا السابق ، الذى غدا فارساً ظريفاً محبًّا للوطن ، هو وخليلتُه الأريستوقراطية ، فلَمَّا لاقى إلُودْية فى الطريق نظر إليها بعينِ مَنْ يَلُوح أنه يقول : « هَيَّا هَيَّا أيتها الحسناء ! إننى أشعر بغفرانِ ما كان من خيانتى ، وإننى أكاد أُكْرِمُكِ » ، وهى ، إذَنْ ، لم تَبْذُل كبير جهدٍ لشفاء ما تَدْعُوه أهواءَ حبيبها ، ويُصِرُّ غَمْلان على اعتقاده أن جاكْ مُوبِل هو الذى أغْوَى إلودية .

ولم تنفكَّ المحكمةُ فى الأيام التاليـة تستأصل الاتحادية التى كانت تهدِّد الحرية بافتراسها كالثعبان ذى الرؤوس السبعة ، وكانت تلك الأيامُ مُثْقَلةً ، وعَجَّل المحلَّفون ، الذين نَهَـكهم التعب ، لمدام رُولان[١] المتهمة بأنها مساعدةٌ ، أو شريكةٌ ، فى جرائمِ حزب بريسُّو .

ومع ذلك فإن غَمْـلان كان يَمُرُّ على النيابة فى كلِّ صباح لتُقَدّم قضية مُوبل إلى المحكمة ، وكان يوجـد فى بُورْدُو وثائقُ مهمةٌ ، ويَحْمِلُ غَمْـلانُ على إرسال مندوبٍ يبحثُ عنها فى دائرة البريد ، وتَصِل فى نهاية الأمر .

ويقرؤها معاونُ المتهِم العامِّ ، ويُقَطِّبُ ويقول لإيڤَارِسْت :

« ليست الوثائق رائعةً ! هى لا تشتمل على شىء ! هى من اللَّغْو ! ... لو كان من الثابت أن الـكونت دومُوبل قد هاجر ! ... »

وأخيراً يُوَفّق غَمْـلان ويتسلَّم الشابُّ مُوبل إعـلاناً بتهمته ، ويَمْثُـل أمام المحكمة الثورية فى ١٩ من بُرومير[٢] .

وتُفْتَح الجلسة ، ويبدو الرئيس عبوساً مُـكْفَهِرَّ الوجهِ لحمْله على العناية بقضايا سيئةِ التحقيق ، ويلاعب معاون المتهِم ذَقَنَهُ بقلمه ويتظاهر بنَقَاء الضمير ، ويقرأ المسجِّل إعلان الاتهام ، ولم يُسْمَعْ بَعْدُ ما هو أسخف من هذا .

ويسأل الرئيسُ المتَّهمَ عن عدم علمه بالقوانين الصادرة ضِدَّ المهاجرين .

---

(١) مدام رولان : كانت جمهـورية النزعة ، وكانت صاحبـة لردهة أدبية مشهـورة بباريس ، وكان الجيروندييون يترددون الى هذه الردهة فأثار هـذا حقـد المونتانيار ، وأوجبوا اعدامها بالمقصلة حيث قالت حين الصـعود اليها « أيتها الحرية ، ما أكثر الجرائم التى تقترف باسمك ! » .

(٢) برومير : الشهر الثانى من السنة الجمهورية .

مُوبِل : « لقد عَرَفْتُها وراعَيْتُها ، وكنت قد غادرت فرنسة حاملاً جوازَ سفرٍ قانونىّ » .

ويُوضِحُ أسباب سفره إلى إنكلترة ورجوعِه إلى فرنسة إيضاحاً مُقْنعاً ، ويَظْهَرَ لطيفَ الوجه مع صفاءٍ وزهوٍ يَرُوقان الناظرين ، وتَنْظُرُ المستمعاتُ إليه بعين الرِّضا ، ويَزْعُم الاتهام أنه أقام بإسپانية أيام كان هذا البلدُ محارباً لفرنسة ، ويُؤكّد أنه لم يغادر بايُون [1] فى ذلك الحين ، ويَظَلُّ أحد الأمور غامضاً ، وذلك أنه قرئ بين بقايا الأوراق التى ألقاها فى مَوْقِده حين القبض عليه كلماتٌ إسپانية واسمُ « نِيڤْ » .

ويأبَى جاكْ موبِلُ أن يُوضِح ما طُلِب منه عن هذا الموضوع ، ولما قال له الرئيس إن من مصلحة المتهم أن يوضِح ذلك أجاب أنه لا ينبغى للإنسان أن يَنْظُرُ إلى مصلحته فى كلِّ وقت .

ولم يُفكِّر غَمْلانُ فى الحكم على مُوبِل إلا من أجل جرمٍ واحد ، ويُلِحُّ على الرئيس ثلاث مراتٍ أن يسأل المتهَم عن القَرَنْفُل الذى عُنِىَ بحفظ أوراقه الجافة فى محفظته .

ويُجِيبُ مُوبِل بأنه غيرُ ملزم بالجواب عن سؤالٍ لا يُهِمُّ العدالة ، ما دام لم يُعْثَر على بطاقةٍ سِرِّية تحت هذه الزهرة .

وينزوى المحلَّفون فى غرفة المذاكرة ملائمين لهذا الشابِّ الذى ينطوى أمرُه ، كما يظهر ، على أمورٍ غرامية غامضة ، والصالحون المُخلِّصُ أنفسُهم كانوا يَرَوْن براءتَه فى هذه المرة ، ومن هؤلاء مُحَلَّفٌ كان قد قدَّم رِهاناً إلى الثورة فقال :

---

(١) بايون : من مدن فرنسة .

« أيُلام على نَسَبه ؟ وأنا ، أيضاً ، كان من سوء حظّى أن وُلِدتُ من الطبقة الأريستوقراطية » .

غَمْلان : « أَجَلْ ، ولكنك خَرَجْتَ منها ، وبَقِيَ فيها » .

ويَبْلُغ غَمْلانُ من الكلام الحماسىّ ضدَّ هذا المؤتمِر ، ضدَّ عينِ بِيتَ هذا ، ضدَّ شريكِ كُوبُورْغ (١) هذا ، ضدَّ هذا الذى جاوز الجبال وعَبَر البحار ليُثيرَ أعداءَ الحرية ، ضدَّ هذا الخائن ، ما يَطْلُب معه تجريمه مُوقِظاً غَمَّ المحلَّفين المحبِّين للوطن وقسوتَهم المعهودة .

ويقول له أحدُهم ماجناً :

« يوجد بين الزملاء مِنْ تبادلِ الخِدَم ما لا يُمْكن رَدُّه » .

ويُحْكَم عليه بالإعدام بأكثرية صوتٍ واحد .

ويَسْمَع المحكومُ عليه قرار الحكم ساكناً باسماً ، وتُعبِّر عيناه اللتان يُحيلُهما هادئاً فى القاعة عن ازدراءٍ عظيم لغَمْلان حين وقوعهما عليه .

ولم يَهْتِفْ أحد للحُكم .

ويعادُ جاكْ مُوبِل إلى الكُونْسيرْجيرى ، ويَكْتُب الرسالةَ الآتية منتظراً إعدامَه فى الليلة نفسها على ضوء المشاعل :

« أختى العزيزة ! تُرْسِلُنى المحكمة إلى المقْصَلة مُنْعِمَةً علىّ بالمسرَّة الوحيدة التى أَشْعُر بها منذ وفاة معبودتى نِيفْ ، وقد أخذوا منى الذُّخْرَ الوحيد الذى هو كلُّ ما بَقِيَ لى منها ، أخذوا منى زهرةَ الرُّمَّان التى سَمَّوْها زهرةَ القَرَنْفُل لسببٍ لا أعرفه .

---

(١) من بلاد ألمانية .

« كنت أُحِبُّ الفنون ، وقد جمعتُ فى أسعد الأوقات بباريسَ صُوَراً ونقوشاً ، وهى الآن فى مكانٍ أمين ، وستسلَّم إليكِ متى أَمْكن ذلك ، فأرجو منكِ ، يا أختى العزيزة ، أن تَحْفَظيها تذكاراً » .

ويَقُصُّ خُصْلةً من شعره ويَضَعُها فى الكتاب ويَطْويه ، ويكتب العنوان الآتى :

« إلى الوطنية كلِيمَانْس دِيزِمِيرِى ، مُوبِل » .

« لارِيول »

ويَهَبُ ما لديه من نقودٍ لحامل مفاتيح السجن راجياً منه أن يُوصِل الرسالة ، ويَطْلُب قِنِّينَةَ خمرٍ ويَشْرَبُها تَجَرُّعاً منتظراً عربةَ المحكوم عليهم بالإعدام .

ويُهْرَعُ غَمْلان إلى « مصوِّر الغرام » بعد العَشاء ، ويَثِبُ إلى الغرفة الزرقاء التى تنتظره إلُودْية كلَّ ليلةٍ فيها ، ويقول لها :

« لقد انتقمتُ لكِ ، فقد صار جاكْ مُوبِل من الهالكين ، وقد مَرَّت العربة التى تقوده إلى الفناء من تحت نوافذك محاطةً بالمشاعل » .

وتُدْرِك ، وتقول :

« يا له من بائس ! أنت الذى قتله ، هو لم يكن عاشقى ، أنا لم أعْرِفه . . . أنا لم أرَه قَطُّ . . . مَنْ هو ؟ لقد كان شابًّا أنيساً . . . بريئاً ، أنت الذى قتَلَه ، يا له من بائس ! يا له من بائس ! » .

ويُغْمَى عليها ، غير أنها تَشْعُر بأنها غريقةُ الكَرَاهية والشهوةِ فى ظلال هذا الموت الخفيف ، ويعود إليها نصف الحياة ، ويَكْشِف جَفْناها الثقيلان عن بياض عينيها ، وينتفخ نَحْرُها ، وتبحث يداها الصافقتان عن عشيقها ، وتَضُمُّه بين ذراعيها

بشدةٍ وتُنْشِب أظفارَها فى بدنه ، وتُقَبِّله بشفتيها الممزَّقتين أصمتَ القُبُلات وأصمَّها وأطولَها وأحرَّها وأعذبَها .

وكانت تُحِبُّه حُبًّا جامعاً ، وكلما بدا لها هائلاً قاسياً طاغياً ، وكلما أبصرته ملطَّخاً بدماء ضحاياه ، زادت رغبةً فيه وشوقاً إليه .

١٧

بينما كانت السماء وردية ساطعة فى الساعة العاشرة صباحاً من ٢٤ من فريمير[١] فتذيب جليد الليل ، إذ يتوجّه مندوبا لجنة السلامة العامة ، الوطنيان غينو ودلورمل ، إلى قسم البرنابيين ، ويدلان على لجنة رقابة القسم فى قاعة اجتماع الرهبان سابقاً حيث كان الوطنى بوفيزاج يدخل حطباً إلى الموقد ، ولم يراياه فى بدء الأمر بسبب قامته القصيرة المتجمعة .

ويرجو الوطنى بوفيزاج ، بصوت الحدب الضعيف ، من المندوبين أن يجلسا ويضع نفسه تحت تصرفهما .

ويسأله غينو عن معرفته للمدعو ديزلت سابقاً والمقيم قريباً من البون نوف ، ويقول :

« إننى مفوّض بالقبض على هذا الرجل » .

ويبرز أمر لجنة السلامة العامة .

وينبش بوفيزاج ذاكرته بعض الوقت فيجيب بأنه لا يعرف رجلاً اسمه ديزلت ، وبأن من المحتمل ألّا يكون من سكان القسم ، وبأن بعض جهات المُوزيوم والأونيته وماراً — مرسيلية مجاور للبون نوف ، وبأنه إذا كان من سكان

---

(١) فريمير : الشهر الثالث من السنة الجمهورية .

القسم وَجَب أن يكون ذا اسمٍ آخر غيرِ الذى جاء فى أمر اللَّجْنـة فلا يَلْبَث أن يُـكْشَف .

غِينُو : « لاينبغى إضاعةُ الوقت ، وقد وُجِّه نظرنا إليـه بكتابٍ من شريكةٍ له أُمْسِكَ بغتةً وسُلِّم إلى اللَّجْنة منذ خمسةَ عشرَ يوماً فاطَّلع الوطنىُّ لا كِرْوَا عليه أمسِ فقط ، والواقعُ أننا طافحون أعمالاً ، وتأتينا الوِشايات من كلِّ ناحية ، وهى من الـكثرة ما لا يُعْرَف معه سماعُ أيّها » .

بُوفِـيزاجُ مُخْتالاً : « والوِشاياتُ تَنْصَبُّ على لَجنة الرَّقابة بالقسم أيضاً ، فبعضُهم يَشِى عن غَيْرةٍ وطنيـة ، وبعضٌ آخرُ يَشِى عن إغراءٍ بورقة مئة الفَلْسِ ، وكثيرٌ من الأولاد مَنْ يَشُونَ بآبائهم طمعاً فى الإرث » .

غِينُو : « هذا الـكتابُ صادرٌ عن المدعوَّة رُشْمُورَ سابقاً ، عن هـذه المرأة المِغْناج التى كان يُلْعَب فى القِمار عندها ، وقد جُعِل الوطنىُّ رُولِينُ عُنْوَاناً للـكتاب ، والـكتابُ مُرْسَلٌ ، بالحقيقة ، إلى مهاجرٍ موظّفٍ لدى بِيت ، وقد أتيتُ بالـكتاب لأُطلعك على ما هو خاصٌّ بالمَدْعُوِّ دِيزِلّت .

ويُخْرِجُ الـكتابَ من جيبه ، ويقول :

« يبدأ الـكتاب ببيانٍ طويل عن أعضاء مجلس العهد ، وعن إمكان اشترائهم ، على قول هذه المرأة ، بتقديم مبلغ من المـال إليهم ، أو بوعدهم وظائف عاليةً فى حكومة جديدة أُثبتَ من الحكومة الحاضرة ، ثم يُقْرَأُ ما يأتى :

« أَخْرُج من عند مسيو دِيزِلّت ، المقيم قريباً من البُون نُوفْ بمنزلٍ تحت السَّقْف يجب على الإنسان أن يكون سِنَّوراً أو شيطاناً حتى يَعْثُر عليه ، وقد أحوجَه الحال إلى العيش من صُنْع لُعَب متحركة ، وهو حصيفٌ ، وهذا ما يجعلنى أَنْقُل إليك

جوهَر حديثه يا سيدى : هو لا يعتقد دوامَ الأمور زمناً طويلاً ، هو لا يُبصِرُ نهايتها بنصرٍ يناله الحلفاء ، ويَلُوح أن الأحوال تؤيِّد ما يَرَى ، وذلك لأن حوادث الحرب سيئةٌ منذ زمنٍ كما تَعْلَم يا سيدى ، وإنما هو كثيرُ الاعتقاد بعِصيان صغارِ الناس ونساء الشعب اللائى لا يَزَلْن شديداتِ التمسك بدينهن ، وإنما هو يُقَدِّر أن ما ينشأ عن المحكمة الثورية من هَوْلٍ عامٍّ لا يَلْبَث أن يؤلِّب فرنسة بأسْرِها ضد اليعاقبة ، وقد قال ساخراً : « إن هذه المحكمة التى تحاكِمُ ملكةَ فرنسة وحاملةَ الخبز تشابه ولْيَمْ شَكْسپير الذى يُعْجَب به الإنكليز كثيراً ، إلخ . . . » ، وهو لا يرى من المستحيل زواجَ رو بسپير بالسيدة الملكة مع نصبه وصيًّا على العرش .

« وأكون شاكرةً لك ، يا سيدى ، إذا ما أرسلتَ إلىَّ المبالغَ التى أستحقُّها ، أى ألفَ الجنيه الاسْتِرْلينِيِّ ، بالواسطة التى تَتَّخذها عادةً ، وإياك والكتابةَ إلى مسيو مُرْهَارْد ، فقد قُبِض عليه وسُجِن ، إلخ ، إلخ » .

بُوڤِيزَاج : « يُعَدُّ صُنْعُ مسيو دِيزِلِّت لُعَباً متحركةً دليلًا نافعاً ... وإن كانت الصِّناعات الصغيرة التى هى من هذا النوع كثيرةً فى القسم » .

دِلُورْمِل : « وهذا ما يُذَكِّرنى بأننى وعدتُ بإحضار لُعبةٍ إلى بنتى الصغيرة نَتَالِى المريضةِ بالحُمَّى القِرْمِزية ، وقد ظَهَرتْ علائمُها أمسِ ، ولا يوجد فى هذه الحُمَّى ما يُخْشَى ، غير أنها تحتاج إلى عناية ، ومع أن ابنتى نَتَالِى هذه عليلةٌ فإنها ناميةُ الذكاء بالنسبة إلى سنِّها » .

غِينُو : « ليس عندى غيرُ غلام ، وهو يَلْعَب بأُطُر البِرْميل ويَصْنع مناطيد صغيرةً بنَفْخِه فى أكياس » .

بوڤيزاج : « إن أحسنَ ما يُجِيدُ الأولادُ اللَّعِب به فى الغالب هو الأدوات التى ليست لُعَباً ، ومن ذلك أن ابن أخى إميل ، الذى هو فى السابعة من سِنِيه والكثير

الذكاء ، يتلهّى النهارَ كلَّه بإقامة أبنيةٍ من مُرَبَّعاتٍ خشبية . . . أوَتتفضلون بتناول شيء ؟ . . » .

ويَمُدُّ بوڤيزاجُ مِسْعَطَه إلى المندوبيْن مفتوحاً .

دِلُورْمِل : « والآن يجب أن يُقْبض على الجانى الطويلِ الشاربيْن والواسعِ العينيْن ، وأَشْعُر فى هـذا الصباح بشهوةٍ لأكل كبِد الأريستوقراطىِّ منضوجاً بقدَحٍ من الخمر البيضاء » .

ويقترح بُوڤِيزاجُ على المندوبيْن أن يَذْهَبا إلى دكانه فى ميدان دُوفين للاجتماع بزميله الشائب دوُپون ، فهو يَعْرِف شخصَ دِيزِلِّت لا رَيْب .

ويُسْرِعون مع أربعةٍ من خِيَار جنود القسم .

ويقول لرفقائه : « هل رأيتم تمثيل رواية « محاكمة الملوك الأخيرة » ؟ تستحقُّ هذه الرواية أن تشاهَد ، وقد أَظهر مؤلِّفُها جميعَ ملوك أوربة لاجئين إلى جزيرة قَفْرٍ عند سفح بركانٍ بالعٍ لهم ، والحقُّ أن هذا أثرٌ وطنىٌّ » .

وفى زاويةٍ من شارع هارْلِى يُبْصِر دلُورْمِل عربةً صغيرة ساطعـةً تَدْفَعُها عجوزٌ لابسةٌ قَبَّعةً من نسيجٍ مُشَمَّع ، ويسأل :

« ماذا تبيع هذه العجوز ؟ » .

العجوز : « اختاروا ، يا سادتى ، مما تَرَوْن ، فعنـدى مسابحُ ورديةٌ وسُبُحاتٌ وصُلْبانٌ وصورُ القديس أَنْطُوَان ، وأكفانٌ مقـدسة ومناديلُ القديسة ڤيرُونيك وأبواقُ القديس أوبر وخواتمُه وجميعُ أدوات العبادة » .

دلُورْمِل صائحاً : « هذه هى دار صِناعة التعصب » .

ويَشْرَع فى سؤال البائعة الجائلة ، فتجيبه عن جميع ما يسأل :

« إنني أبيع أدواتِ العبادة منذ أربعين عاماً يا ولدى » .

ويُبْصِر أحد مندوبَى لَجنـة السلامة العـامة لابسَ ثوبٍ أزرقَ مارًّا فيأمره بأن يسوق العجوزَ الحائرةَ إلى الـكُونْسيرْجيرى .

ويوجِّه الوطنىُّ بُوفِيزاجُ نظرَ دلُورْمِل إلى أن الأصول تقضى بأن تكون لَجنةُ الرَّقابة هى القابضةَ على هذه البائعة والسائقةَ لها إلى القسم ، وذلك إلى أنه لا يُعْرَف أىُّ السُّبُل تُسْلَك نحوَ العبادة السابقة حتى يُسَارَ وَفْقَ رأى الحـكومة ، وهل يجب أن يُبَاحَ لها كلُّ شىء أو يُحْظَرَ عليها كلُّ شىء .

ولما دنا المندوبان والمُفوَّضُ من دكان نجـارٍ سَمِعُوا صُرَاخاً ممزوجاً بصريفِ مِنْشارٍ وصَرير مِنْجَر ، فقـد وَقَع صِراعٌ بين النجار الشائب دوبون وجارِه البواب رِمَاكْل بسبب الوطنيـة رِماكْل التى تنجذب بلا انقطاع إلى أقصى المِنْجَرة حيث تذهب إلى الحُجْرَة المفروشة بنُشَارةٍ وبُرَاية ، ويَضْرِبُ البوابُ المُهانُ كلبَ النجار برجله حينما كانت ابنته جُوزفينُ الصغيرة حاضنةً له بحَنَان ، وتَصُبُّ جوزفينُ الساخطة لَعَناتٍ على أبيها ، ويقول النجار صارخاً :

« أَمْنعك من ضرب كلبى يا مسكين ! » .

البواب رافعاً مِكنسته : « وأنا أمنعك من ... » .

ولم يُتِم كلمته ، فقد لَمَسَ رأسَه بمِنْجَرَه .

ويُبْصِرُ الوطنىُّ بُوفِيزاجَ مع المندوبين ويُسْرِع إليه ويقول له :

« كن أيها المُفوَّض شاهداً على أن هذا الأثيم يريد قتلى » .

وكان الوطنىُّ بوفيزاج لابساً قَلَنْسُوَتَه الحمـــراء التى هى شعار وظائفه ، فمدَّ ذراعيه الطويلتين متخذاً وضعَ المُصْلِح ، وقال مخاطِباً البوابَ والنجار :

« إن هذه الفلوس هى لمن يرشدنا إلى مكان صانع اللعب المتحركة المسمّى ديزلت سابقاً والذى تبحث عنه لجنة السلامة العامة » .

ويدلّ البوّاب والنجار كلاهما على منزل برُوتو تاركيْن نزاعهما غيرَ مفكرين فى سوى ورقة مئة الفلس الموعودة للواشى .

ويصعد فى الدرج دُولورمِل وغينو وبوفيزاج ويتبعهم الجنود الأربعة والبواب رِماكل والنجار دُوبون ونحو عشرة من أولاد الحىّ وتهتزّ الدرج تحت أقدامهم ويطلعون سُلَّمَ الطحّان .

وكان برُوتو يُقطّع فى منزله لُعَباً متحركةً على حين يجمع الأب لُونْغمار أعضاءها المتفرقة بخيوط ويتبسّم إذ يرَى نسقها وانسجامها تحت أصابعه .

ويسمع الراهب حِسَّ العكاكيز على المجاز فترتعش جميعُ أعضائه ، لا لأنه أقلُّ شجاعةً من برُوتو الذى ظلّ ثابت الجنان ، بل لأن حياءه حال دون تجمّله ، ويُدْرِك برُوتو مصدرَ الضربة من أسئلة الوطنىّ دُولورمِل ، ويرَى أن من الخطأ أن يُعْتَمَد على النساء ، ويُدْعَى إلى اتّباع الوطنىّ المفوَّض ، فيأخذ معه ديوان لُوكْريس وثلاثة قمصان .

ويشير إلى الأب لُونْغمارَ قائلاً : « إن هذا الوطنىّ يساعدنى على صُنْع لُعَبى المتحركة ، وهو يقيم هنا » .

ولكنْ بما أن الراهب لم يَسْطِعْ أن يُقدِّم شهادةً على غَيْرته الوطنية فقد قبضَ عليه مع برُوتو .

ولما مرَّ المَوْكِب أمام غرفة البواب كانت الوطنية رِماكل مستندةً إلى مِكْنستها فنظرت إلى المستأجر بعين الفضيلة التى تُبْصر الجُرْمَ قبضةَ القانون ، وتُمسِك

جوزفينُ الصغيرة المتهاونة الحسناء من الطَّوْقِ مُوتُونَ الذى أراد أن يلاطِفَ صديقاً كان يعطيه سُـكَّراً .

ويُـلاقى برُوتُو عند أسفل الدَّرَج فَـلاَّحَةً فتاةً توشك أن تَصْعَد فى الدَّرَج ، وكانت هـذه الفَلاَّحةُ حاملةً تحت ذراعها سَلَّةً مملوءةً بَيْضاً ومُمْسِكَةً بيدها قُرْصاً فى نَسيج من كَتَّان ، وهذه الفَـلاَّحة هى أَتنَايِيسُ التى أتت من پالِيزُ لتُقَدِّم إلى مُنْقذها دليلاً على شكرها ، فلما رأت منـــدو بين وأربعةَ جنودٍ يقودون « مسيو مُورِيس » اعتراها البَـلَه ، وسألتْ عن صحة ما رأت ودَنَتْ من المفوَّض وقالت له بتُؤدَةٍ :

« من المستحيل ألاَّ تأخـذوه . . . ولـكنكم لا تَعْرِفونه ! هو صـالحٌ كالرَّبِّ الحَنَّان » .

ويَدْفَعها الوطنىُّ دلُورْمِل ، ويشير إلى الجند بالتقدم ، وهنالك تَقْذِف أقذر الشتائم وأبذأها على المندو بين والجنود ، فَيَظُنُّون أن جميع طُسُوتِ الپالهْ روَيَّال وشارعِ فُورْمَانْتُو فُرِّغت على رؤوسهم ، ثم هَتَفَتْ بصوتٍ مَلأَ ميدانَ تيُونڤِيل بأَسْرِه وهَزَّ جُمهورَ الحُضَّار :

« عاش الملك ! عاش الملك ! » .

١٨

كانت الوطنية غَمْلان تُحِبُّ الشيخ برُوتُو ، وكانت تجده أعظمَ من رأت أُنْساً واعتباراً ، وهى لم تُوَدِّعه عندما قُبض عليه خشيةَ تَحَدِّى السلطات ولأنَّ من كان فى مثل حالها يَعُدُّ الجُبْن واجباً ، غير أنها أُصيبتْ بصدمةٍ لم تَقُمْ منها .

ولم تَقْدِر على الأكل ، وتألمَ من فَقْدِها شَهْوةَ الطعام فى وقتٍ صار عندها فيه ما تغتذى به ، ولم تَزَلْ تُعْجَب بابنها ، وإن لم تَجْرُؤْ على التفكير كثيراً فى أعماله الهائلة التى يُمْضِيها ، وهى تُهَنِّئ نفسها بأنها لم تكن غيرَ امرأةٍ جاهلةٍ عاجزةٍ عن الحكم فى أمره .

وتَجِدُ الأمُّ المسكينة سُبْحةً قديمة فى صُنْدوقٍ ، ولم تَسْطِع استعمالَها جيداً ، وإنما كانت تُعْمِل أصابعَها المرتجفة فيها ، وقد غَدَت تقيَّةً بعد أن عاشت حتى المشيب من غير أن تباشر أمورَ دينها ، وهى تقضى نهارَها كلَّه قريبةً من النار داعيةً اللهَ أن يسلِّم ابنَها ويُسلم السيدَ الصالحَ برُوتُو ، وكانت إلُودية تزورها فى الغالب ، وما كانتا لتتناظرا ، وإذا ما تحادثتا على قِلَّةٍ تناولتا أموراً لا يؤبَه لها .

وفى يومٍ من پلُوڤْيُوز (١) ، كان الثلجُ يَنْزِلُ فيه سبائخَ (٢) كبيرةً فيَحْجُب

---

(١) پلوڤيوز : الشهر الخامس من السنة الجمهورية .

(٢) السبائخ : جمع السبيخة ، وهى القطعة من السبيخ ، وهو ما تناثر أو انتفش من الريش أو القطن ونحوهما .

السماء ويَخْنُق كلَّ صوتٍ فى المدينة ، تَسْمَع الوطنيةُ غَمْلان ، التى كانت وحدَها فى الغرفة ، قَرْعَ الباب ، وترتعد ، وهى ما انفكَّتْ ترتجف منذ شهور عند أقلِّ حركة ، وتفْتَح البابَ ، ويَدْخُل الغرفةَ شابٌّ فى الثامنةَ عشرةَ من سِنِيه ، أو فى العشرين من عُمره ، واضعاً قُبَّعته على رأسه ، مرتدياً رِدِنغوتاً أخضر ذا أزياق [1] ثلاثة ساترةٍ للصدر والخصْر ، لابساً جَزْمة ذات ثَنْى على الزِّىّ الإنكليزى ، مُرسلاً شعره الخُرُّوبىَّ خُصَلاً على كَتِفَيه ، ويتقدم إلى منتصف المحترَف كما لو كان يَوَدُّ أن يتلقَّى كلَّ نُورٍ يأتى به الزُّجاجُ من بين الثلج ، ويَظَلُّ بضعَ ثوانٍ ساكناً ساكتاً .

وبينما كانت الوطنيةُ غَمْلانُ تنظر إليه حائرةً إذ يقول لها :

« ألا تَعْرِفين ابنتَك ؟ . . . »

وتَجْمع العجوز بين يديها ، وتقول :

« جُولْيَة ! . . . أنتِ . . . رَبَّاه ، أمكِنٌ هذا ! . . . »

« أَجَلْ ، إننى ! عانقينى يا أمَّاه » .

وتَضُمُّ الوطنيةُ الأيِّمُ غَمْلان ابنتها إلى صدرها ، وتُرسِل عيناها دمعةً على زِيق الرِدنغوت ، ثم تقول مع الهَلَع :

« أنتِ فى باريس ! . . . »

« آه ، يا أُمَّاه ! لم آتِ وحدى ! . . . لا أُعْرَف بهذا الثوب » .

والواقعُ أن الردِنغوت يُخْفِى أشكالَها ، فلا تَظْهَر مختلفةً عن كثير من الشُّبَّانِ

---

(١) الأزياق : جمع الزيق ، وهو من الثوب ما أحاط بالعنق وما كف من جانب الجيب .

الذين كانوا مثلَها ذوى شعورٍ طويلة مفروقة إلى قسمين ، وكانت ملامح وجهها اللطيفةُ الفاتنة ، مع سَفْعٍ [١] وتجويفٍ عن تعبٍ ومع جُسْأَةٍ [٢] عن هموم ، تَنِمُّ على إقدامٍ ورُجُولة ، وكانت نحيفةً طويلةَ الساقين مستقيمتَهما ، وكانت سهلة الحركات ، وكان صوتُها الواضحُ وحدَه هو الذى يدلُّ عليها .

وتسألُها أمُّها عن جُوعها ، وتجيبُها باستعدادها للأكل ، فلما قُدِّم إليها خبزٌ وخمر ولحمُ خِنزيرٍ مملَّح أخذت تغتذى متكئةً بأحد مِرْفَقَيْها على المائده باديةً مليحة لَهُوماً [٣] كسِيرِسَ [٤] فى كُوخ العجوز بُوبُو .

ثم تسأل والكأس بين شفتيها :

« أَوَ تَعْلَمين ، يا أُمِّى ، متى يَعود أخى ؟ فلقد حضرتُ لأكلِّمه » .

نظرت الأمُّ الطيبة إلى ابنتها حائرةً من غير أن تجيب .

« يجب أن أراه ، فقد قُبِضَ على زوجى فى هـــذا الصباح وسِيقَ إلى اللُّكْسَنْبُرْغ » .

وقد أَطلقَت اسمَ « الزوج » على فُورتُونه دُوشاسَّان الذى كان من الأشراف والضباط فى فرقة بُويِّه [٥] ، وكان قد أحبَّها عندما كانت عاملةَ أزياءٍ بشارع لُونبارْد فذهب بها إلى إنكلترة حيث هاجر فى ١٠ من أغسطس ، وقد كان عاشقَها فوجدت من الأدب أن تسميَه زوجَها أمام أمِّها ، وهى ترى فى نفسها أن البؤس زَاوَجَ بينهما وأن هذا قِرانٌ عن ضُرٍّ .

---

(١) السفع : تغير لون البشرة .
(٢) الجسأة : التصلب .
(٣) اللهوم : الأكول .
(٤) سيرس : ابنة اله الزمن واله الأرض والزرع كما جاء فى الأساطير .
(٥) بويه : قائد فرنسى (١٧٣٧ — ١٨٠٠) .

وقد قَضَيا ليالىَ على مقعدٍ واحد فى حدائق لندن ، وجَمَعا كِسَر الخبز من تحت موائد الحانات ببيكادِلّى [١] غيرَ مرةٍ .

وتُصِرُّ أمُّها على عدم الجواب وتَنْظُر إليها بعين كابية [٢] .

« أنتِ لا تَسْمعين ، إذَنْ ، يا أُمِّى ؟ إن الوقت يُلِحُّ ، ويجب أن أرى إيڤَارِسْتَ حالاً ، فهو الوحيد الذى يستطيع إنقاذ فُورْتُونِه » .

الأمّ : « الأصلحُ ، يا جُولْية ، ألَّا تخاطبى أخاك » .

— كيف ؟ ماذا تقولين يا أُمِّى ؟

— أقول إن الأصلحَ أَلَّا تخاطبيه فى السيد دُو شاسَّان .

— يجب أن أفعل هذا مع ذلك !

— إن إيڤَارِسْتَ ، يا بنيّتى ، لا يَغْفِر لمسيو دُو شاسَّان ذهابَه بكِ ، وأنت تعلمين أىَّ سُخْطٍ كان يتكلم به عنه وأىَّ الأسماء كان يُطْلقه عليه .

جُولْيَـة مُتَبَسِّمةً مع صفيرٍ وهزَّةً كَتِفيْهـا مع هزوء : « أَجَلْ ، إنه يُسميه مفسداً » .

— إنه أُهين فى الصميم ، وقد أخذ على نفسه أَلَّا يَذْكُر مسيو دُو شاسَّان ، وقد مضى عامان من غير أن يَنْطِق بكلمةٍ عنه ولا عنك ، ولـكن مشاعره لم تتغير ، وأنتِ تَعْرِفينه ، وهو لا يَصْفَح عنكما مطلقاً .

— ولـكن بما أن فُورْتُونه تزوجنى ... فى لندن ...

الأمُّ تَرْفَع عينيها وذراعيها :

---

(١) بيكادلى : شارع جميل بلنـدن .

(٢) الكابى : الذى خمدت ناره .

« يكفى أن يكون فُورْتُونِه أريستوقراطيًّا مهاجراً حتى يعاملَه إيڤارِسْتُ مثلَ عدوٍّ » .

— أجيبى يا أماه ، أَوَتَظُنِّين أنه إذا ما سألته أن يتخذ لدى المتهم العامِّ ولجنـة السلامة العامة ماهو ضرورىٌّ لإنقاذ فُورتونه يَرْفِض ذلك ؟ . . ولـكنه يكون غولاً إذا ما رَفَض ، يا أُمَّاه !

— أى بُنَيَّتى ! إن أخاك رجلٌ مستقيم وولدٌ صالح ، ولـكن لا تسأليه أن يُعْنَى بمسيو دُوشاسَّان . . . أَصْغِى إلىَّ يا جُولْيـة ، إنه لا يُسِرُّ إلىَّ بأفـكاره مطلقاً ، ولا أستطيع أن أدركها لا ريب . . . ولـكنه قاضٍ ، وله مبادئُ ، وهو يسير وَفْقَ ضميره ، وإياك أن تسأليه شيئاً يا جُولْية .

— أراكِ تَعْرِفينه الآن ، وأنت تعلمين أنه فاترٌ فَظٌّ شِرِّير ليس عنده غيرُ الطمع والغرور ، وقد كنتِ تُفَضِّلينه علىَّ دائماً ، ولما كنا نحن الثلاثة عائشين معاً كنتِ تُورِدِينه مثلاً لى ، وكان يُمَوِّه عليكِ بسلوكه المصنوع وكلامه الرَّزِين فتُسبِغين عليه جميعَ الفضائل ، وأما أنا فقد كنتِ تُكْثِرين من لومى وتنسُبين إلىَّ جميعَ المعايب ، لأننى كنتُ سليمةَ الطَّوِيَّة ولأننى كنتُ أَنْمُل (١) فى الشجر ، وقد كنتِ تَنفِرين منى ، وكنتِ لا تُحِبِّين غيرَه ، دُونكِ ! إننى أَمْقُت ابنكِ إيڤَارِسْت ، إنه مُداجٍ .

— صَهْ ، يا جُولْية ، لقد كنتُ أمًّا صالحة لكِ وله ، وقد عَلَّمتكِ مِهْنةً ، ولم يَتَوَقَّفْ علىَّ أن تَبْقِى ابنةً فاضلةً فتتزوجى مَنْ هو مِنْ حَسَبك ، وقد أحببتُك حَنُوناً ولا أزال أحبُّكِ ، وإنى أعفو عنك وأحبُّك ، ولـكن لا تقولى شرًّا عن

(١) نمل فى الشجر : صعد فيهـا .

إيڤَارِسْت ، فهو ولدٌ صالح ، وقد عُنِيَ بى دائماً ، ولولاه ماذا أكونُ بعد أن تركتِنى ، يا بنيّتى ! وتركتِ مهنتَكِ ومخزنكِ لتَعيشى مع مسيو دُوشاسّان ؟ كنتُ أموتُ بؤساً وجوعاً .

— لا تقولى هكذا يا أُمّى ، فأنت تعلمين جيداً أننا كنا ، أنا وفُورْتُونه ، نُحيطُكِ بضروب العناية لو لم تَتَحوَّلى عنا بتحريضٍ من إيڤَارِسْت ، دعينى ساكنة ، إنه عاجز عن صنع الخير ، وهو لم يتظاهر بالعناية بكِ إلاَّ ليجعلَنى بَغيضاً لديك ، هو ! يُحِبُّكِ ؟ . . . أيمكنه أن يُحِبَّ أحداً ؟ ليس عنده قلبٌ ولا روح ، هو خِلْوٌ من المواهب ، خِلْوٌ ، يجب أن يكون لدى المصوِّر طبعٌ أرقُّ من طبعه .

وتُجيلُ ناظريْها حَوْلَ صُوَرِ المحترَف فتَجِدُها كما كانت حين تَرَكْتها وتقول :

« ها هى ذى روحُه ! لقد أفرغها فى صُوَره الباردة القاتمة ، وها هو ذا أورِسْتُهُ ، أُورِسْتُهُ ، ذو النظر الضارى والفم الفاسد والذى له ملامحُ المرفوع على الخازوق ، فهو يَنِمُّ عليه . . . إذَنْ ، يا أماه ، لم تُدْرِكى شيئاً ! لا أستطيع أن أَدَعَ فُورْتُونه فى السجن ، أنت تَعْرِفينهم ، أنت تَعْرِفين اليعاقبة ، محبى الوطن هؤلاء ، جميعُهم عَصَبةُ إيڤَارِسْت ، سيقتلونه ، يا أُمَّاه ، أمى العزيزة ، أُمَيْمَتى ، لا أريد أن يقتلوه لى ، أُحِبُّه ! أُحبه ! كان طيِّباً نحوى ، كنا تَعِسَيْن معاً ! دُونَك ، هذا الرِّدَنْغوتُ ثوبٌ له ، لم يَبْقَ عندى قميصٌ ، أعارنى صديقٌ لفُورْتُونه سُتْرةً ، كنتُ أعمل عند لمونادِيٍّ فى دُوڤر [1] وكان يَعْمَل عند مُزَيِّنٍ ، وكنا نَعْرِف أن الرجوع إلى فرنسة ينطوى على مخاطرةٍ بحياتنا ، ولـكننا سُئلنا عن رغبتنا فى العَوْدِ إلى باريس قياماً برسالةٍ مهمة ... فوافقْنا ، وكنا مستعدينْ لقبول رسالةٍ فى سبيل الشيطان ، وقد

---

(١) دوڤر : مدينة فى انكلترة .

دُفِعَتْ لنا أجرةُ السفر ، وأُعطينا حوالةً ماليةً على صَيْرفيٍّ بباريس ، وقد وجدنا المكاتب مُقْفَلةً لسَجْنِ هذا الصيرفيِّ الذى سيُرْسَل إلى المِقْصَلة ، ولم يكن لدينا فَلْسٌ ، وقد فَرَّ ، أو سُجِنَ ، جميعُ مَنْ كُنَّا مُلْحَقين بهم وكنا نستطيع أن نَقْصِدهم ، ولم يُوجَدْ بابٌ يُطْرَق ، وكنا نبيت فى إسطبلٍ بشارع لافام سانْزِيتْر ، وكان يبيت معنا ، على التِّبْن هنالك ، مَسَّاحُ أحذيةٍ محسنٌ فأعار عاشقى إحدى عُلَبه وفِرْجَوْناً وإناءَ طِلَاءٍ فارغاً ثلاثةُ أرباعه ، وقد كَسَب فُورْتُونه عَيْشه وعَيْشى من مَسْح الأحذية فى ميدان غريف مدةَ خمسةَ عشرَ يوماً ، ومما حَدَث يوم الاثنين أن وَضَع أحد أعضاء الهيئة الثورية رجلَه على العُلْبة وجعله يَمْسَح جَزْمَتَه ، وكان هذا جَزَّاراً سابقاً ، وكان فُورْتُونه قد ضربه برجله من الخَلْف لأنه باعه لحماً مع إخْسارِ ميزانٍ ، فلما رَفَع فُورْتُونه رأسَه ليطالب بِفَلْسَيْه عَرَفَه اللئيمُ ودعاه بالأريستوقراطىِّ وهَدَّده بالقبض عليه ، ويَتَجمع الجمهورُ ، ويتألَّف من شُجعانٍ وأشرارٍ يَصْرُخون : « قُتِلَ المهاجر ! » ويُنادُون الشُّرْطة ، وأُحْضِرُ الحَسَاءَ فى هذا الحين إلى فُورْتُونه ، وأراه مَقُوداً إلى القِسْم وسجيناً فى كنيسة سانْ جان ، وأريد أن أعانقه فأُدفع ، وأقضى الليلةَ على دَرَج الكنيسة كالكلب . . . لقد سِيقَ هذا الصباح . . . »

لم تَسْطِع جُولْية أن تُتِمَّ كلامَها ، فقد خُنِقَت زفيراً .

وتَرْمى قُبَّعتها على الأرض وتَرْكع عند قدم أمِّها :

« لقد سِيقَ فى هذا الصباح إلى سجن اللُكْسَنْبُرْغ ، أُمَّاه ! أُمَّاه ! ساعدينى على إنقاذه ، ارْحَمِى ابْنَتك ! » . وتُقْصِى رِدَنْغُوتها باكيةً ، وتَكْشِف عن صدرها إظهاراً للعاشقة والبنت ، وتُمْسِك يد أمِّها وتَضْغَطها على قلبها الخافق .

الأمُّ مُتَحَسِّرةً : « أَىْ بُنَيَّتى العزيزة ، أى جُولْيَتِى ، أَىْ جُولْيَتى ! » .

وتَضَع وجهها المبلَّلَ بالدمع على خَدَّى الفتاة .

وتَصْمُتان قليلاً ، وتَبْحَث الأمُّ فى نفسها عن وسيلةٍ لمساعدة ابنتها ، وتَرْقُب جولية نظرةَ هاتين العينين الغارقتين بكاءً .

الأمُّ مفكّرةً : « قد يَلين إيقارِستُ إذا ما كلمتُه ، فهو طيبٌ رؤوف ، ولو لم تُقَسِّه السياسة ، ولو لم يَخْضَع لنفوذ اليعاقبة ، ما ظهرت شِدَّته التى تخيفنى ولا أُدرك أمرها » .

وتُمْسِك رأسَ جُولْية بيديها :

« اسمعى يا بُنَيَّتى ، سأكلِّم إيقارِسْت ، وسأُعِدُّه ليراكِ ويُنْصِتُ لكِ ، وقد يَغْضَب إذا ما رآكِ ، وأخشى الحركةَ الأولى ... ثم إننى أَعْرِفُ أن هـذا الثوبَ يؤذيه ، وهو شديدٌ فى كلِّ ما يَمَسّ العادات والآداب ، وقد دُهِشْتُ بعض الدَّهَش حينما رأيت جُولْيَتِى بزِىِّ غلامٍ » .

— آه ، يا أماه ! إن الهجرة وفوضى المملكة الهائلةَ أسفرتا عن إيلافِ الناسِ هذه التنكُّراتِ ، وهى تُتَّخَذُ لمزاولةِ حِرْفَةٍ لا يُعْرَف ممارِسُها ولا تنتحال جوازِ سفرٍ مستعارٍ مطابقٍ لها ، وقد رأيتُ فى لندن جِيرِه الصغيرَ لابساً ثوب بنتٍ فظَهَرَ ابنةً باهرةَ الجمال ، وأنتِ توافقين ، يا أمى ، على أن هذا التنكُّر أوعرُ من تَنَكُّرى .

— بُنَيَّتِى المسكينة ، لستِ محتاجةً إلى تسويغ هـذا الأمر أو ذلك الأمرِ فى نظرى ، فأنا أمُّكِ ، وأنت بريئةٌ فى نظرى دائماً ، وسأكلِّم إيقارِسْت ، وأقول...

وتَسْكُتُ ، فهى تَعْرِف من هو ابنُها ، هى تَعْرِف ، ولكنها راغبةٌ عن اعتقاد ذلك ، ولكنها راغبةٌ عن معرفة ذلك .

« هو صالحٌ ، هو سيَصْنَع لى ... ولك ما أطلبُه منه » .

وتَصْمُتان عن نَصَبٍ ، وتنام جُولْيَة واضعةً رأسَها على الركبتين اللتين كانت

تَضَعُـه عليهما أيام كانت ولداً ، ومع ذلك فإن الأمَّ تبكى متوجِّعةً من الشرور التى تَرِدُ عليها صامتةً فى سكون هذا اليوم الثالج الذى يَسْـكُتُ فيه كلُّ شىء ، تَسْـكُت فيه الخُطَا والعَجَل والسماء .

وإن الأمر لـكذلك إذ تَسْمَع صعودَ ابنها فى السُّلَّم بسامعةٍ أرهفها الهَمُّ .

الأمّ : « إيڤارِسْت ! ... أخفى نفْسك » .

وتدفع ابنتها فى الغرفة .

إيڤارِست : « كيف أنتِ اليومَ يا أمى الصالحة ؟ » .

ويُعَلِّق إيڤَارِسْت قُبَّعته بالمِشْجَب [1] ، ويُغَيِّر ثوبَه الأزرق بسُتْرةِ عملٍ ويَجْلِسُ أمام مِسْنَدِه ، فهو قد رَسَم منذ بضعة أيامٍ أحد الانتصارات بالقَلَم الفحمىِّ واضعاً إكليلاً على جَبين جندىٍّ قُتِل فى سبيل الوطن ، وقـد كان يعالج هذا الموضوعَ بحماسةٍ لو لم تَلْتَهِم المحكمة جميعَ أيامه وتَمْلِكْ نَفْسَه ، وتَبْدُو يدُه ثقيلةً بطيئةً عن تَرْكٍ للرَّسم .

ويُنْشِد : « لا ضَيْرَ » .

الوطنية غَمْلان : « أنتَ تُغَنِّى ، أنت طيِّبُ النفس » .

— علينا أن نبتهج يا أُمى ، فلدينا حوادثُ سارَّةٌ ، فقد قُهِرَت ڤانده ، وهُزِم النمسويون ، واقتحم جيشُ الرين خَطَّىْ لُوتِر [2] وڤِسَنْبُرغ [3] ، وليس بعيـداً حلولُ اليـوم الذى تُظْهِر الجمهُورية فيه رحمتَها ، ولِمَ تَعْظُمُ جُرْأةُ المؤتمرين كلما

---

(١) المشجب : خشبات موثقة توضع عليها الثياب .
(٢) لوتر : نهر فى بفارية .
(٣) فسنبرغ : مدينة صغيرة فى فرنسة .

زادت الجمهورية قوةً ، ولِمَ يَبْحَثُ الخائنون عن طَعْن الوطن فى الظلام مع أنه يَسْحَق الأعداء الذين يهاجمونه جَهْرةً ؟ » .

وبينما كانت الوطنية غَمْلان تَحُوك جَوْرَباً كانت تلاحظ ابنها من فوق نَظَّارتها .

الأمّ : « لقد حَضَر مِثالُك الشائبُ ليطالِب بالليرات العَشْر التى أنتَ مَدِينٌ له بها فأعطيتُه إياها ، وقد كانت جوزفينُ الصغيرةُ تألَمَ من بطنها لأنها أكلت من المُرَبَّب الذى قَدَّمه النجار إليها فأَسقَيْتُها عُشباً مُغْلَيًا ... وقد حَضَر دِمَاهى ليراكَ فأَسِفَ على أنه لم يَجِدْك ، وكان يريد أن يَنْحِت رسماً من تأليفك ، وهو يَعُدُّك من النوابغ ، وقد نَظَر هذا الرجلُ الطيب إلى رسومك وأُعْجَب بها » .

إيڤَارِسْت : « إذا ماعاد السَّلْم وخُنِقت المؤامرة أخذتُ أُورِسْتِى ، وليس من عادتى أن أُعْجَب بنفسى ، ولـكنَّ هناك رأساً جديراً بدَاڤِيد » .

ويَرْسُم ذراعَ انتصاره بخطٍّ رائع ، ويقول :

« إنه يَمُدُّ سُعُوفاً ، ولـكنه يَزِيد جمالاً إذا ما كانت ذراعاه من سُعُوف » .

— إيڤَارِسْت !

— أُمِّى ؟ ...

— لدىّ حوادث ... فاحْزِرْ مِمَّنْ . . .

— لا أعْرِف ...

— من جُولْية ... من أختك ... هى غير سعيدة .

— إن من الفضائح ما صَنَعَتْ .

— لا تَقُلْ هـذا يا ولدى ، فهى أختك ، وهى ليست سيئةً ، ولها من حُسْن

المشاعر ما غذّاه الشقاء ، وهى تُحبُّك ، ويمكننى أن أُؤكّد لك يا إيڤارِسْت أنها تَطْلُب حياة جِدٍّ مثالية ، وأنها لا تُفكّر فى غير الاقتراب من أقربائها ، ولا شىءَ يَمْنَع من أن تراها ، فقد تزوَّجتْ فُورْتُونِه شاسّان .

— أَوَ كتبتْ لكِ ؟

— كلاَّ .

— وكيف علمتِ ذلك يا أُمى ؟

— لم أعلمَ ذلك بكتابٍ يا ولدى ، بل ...

ويَنْهَض ويقاطعها بصوتٍ هائل :

«صَهْ ، يا أُمى ! لا تقولى لى إنهما عادا إلى فرنسة . . . فسيكون الهلاك نصيبَهما على يد غيرى إن لم يكن على يدى ، وتظاهرى بأننى أجهل وجودَهما بباريس من أجلهما ومن أَجْلكِ ومن أَجْلى . . . ولا تَحْمِلينى على معرفة ذلك ، وإلَّا . . . » .

— ماذا تريد أن تقول يا ولدى ؟ أتريد ، أتجرُؤ ؟ . . .

— اسْمَعى لى يا أمى ، لو كنتُ أَعْلَمَ أن أختى جُولْية فى هذه الغرفة (وقد أشار بإصبعه إلى الباب المُغْلَق) لذهبتُ من فَوْرِى للوشاية بها لدى لَجنة رَقابة القسم .

وتبدو الأمُّ المسكينة كعِصابة رأسها بياضاً ، ويَسْقُط الجَوْرَب من يديها المرتعشتين ، وتقول متحسرةً بصوتٍ أضعفَ من أضعفِ حِسّ :

« لا أريد أن أعتقد ، ولكننى أرى ، أنه غُولٌ ... » .

ويَصْفَرُّ وجهُ إيڤارِسْت مثلَها ويَبْدُو الزَّبَدُ على شفتيه ويَفِرُّ ويُسْرِع باحثاً عند الوُدْية عن السُّلْوان والوَسَن (١) وما يَسْبِق العُدْمَ من طَعْمٍ لذيذ .

---

(١) الوسن : شدة النعاس .

١٩

بينما كان الأب لُونْغمار والفتاة أَتِنَايِيس يُسْأَلان فى القِسْم كان برُوتُو يُساق إلى اللُّكْسَنْبُرغ بين شُرْطيين فيَرْفِضُ البَوَّابُ أن يُضَيِّفَه معتذراً بعدم وجود مكانٍ له ، ويؤخذ الجابى الشائب إلى الكُونْسِيرْجِيرِى ويُدْخَل إلى مكتب التسجيل الذى هو غرفةٌ صغيرة فيَجِدُه مقسوماً بحاجزٍ زجاجىٍّ إلى قسمين ، وبينا كان المُسَجِّل يكتب اسم برُوتُو فى سِجِلِّ السجن إذْ يُبْصِر من خِلال ألواح الزُّجاج رجلَيْنِ مستلقيين على فراشين حقيرين فلا يُبْدِيان حَرَاكاً كالأموات ولا ترى أعينُهما الشاخصةُ شيئاً كما يَلُوح ، وكانت الأطباق والقَنَانى وكِسَرُ الخبز وبقايا اللحم تَسْتُر الأرض حَوْلَهما ، فهما من المحكوم عليهم بالإعدام ، وهما ينتظران العَرَبة التى تَنْقُلُهما إلى المِقْصَلة .

ويساقُ المُسمَّى دِيزِلِّت سابقاً إلى سجنٍ مظلم حيث يَرَى ، على وميضِ مِصباحٍ ، شخصيْن ضاجعيْن أحدهما نَفُورٌ مبتورٌ فظيعٌ والآخر ظريفٌ لطيف ، ويَعْرِض هذان السجينان عليه قليلًا من حَصيرهما العَفِن المملوء قَمْلًا وبَقًّا ، حتى لا ينامَ على الأرض المُلَوَّثة بالبرَاز ، ويقَع برُوتُو على مقعدٍ فى الدُّجْنة النَّتِنة ، ويُسْنِد رأسَه إلى الجِدار صامتاً جامداً ، ويَبْلُغ من الغَمِّ ما يَوَدُّ معه أن يَكْسِر رأسه بالحائط لو كان قادراً على هذا ، ولا يستطيع أن يتنفس ، ويَغْشَى عينيه غِطاءٌ ، ويستحوذ على أذنيْه صوتٌ طويل هادئٌ كالسكوت ، ويَشْعُر باستحمامه فى عَدَمٍ

لذيذ ، ويتجلَّى له كلُّ شيءٍ منسجماً واضحاً رائقاً عَطِراً لَيِّناً فى ثانيةٍ لا مثيلَ لهـا ، ثم عاد لا يكون .

ولما عاد إليه وَعْيُه كان أولُ فكرٍ استحوذ على نَفْسِه هو أسفَه على غَشَيانه ، فقد رأى ، كفيلسوفٍ حتى فى خَبَل اليأس ، أنه يجب أن يَنْزِل إلى قَعْرِ جُبٍّ منتظراً المِقْصَلة ليختبر أقوى لذةٍ اتفقت لحواسِّه فى حياته ، ويحاول أن يَفْقِد وَعْيَـه مُجَدَّداً ، ولـكن من غير أن يُوَفَّق لهـذا ، وهو ، على العكس ، قد أحسَّ بالتدريج أن هواءَ السجن العَفِنَ وحَرَّ الحياة يَجْلُبان لرِئتيه شعوراً ببؤسه الذى لا يُطاق .

ومع ذلك فإن رفيقيه التزما جانب الصمت عن إهانةٍ قاسية ، فلما حاول برُوتُو الأنيسُ أن يُرْضِيَ فُضُولَهما وعَرَفا أنه « سياسىٌّ » كما يُسَمَّى ، أنه من الذين كان الكلام أو الفكر جرمَهم ، لم يشعرا بأىِّ عطفٍ أو احترامٍ نحوه ، وقد كان ما يُلام عليه هذان السجينان من أمورٍ أشدَّ إحكاماً ، فكان أسنُّهما قاتلاً والآخرُ طابعاً أوراقاً نقديةً زائفةً ، وكان الاثنان راضيين بحالهما ، وكانا يَجِدان فيه حتى بعضَ مَسَرَّةٍ لهما ، وطَفِق برُوتُو يَتَنَوَّر من فَوْره أن كلَّ شيءٍ فوق رأسه حركةٌ وصوتٌ ونورٌ وحياةٌ وأن حِسانَ بائعاتِ الباله يَتَبَسَّمْن وراء ما يَعْرِضن على المارِّ الطليق السعيد من عُطُور و بُزُوز ، فتَزِيده هذه الهواجسُ قنوطاً .

ويَحِلُّ الليلُ غيرَ منظورٍ فى ظلام السجن وصمته ، ولـكن مع ثِقَلٍ وحُزْن ، ويَغْفُو برُوتُو مادًّا ساقَه على مقعده ومُسنِداً ظهره إلى الجدار ، ويَتَمثل أنه جالس تحت ظلِّ زانٍ كثيف حيث تُغَرِّد الطيور وأن الشمس الغاربة تستر النهر بنارٍ سائلة وأن طَرَف السحاب يُلَوَّن بالأُرْجُوان ، ويسير الليل ، وتفترس برُوتُو حُمَّى شديدة ، ويَشْرَب ماءً جرَّته ظَمِئاً فيَزِيد ألماً .

وفى الغد يأتى السجَّان بالحَسَاء فيَعِدُ برُوتُو ، فى مقابل مالٍ ، بإنزاله قسمَ السجن

الخاصِّ بمن يؤدون نفقاتِ أنفسهم عندما يَخْلُو مكان ، ولم يتأخر حدوث هذا ، فلما كان اليومُ التالى دعا الجابىَ الشائبَ إلى الخروج من سجنه المظلم ، فكان بروتو كلما صَعِد فى درجةٍ يَشْعُر برجوع القوة والحياة إليه ، ولما صار على البَلاط الأحمر رأى انتصاب سَريرٍ ذى سُيُورٍ مستورٍ بغِطاءٍ ردىءٍ من صوف فبكى فَرَحاً ، وما كان السَّرير الذهبىُّ الذى كان قد صنعه لأجمل راقصات الأُبرا فتُنَقِّر عليه الحمائم لِيَبْدُوَ له لطيفاً وثيراً أكثرَ من هذا السَّرير .

وكان هذا السَّرير قائماً فى رَدْهَةٍ كبيرة نظيفة مشتملةٍ على سبعةَ عشرَ سَريراً آخر فيَفْصِل بين كلِّ واحد منها ألواحٌ عالية ، وكان الرِّفاقُ الذين يقيمون هناك مؤلَّفين من أشرافٍ سابقين ومن تجارٍ وصيارفةٍ ومحترفين فلم يَضِق الشيخُ العَشَّارُ بهم ذَرْعاً لإيلافه أصنافَ الناس ، وقد أبصر أن هؤلاء الرجالَ المحرومين كلَّ لذةٍ مثله ، والمُعَرَّضين للهلاك على يد الجَلَّاد ، يُظْهِرون سُروراً وذَوْقاً كبيراً للمُزَاح ، وهو ، إذْ كان قليلَ استعدادٍ للإعجاب بالرجال ، عَزَا بِشْرَ رفقائه إلى خِفَّة روحهم التى تَحُول دون تدقيقهم فى أمرهم ، وهو قد ثَبَتَ عنده هذا الرأى من ملاحظته عُمْقَ الحُزْن فى أذكاهم ، وهو لم يُعَمِّ أن أبصر أن مُعْظَمهم يغترف من الخمر والعَرَق بهجةً تنطوى على أصلٍ صائلٍ ، سَعِرٍ أحياناً ، ولم يكونوا كلُّهم شُجْعاناً ، ولكنهم كلُّهم كانوا يُظْهِرون شجاعةً ، ولم يَنْطَوِ هذا على مفاجأة لبروتو ، بل كان يَعْرِف أن الرجال يعترفون بالقسوة والغضب والبُخْل ، لا بالجُبْن الذى يُعَرِّضهم لدى الهمج ، ولدى المجتمع الراقى أيضاً ، لخطرٍ قاتل ، ولذلك يَرَى أن جميع الشعوب هى شعوبُ أبطالٍ وأن جميع الجيوش لا تؤلَّف من غير شجعان .

وكان صليلُ السلاح وصريرُ المفاتيح وصريفُ الأقفال ونداءُ الحَرَس ودبدبةُ الوطنيين عند باب المحكمة أكثرَ من الخمر والعَرَق إسكاراً للسجناء وإيحاءً لهم

بالسَّوْداء أو الهُـذاء أو الهيجان ، ومن هؤلاء مَنْ كانوا يَقْطَعُون الحَنْجَرةَ بالموسَى أو يُلْقُون أنفسَهم من النافذة .

ولَمَّا تمْضِ ثلاثة أيام على إقامة برُوتُو بتلك الرَّدْهة حتى عَلِم من حامل مفاتيح السجن أن الأب لُونْغمار يُنْتِنُ مع اللصوص والقَتَلة بين الهَوامِّ ، و يَحْمِل على قبوله فى الغرفة التى يقيم بها حيث خَلَا سَرِيرٌ ، و بما أن العَشَّار الشائب هـذا ألزم نفسه بأن يؤدِّىَ عن الراهب الذى لم يَحْمِل معه مالاً كافياً فإنه يَصْرِف ذهنَـه فى صُنع صُوَرٍ تَعْـدِل قيمةُ الواحدة منها رِيالاً (١) ، و يَحْصُل بواسطة سَجَّانٍ على أُطُرٍ سُودٍ صغيرة ليستعين بها على صُنْع أشياء دقيقةٍ من الشَّعْر مع الإتقان ، و يُرْغَبُ كثيراً فى اقتناء هذه المصنوعات من قِبَل جَمْعٍ من الرجال يُفَـكِّرُ فى تَرْك تَذْكاراتٍ .

و يَسْمُو الأبُ لُونْغمارُ قَلْباً وروحاً فيُعِـدُّ دفاعَه منتظِراً مُثُولَه أمام المحكمة الثورية ، ولا يَفْصِل قضيَّتَه عن قضية الكنيسة فيَرَى أن يَعْرِض على قضاته ما نشأ عن دُستور الإكليروس المدنىّ من فَوْضى وفضائحَ حَوْل كنيسة يسوع ، وأن يُصَوِّر بنتَ الكنيسة البِكْرَ (٢) وهى تَشْهَر حَرْباً على البابا مُدَنِّسَةً للمُقدَّسات ، وأن يُصَوِّر الإكليروسَ الفرنسىَّ مسلوباً مغصوباً خاضعاً لعَلْمانيين خضوعاً كريهاً ، وأن يُصَوِّر الرهبانَ الذين هم جنودُ يسوعَ الحقيقيون منهوبين مشتتين ، وأن يَذْكُر سانْ غريغوارَ (٣) الأكبرَ وسانْ إيرينه (٤) ، وأن يستشهد بموادَّ كثيرةٍ من القانون الكَنَسِىِّ وفقَرَاتٍ كاملةٍ من مجموعة رسائل البابوات فى القرن الأول .

---

(١) Ecu.

(٢) بنت الكنيسة البكرهى فرنسة .

(٣) سان غريغوار الأكبر : أحد البابوات (٥٤٠ ــ ٦٠٤) .

(٤) سان ايرينه : أسقف ليون ، قتل سنة ٢٠٠ .

ويَقْضِي النهارَ كلَّه جالساً على ركبتيه عند أسفل سَريره مُثَبِّجاً[١] ، مُغَمِّساً قِطَعَ أقلامٍ باليةٍ فى المِداد والسِّنَاج[٢] وثُفْلِ القهوة ، ساتراً بخطٍّ غير مقروءٍ أوراقَ شَمْعٍ وأوراقَ صَرّ وجرائدَ وغُلَفَ كتبٍ ورسائلَ قديمةً وقوائمَ قديمةً وأوراقَ لَعِبٍ مفكِّراً فى استعمال قميصه بعد تَنْشِيتِه[٣] ، ويَرْكُم وَرَقاً فوق وَرَق ، ويُرِى هذه الحَبْصَةَ[٤] المُغْلَقة وهو يقول :

« سأُغْرِق قضاتى بالنُّور عندما أمْثُل أمامهم » .

ويُلْقِى ، ذاتَ يومٍ ، نظرةَ رِضاً على دفاعه المُزْدَادِ بلا انقطاع ويفكِّر فى أولئك القضاة الذين يُفْحِمُهم فيَصْرُخ قائلاً :

« لا أريد أن أكون فى مكانهم ! »

وكان السُّجناء الذين جمعهم القَدَر فى هـذا السجن المظلم من المَلَكيين والاتحاديين ، وكان يوجد بينهم يعقوبىٌّ أيضاً ، وكانوا يختلفون فيما بينهم رأياً حَوْل الأسلوب الذى تُسَيَّر به شُؤون الدولة ، ولم يكن عند أىٍّ واحدٍ منهم بقيةٌ من العقائد النصرانية ، وكان الفُويَّان والدستوريون والجيروندِيُّون يَجِدُون الرَّبَّ وَبِيلاً عليهم جَوَاداً على الشعب ، وقد أقام اليعاقبة إلهاً يعقوبيًّا مقامَ يَهْوَه إنزالاً لليعقوبية من الأعلى إلى الدنيا ، ولكنْ بما أن هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا أن يتصوروا إمكانَ انحراف المرءِ عن الصواب فى اعتقاده ديناً مُنَزَّلاً ، وبما أنهم أبصروا تَحَلِّىَ الأب لُونْغار بشىءٍ من الذكاء فقد عَدُّوه مداجياً ، ولا ريب فى

---

(١) ثبج : عمى الخط .
(٢) السناج : أثر الدخان .
(٣) Amidonner .
(٤) Barbouillage .

أنه أراد إعدادَ نفسه للشهادة فأظهر إيمانَه عند كلِّ مقابلة ، وهو كلما أبدى سلامةَ قلبٍ بدَا لهم مُرَائياً .

ومن العبث توكيدُ برُوتُو لِحُسْن نية الراهب ، ومن الواقع عدمُ إيمان برُوتُو بغير قسمٍ مما يقول ، وكانت أفكاره من الغرابة ما تَظْهَرَ معه بادية التكلُّف فلا تُقْنِع إنساناً إقناعاً تامًّا ، وكان يقول عن جانْ جاك إنه لئيم صفيق ، وعلى العكس كان يجعل ڤُولْتير[١] من أكمل الرجال ، وذلك من غير أن يضعه فى مصافِّ الأنيس إلْڤِسْيُوس وديدِروُ[٢] والبارون أُلْبَاك ، وبُولانْجِه هو الذى يرى أنه أعظم عباقرة العصر ، وكان كثيرَ التقدير للفلكىِّ لا لَنْد[٣] ولمؤلِّف « مذكِّرة عن أصل الأفلاك » دُوبْوِى[٤] ، وكان ذوو اللَّقَانة[٥] من أهل الحُجْرة يَحُوكون ألفَ دُعابةٍ حَوْلَ الراهب البَرْنابىِّ المسكين من غير أن يَفْطَن لهذا مطلقاً ، وما اتصف به من بياض القلب يُحْبِط أَشراكَهم .

وكان السُّجَنَاء يُقْصون همومَهم التى تَقْرِضهم ، ويُفْلِتُون من مَضَض البِطالة ، بلُعْبة الدَّاما والورق والنَّرْد ، ولم يكن ليؤْذَن فى اقتناء أىَّ نوعٍ من آلات الطَّرب ، وكان يُغَنَّى ويُنْشَدُ بعد العَشاء ، وكانت قصيدةُ « العذراء » لڤُولْتير تَكْشف بعض الهموم عن قلوب هؤلاء البائسين الذين لم يكونوا ليَتْعَبوا من سماع أروع ما فيها ، ولكنْ بما أنهم كانوا لا يستطيعون أن يتشاغلوا عن الخيال الفظيع المستقرِّ بأفئدتهم فإنهم كانوا يحاولون أن يجعلوا منه أُلْهِيَّة فيُمَثِّلون المحكمة الثورية قبل

---

(١) فولتير : كاتب فرنسى مشهور (١٦٩٤ – ١٧٧٨) .
(٢) ديدرو : فيلسوف فرنسى (١٧١٣ – ١٧٨٤) .
(٣) لالند : فلكى فرنسى (١٧٣٢ – ١٨٠٧) .
(٤) دوبوى : عالم فرنسى وعضو فى مجلس العهد (١٧٤٢ – ١٨٠٩) .
(٥) اللقانة : سرعة الفهم .

النوم فى الغرفةِ ذات الثمانيةَ عشرَ سريراً ، وكانت الفصول تُوَزَّع على حسب الأذواق والقابليات ، فيُشَخِّصُ بعضُهم المتَّهِمَ والقضاةَ ويشخص بعض آخرُ المتهمين والشهود ، ويُشَخِّص آخرون الجَلَّادَ وخادميه ، وكانت القضايا تنتهى حتماً بإعدام المحكوم عليهم وذلك بأن يُمَدَّ هؤلاء على سَريرٍ وأن تُجْعَل أعناقُهم تحت لَوْح ، ثم يُنقَل إلى الجحيم حيث يَغْدُو أسرعُ مَنْ فى الجَمْع أشباحاً مُكفَنَّة ، ويَبْدُو محامٍ شابٌّ من بُورْدُو ، اسمُه دُوبُوسْكُ ، قصيراً أسودَ أعورَ أحدبَ متعوِّجاً ذا قرنين ممثِّلا للشيطان الأعرج فيَجُرُّ الأبَ لُونغار من رجليه إلى خارج سريره مخبراً إياه بأنه محكوم عليه بالخلود بين اللَّهَب حُكماً مُبْرَماً ، لأنه جعل من خالق الكَوْن موجوداً حاسداً سفيهاً طاغياً عدوًّا للنعيم والغرام .

هذا الشيطان مزمجراً : « آهْ ! آهْ ! آهْ ! أنت قلت للناس ، أيها الشائب الأسمر ، إن مما يَسُرُّ الرَّبَّ أن يَرَى مخلوقاتِه ذاوِين فى التوبة زاهدين فى أغلى هِبَاته ، اجْلِسْ على المسامير أيها الدَّجَّال المداجى المنافق وكُلْ من القَيْض[1] إلى الأبد ! » .

ويكتفى الأبُ لُونْغارُ فى جوابه عن تلك الكلمة بقوله إن الفيلسوف يستوحى الشيطان وإن أقلَّ عِفْريتٍ فى الجحيم لا يَنْطِق بمثل ما يقول من هُرَاءٍ لِمَا عنده من قليل علمٍ باللاهوت ولكونه أقلَّ جهلاً من مَوْسُوعِيٍّ[2] لا ريب .

غير أنه اشتاط غيظاً عندما دعاه المحامى الجيروندىُّ راهباً كبُوشيًّا وقال إن مَنْ يَعْجِزُ عن تمييز البرنابىِّ من الفرنسيسكىِّ لا يستطيع أن يَرَى ذُبابَةً فى اللَّبَن .

وقد فَرَّغت المحكمةُ الثورية السجونَ التى تملؤها اللِّجان بلا انقطاع فَجُدِّد نصفُ غرفة الثمانيةَ عشرَ فى ثلاثة أشهر ، وقد فقد الأبُ لونغارُ شيطانَه ، وذلك أن

---

(١) القيض : قشر البيض .

(٢) Encyclopediste

المحامى دُو بُوسْك مَثَلَ أمام محكمة الثورة مُحكِم بإعدامه لاتحاديَّته ولائتماره بوَحْدَة الجمهورية ، فلما خَرَج من المحكمة مَرَّ ، كجميع المحكوم عليهم ، من مجازٍ قاطعٍ للسجن نافذٍ إلى الغرفة التى أنعشها بمَرَحه مدةَ ثلاثةِ أشهر ، ولما وَدَّع رفقاءه كان محافظاً على عادته فى الجَذَل وطِيب النفس .

قال للأب لُونْغمار : « اغفر لى جَرِّى إياك من رجليك حينما كنتَ فوق سَريرك ، فلن أعودَ إلى ذلك أبداً » .

ويلتفت إلى الشيخ برُوتُو ويقول له :

« وَداعاً ، إننى أسْبِقُك إلى العَدَم ، وأُسلِّمُ إلى الطبيعة عناصرَ تركيبى راجياً أن تُحْسِن استعمالها فى المستقبل ، وذلك لأنه يجب أن يُعْتَرف بأنها لم تُتْقِنْ صُنْعى » .

ويَنْزِل إلى غرفة السِّجلِّ تاركاً بروتُو حزيناً والأبَ لُونْغمارَ راجفاً أخضرَ كورق الشجر ميتاً أكثرَ منه حيًّا لِمَا رأى من ضَحِك الملحد على شَفَا الهاوية .

ولماحَلَّ جِرْمِينَال[1] ، وأَتَى بالأيام الصافية ، صار برُوتُو يَنْزِل كلَّ يومٍ عِدَّة مرات إلى الساحة النافذة إلى قسم النساء بالقرب من العَيْن التى يَقْصِدها السجينات صباحاً لغَسْل ثيابهن ، وكان يَفْصِلُ ما بين القسمين سِياجٌ ، غير أن القُضْبان لم تكن من الاقتراب ما تَحُول معه دون اجتماع الأيدى والتقاء الأفواه ، فكانت الأزواج تَتَراصُّ تحت ستار الليل ، وهنالك يَلْجَأ برُوتُو إلى السُّلَّم خِفْيةً ويَجْلِسُ على درجةٍ ويُخْرِج من جيب رِدِنْغُوته البُرْغُوثىِّ ديوانَ لُوكْرِيس ويَقْرأ على نور مصباحٍ بعضَ الحِكَم المُفرِّجة للكرب ، ومن ذلك : « يَحْدُث هذا حيث لا نكون . . . فإذا ما انقطعت حياتنا لم يَسْطِع شىءٌ أن يثيرنا ، حتى السماء والأرض والبحار عند

---

(١) الشهر السابع من السنة الجمهورية .

اختلاط بقاياها ... » ، غير أن بُروتُو كان ، مع تمتعه بحكمته العالية ، يَغْبِط الراهب البَرْنَابيَّ على تلك الحماقة التى تخْفِى عنه الكَوْن .

ويَعْظُم الهَوْلُ شهراً بعد شهر ، ويذهب السَّجَّانون السُّكَارَى فى كلِّ ليلةٍ من سجنٍ إلى سجن مع كلاب حراستهم حاملين إعلاناتِ اتهام منادين أسماءً بصوتٍ عالٍ مع سوء نطقٍ مُوقِظين السُّجَناءَ مُرْعِبين مئتى رجلٍ من أَجْل عشرين ضحيةً ، وكان فى هذه الدهاليز المملوءة بالظِّلال الدامية يَمُرُّ كلَّ يوم ، من غير عويلٍ ، عشرون أو ثلاثون أو خمسون من الشِّيب والنساء والشبان المحكوم عليهم والمختلفين حالاً وطِباعاً وشعوراً فيَسْأل الإنسانُ فى نفسه عن كونهم أُفْرِزوا بالقرعة .

وكان يُلْعَب فى الورق وتُشْرَبُ خمرُ بُرْغُونيَة وتُرْسَمُ الخِطط ويُوفَى بالمواعيد عند السِّيَاج ، والآن يتألف مُعْظَمَ الجَمْعِ ، المُجَدَّدِ تماماً تقريباً ، من « متطرفين » و« حانقين » ، ولا تزال غرفة الثمانيةَ عشرَ سريراً مقرَّ الظَّرْف وحسنِ الانسجام ، إذا عَدَوْتَ سجينين وُضِعا هنالك ، بعد نَقْلٍ من اللُّكْسَنْبُرغ إلى الكُونسيرْجيرى ، ومع اشتباهٍ فى كونهما من « الغَنَم » ، أى من الجواسيس ، إذا عَدَوْت ناقِتِ و بِلْيِه هذيْن ، لم تَجِدْ هنالك غيرَ أحرارٍ متبادلى الثقة ، وهنالك كان يُحْتَفل بانتصارات الجُمهورية والكأسُ فى اليد ، وهنالك كان يَلْتقى كثيرٌ من الشعراء كما يُرَى فى جميع اجتماعات ذوى البطالة ، وكان أبرعُهم يَنْظِمون قصائدَ عن انتصارات جيش الرين و يُنْشِدونها مفاخرين ، وكان يُهْتَف لهم بضجيج ، و برُوتُو وحدَه هو الذى كان يَمْدَح الغالبين وشعراءهم بِفُتُور .

وقد قال ذاتَ يومٍ : « هذا هَوَسُ شعراءَ غريبٌ ، منذ عصر أُوميرس[1] ،

---

(١) أوميرس : شاعر اليونان المشهور ، وهو صاحب الالياذة والأوذيسة ، ويشك كثير من العلماء فى ظهوره .

فى تمجيد العسكريين ، وليست الحربُ فنًّا ، والمصادفةُ وحدَها هى التى تُقرِّر مصيرَ المعارك ، فلا بُدَّ من انتصار أحد القائدين الأحمقين المتقابلين ، وانتظروا اليومَ الذى يبتلعكم فيه أحدُ حَمَلةِ السيوف الذين تُعظِّمونهم كما يَبْتَلِع الضفادعَ غُرْنُوقٌ (١) الأُسْطُورَة ، وهنالك يصبح إلهًا لا ريب ! وذلك لأن الآلهة يَعْرِفون قَدْرَ أنفسهم عند التَّوَقان » .

ولم يتأثَّرْ بروتو بمجد السلاح قطُّ ، ولم يُسَرَّ بروتو قطُّ بانتصارات الجمهورية التى كان قد تَوَقَّعها ، ولم يُحِبَّ بروتو قطُّ النظامَ الجديد الذى يُوَطِّدُه النصر ، فبروتو كان ساخطًا . . .

ويُعْلَمُ ذات صباحٍ أن مندوبى لجنة السلامة العامة يُفَتِّشون لدى المسجونين ويَقْبِضون على ما يَجِدُون من ورق نقدىّ وأدواتٍ فضية وذهبية ومُدْياتٍ ومَقَاصَّ ، وأن مثلَ هذا التفتيش قد وَقَع فى اللُّكْسَنْبُرغ فَحُجِزَت رسائلُ وأوراقٌ وكتبٌ .

وهنالك يحاول كلٌّ أن يَجِدَ مَخْبأً يَضَعُ فيه أثمنَ ما عنده ، فيَحْمِل الأبُ لُونْغمارُ دفاعَه بين ذراعيه إلى مِزْراب ، ويَضَعُ بروتو ديوانَ لُوكْرِيسَ تحت رَمادِ مَوْقِد .

ولما حَضَر المندوبون المُطَوَّقون بشُرُطٍ مثلثةِ الألوان ليَحْجُزُوا ما يَرَوْن لم يَجِدُوا غيرَ ما رَأَوْ من المناسب تركَه للسُّجَناء ، ولما انصرفوا أُهْرِع الأبُ لُونْغمار إلى الميزاب وجَمَع من دفاعه ما تركه الماء والريح ، ويُخْرِجُ بروتو لُوكْرِيسَه من المَوْقِد أسودَ من السِّنَاج .

ويقول فى نفسه : « لنتمتعْ بالساعة الحاضرة ، وذلك لأننى أُبصر من بعض العلائم أن ما بَقِىَ لنا من الزمن محدود » .

---

(١) الغرنوق : طائر مائى أسود يشبه الكركى .

وبَيْنَا كان القمرُ ، فى ليلةٍ معتـدلةٍ من ليالى بِريرْيال[1] ، يُبْدِى قَرْنيْـه الفِضِّيين فى السماء الشاحبـة فوق ساحة السجن كان الجابى الشائبُ يقرأ ديوان لُوكْرِيسَ على درجةٍ من السُّلَّم الحجرية فيَسْمَع صوتاً يناديه ، يَسْمَع صوتَ امرأة ، يَسْمَع صوتاً لطيفاً لم يعرِفه ، وينزل إلى الساحة ويَرَى وراء السِّياجِ شكلاً لم يعرِفه أيضاً ، وإنما تُذَكِّره استداراتُه المبهمة الفاتنـة بجميع النساء اللائى كان قد أحبَّهن ، وكانت السماء تغشاه بالزُّرْقة والفِضة ، فعَرَف برُوتُو من فَوْرِه أنه ممثلةُ شارع فِيْـدُو الحسناء : رُوزْ تِفنَان .

برُوتُو : « أنتِ هنا يا بُنَيَّتِى ! إن من المؤلم أن أُسَرَّ برؤيتكِ هنا ، ومنذ كَمْ ، ولِمَ ، أنتِ هنا ؟ » .

— منذ أمسِ .

وتُضِيف إلى هذه الـكلمة مخافتةً :

« لقـد اتُّهِمتُ بأننى ملَـكية ، وقد اتُّهِمْتُ بأنني ائتمرتُ لإنقاذ الملِـكة ، وبما أننى كنتُ أعلم أنكَ هنا فقـد حاولت أن أراك حالاً ، فاسْمَعْ يا صديقى . . . وذلك لأنك تَوَدُّ أن أدعُوَك بهذا الاسم ! . . . أَعْرِف أناساً من أصحاب المنـاصب العالية ، وأَعْرِف وجودَ أناسٍ يَعْطِفون علىَّ حتى فى لجنة السلامة العامة ، سأَحْمِل أصدقائى على العَمَل ، فيُنقِذوننى ثم أُنقذكَ » .

غير أن برُوتُو يقول بصوتٍ ضاغط :

« أستحلفكِ ، يا بُنَيَّتِى ، بكلِّ عزيزٍ لديكِ أَلَّا تَفْعَلى هـذا ! فلا تكتبى ولا تلتمسى ، ولا تطلبى شيئاً من أحد ، أَضْرَعُ إليكِ أن تَنْسَىْ » .

وبما أنها لم تتأثَّر بما قال لها كما لاح بَدَا أكثرَ تَوَسُّلاً فقال :

---

(١) الشهر التاسع من السنة الجمهورية .

« الزَمى جانب الصمتِ يا رُوز، احمْلِى نفسكِ على النسيان ، فهنالك السلامة ، وكلُّ ما يحاوله أصدقاؤكِ يُسْفِرُ عن تعجيل هلاكِ ، تَرَيَّثِى ، فقد لا يَمْضِى وقتٌ قصيرٌ حتى يتمَّ إنقاذُكِ كما أرجو . . . ولا تحاولى تحريكَ القضاة والمحلَّفين وغَمْلان ، فهؤلاء ليسوا أناساً ، بل أشياء ، ولا يُعْرَبُ عن الأفكار للأشياء ، انْسَىْ ، و إذا ما اتبعتِ نصيحتى ، يا صديقتى مِتُّ سعيداً بإنقاذى حياتكِ » .

وتُجيبُ عن هذا :

« سأُطيعكَ . . . ولا تتكلَّمْ عن الموت » .

ويَرْفَع كَتِفيْه تهكماً ، ويقول :

« لقد انتهت حياتى يا بنيّتى ، فعيشى وكونى سعيدة » .

وتَقْبِض على يديه وتَضَعُهما على صدرها وتقول :

« اسْمَعْ يا صديقى ... لم أَرَكَ غيرَ يومٍ واحد ، ومع ذلك لم أكُ غيرَ مكترثةٍ لك ، و إذا كان ما أقوله يُمْكِن أن يَرْبِطك بالحيـاة فَثِقْ أننى أكون لك ... كما تريد » .

ويُقَبِّل كلٌّ منهما الآخرَ على فمه من خِلال السِّيَاج .

٢٠

بينما كان إيڤارِسْت غَمْلان مُتَبوِّئاً مقعدَه من المحكمة فى جلسةٍ طويلة ، وكان الجوُّ حارًّا ، أغمض عينيه وقال فى نفسه مفكِّراً :

« أكرهَ الأراذلُ مارا على الاختفاء فى الحُجُرات فجعلوا منه طائرَ ليل ، جعلوا منه طائرَ مِنيرْڤَا الذى يطَّلِع بعينيه الثاقبتين على المؤتمِرين فى الظلام . والآن تَرَى بصراً أزرقَ فاتراً هادئاً يَنْفُذُ أعداءَ الدولة ويَشِى بالخوَنة بدقةٍ لم يَعْرِفها حتى صديقُ الشعب الراقدُ إلى الأبد فى حديقة الكُوردلْيه ، ويرى المنقِذُ الجديد ، الغَيُور البصيرُ كالمنقذ الأول ، ما لم يَرَه إنسانٌ آخر ، ويَنْشُر الهولَ إصبعُه المرفوع ، وهو يُفَرِّق بين أدقِّ الأشكال وأخفاها ، فيَميزُ الشَّرَّ من الخير والرذيلةَ من الفضيلة ، أى يفصل بين أمورٍ لولاه لاختلطت اختلاطاً ضارًّا بالوطن والحرية ، وهو يَرْسُم خَطًّا دقيقاً متيناً لولاه لم يُوجَدْ عن الشمال واليمين غيرُ الضلال والإجرام والفُجُور ، ويُعَلِّمُ هذا النزيه كيف يُخْدَم الأجنبىُّ بالمبالغة والضعف عن اعتداء على الشعائر الدينية باسم العقل وعن مقاومةٍ للجُمهورية باسم الدين ، وليس أقلَّ خدمةً للأجنبىِّ من هؤلاء الفَجَرة ، الذين ذَبَحُوا لُويلْتيه ومارَا ، أولئك الذين أَسبغوا عليهما شَرَفاً إلهيًّا مُعَرِّضين ذِكراهما للخطر ، فمَنْ يَنْبِذ مبادئَ النظام والحِكْمة والأدب فهو عاملٌ للأجنبى ، ومَنْ يُسَفِّه العاداتِ والفضيلةَ فهو عاملٌ للأجنبىِّ ، ومن يُنْكِرِ الإله عن فسادِ فؤادٍ فهو عاملٌ للأجنبىِّ ، أجَلْ ، إن القِسِّيسينَ المتعصبين

يستحقُّون القتل ، غير أنه يوجد أسلوبٌ تقاوَم به الثورة بمناهضة التعصب ، فبالعنف يُقْضَى على الجمهورية كما يُقْضَى عليها بالاعتدال .

« وَيْ ! يا لواجبات القاضى الهـائلة التى يُمْليها أكثرُ الناس حكمةً ! ليس الأريستوقراطيون والاتحاديون وفُجَّارُ حزب أُورْليان هم أعداءَ الوطن الزُّرْقَ الذين يجب ضربهُم ، فهناك عامِلُ الأجنبىِّ المؤتمِر الذى ينتحل جميع الأشكال كبِرُوته [١] ، هناك هذا الذى يتظاهر بالوطنية والثورية وعداوةِ الملوك ، هناك هـذا الذى يتكلَّف قوةَ قلبٍ لا يَنْبِض إلاَّ للحرية والذى يُشَدِّد صوتَه ويُرْعِدُ أعـداءَ الجمهورية ، هناك دَنْتُونُ الذى يستتر اعتداله الممقوتُ تحت عنفه ، ثم يَظْهَرُ فسادُه فى نهـاية الأمر ، وهناك المؤتمِرُ وعاملُ الأجنبىّ ، هنـاك الأَلْـكنُ اللَّسِن الذى وَضَع على قبعتـه إشارةَ الثوريين الأولى ، هناك هذا الهَمَّازُ [٢] الذى دَعَا نفسَه « حارسَ الفانوس » عن وطنيةٍ جائرة ساخرة ، هنـاك كَمِيل دِيمُـولاَن [٣] الذى نَمَّ على نَفْسِه بالدفاع عن القُـوَّاد الخائنين والمطالبةِ باتخاذ تدابيرَ جزائيةٍ راحمـةٍ فى غير أوانها ، وهناك فليبُّـو وإيرُو [٤] والنَّـذلُ لاكروَا [٥] ، وهنـاك المؤتمِرُ وعاملُ الأجنبىِّ الأب دُوشِن [٦] الذى أهان الحرية بشَغَبه السافل والذى جعل أنطوانتَ نفسَها موضَع التفاتٍ بمثالبه القَذِرة ، وهناك شُومِت [٧] الذى هو زِنديقٌ وإن ظهر

---

(١) بروته : اله البحر الذى يغـير شكله كما يريد كما جاء فى الأساطير .
(٢) الهماز : العياب الطعان .
(٣) كميل ديمولان : من أعضاء مجلس العهد (١٧٦٠ ـ ١٧٩٤) .
(٤) ايرو : رئيس مجلس العهد (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤) .
(٥) لاكروا : رئيس مجلس العهد (١٧٥٤ ـ ١٧٩٢) .
(٦) الأب دوشن : اسم ايبر المستعار ، وكان من رجال السياسة الفرنسيين (١٧٥٧ ـ ١٧٩٤) .
(٧) شومت : وكيل النيابة لدى الهيئة الثورية (١٧٦٣ ـ ١٧٩٤) .

لَيِّناً شعبياً معتدلاً ساذجاً فاضلاً فى إدارة الهيئة الثورية ! وهنـاك المؤتمرون وعمالُ الأجنبىّ وجميعُ السَّانْ كُولُوت اللابسون قلانسَ حُمْـراً وسُتَراً قصيرةً وخِفافاً ، هناك هؤلاء الذين زايدوا اليعاقبةَ وطنيةً كالمجانين ، وهناك المؤتمِر وعاملُ الأجنبىِّ وخطيبُ النوع البشرى أنا كارْسِيسْ كلُوتس [١] ، هناك هـذا المحكومُ عليه بالإعدام من قِبَـل جميعِ ملَـكيات العالَم ، ولـكن مع وجوب خشيته ، لأنه كان برُوسيًّا .

« والآن هَلَك هؤلاء المعتدلون والعُنُف ، هَلَك جميعُ هؤلاء الأشرار الخائنين ، هَلَك دَنْتُون وديمُولاَن وإيبِر وشُومِت تحت ساطور [٢] المِقْصَلة ، والآن أُنْقِذَت الجُمهورية ، ويتصاعد من جميع اللِّجان والمجالس الشعبية نشيدُ مدائحَ نحوَ مَكْسِيمِيلْيان والجبل ، ويَهْتِف خِيَارُ الوطنيين قائلين : « أَىْ ممثلى الشعب الحُرِّ الأماثل ، إن من العبث أن رَفعَ أبناءُ الجبابرة رؤوسَهم المتعاظمة ، ويا أيها الجبلُ الجواد ، ويا سينياء الحامى ، لقد خرجَت الصاعقةُ من باطنك . . . »

« وللمحكمة فى هذا النشيد نصيبُها من المدائح ، وما أحسن تَحَلِّىَ الإنسان بالفضيلة ! وما أعزَّ شُكْرانَ الناس على قلب القاضى العفيف !

« ومع ذلك ، يا لَعوامل الحَيْرَة وعِلَل الجَزَع لصاحب قلبٍ وطنىّ ! ماذا ؟ إذَنْ ، ألم يَكْفِ مِيرابُو ولافايت وبايىِّ وبِسْيُون وبريسُّو لخيانة قضية الوطن ؟ كان لابُدَّ لهذا ممن وَشَوْا بهؤلاء الخائنين أيضاً ، ماذا ؟ إن جميع مَنْ صنعوا الثورة لم يَصْنعوها إلاَّ ليَقْضُوا عليها ! لقد كان صانعو الأيام الـكبرى هؤلاء يُعِدُّون مع

---

(١) أنا كارسيس كلوتس : من أعضاء مجلس العهد (١٧٥٥ ـ ١٧٩٤) .

(٢) الساطور : ما يقطع به اللحم .

بِيت وكُوبُورْغ ملَـكيةَ أُورْلِيانَ أو وصايةَ لويسَ السابعَ عشرَ ، ماذا ؟ كان دَنْتُونُ مُونْكَ[1] بنفسه ، ماذا ؟ لقد ائتمر شُومِت وأنصارُ إيبر ، وهم أكثرُ غدراً من الاتحاديين الذين دفعوهم إلى المِقْصلَة ، بالإمبراطورية ليُقَوِّضوا دعائمها ! ولـكن ألا تَـكْتشف فى الغد عينُ رُوبِسْـپيرَ الزرقاء ، التى كانت بين من دَفَع دَنْتُون وشُومِت ومن إليهم من الخائنين إلى المِقْصلَة ، أناساً أشدَّ خيانةً من هؤلاء ؟ وأين يَقِفُ تسلسلُ الخَوَنةِ الـكريهُ ؟ وأين تَقِفُ بصيرةُ ذلك النزيه ؟ . . . »

---

(١) مونك : قائد انكليزى من رجال ثورة كروميل ، فلما تخلى هذا الأخير عن سلطانه أعاد مونك الملك شارل الثانى الى العرش (١٦٠٨ ــ ١٦٧٠) .

٢١

ومع ذلك فإن جُولْية غمْلان ، اللابسة رِدِنْغُوتَها الأخضر ، تذهب كلَّ يوم إلى حديقة اللُّكْسَنْبُرغ وتَجْلس على مقعدٍ بطرفِ مَمَرٍّ وتنتظر الدقيقةَ التى يَظْهَر فيها عاشقها عند إحدى نوافذ هذا القصر ، ويتبادلان الإشارات ، ويتبادلان الأفكار بلغةٍ صامتةٍ تَخَيَّلاها ، وهى تَعْرِف بهذه الوسيلة أن السجين يَشْغَل غرفةً جيدة ، وأنه يصاحب رفقاءَ لُطَفاءَ ، وأنه محتاجٌ إلى غِطاءٍ ومِحَمٍّ (١) وأنه يحبُّ خليلته .

ولم تكن وحيدةً فى انتظار وجه محبوبٍ فى هذا القصر الذى حُوِّل إلى سجن ، فقد كان يوجد بجانبها أمٌّ فتاةٌ دائمةُ النظر إلى إحدى النوافذ المُغْلَقة ، فإذا ما رأت فتح هذه النافذة رفعت طفلَها بذراعيها على رأسها ، وقد كانت إحدى العجائز تَظَلُّ حتى إقفال الحديقة جالسةً ساكنةً مُدَّةَ ساعاتٍ على كرسىٍّ سَهْلِ الثَّنْى مبرقعةً بمُخَرَّماتٍ راجيةً ، على غير جَدْوَى ، أن ترى لدقيقةٍ ابنَها الذى كان يَلْعَبُ بِمَطَّةٍ (٢) فى ساحة السجن خَوْفَ التَّرَهُّل (٣) .

وفى أثناء هذه الانتظارات كان يُرَى تحت سماءٍ زرقاءَ ، أو ذاتِ غَمامٍ ، رجلٌ كهلٌ ضَخْمٌ قليلاً نظيفٌ كثيراً جالسٌ على مقعدٍ مجاورٍ ملاعباً مِسعطاً وتُحْفَةً

---

(١) المحم : وعاء يسخن فيه الماء .

(٢) المطة : خشبة مستديرة يلعب بها .

(٣) ترهل : استرخى لحمه وانتفخ ، والترهل نقيض الاكتناز .

فى سلسلة ساعته باسطاً جريدة من غير أن يقرأها مطلقاً ، وكان لابساً ، على الزِّىِّ البُرْجوازىِّ القديم ، قَلَنْسُوَةً ذاتَ ثلاث قرن وذاتَ ضفائرَ ذهبيةٍ وثوباً بنفسجيًّا ضارباً إلى حُمْرَة وصُدْرةً زرقاء مُطَرَّزةً بفضة ، وكانت تبدو عليه مخايل الأنس ، وكان يُحْكَمَ بأنه موسيقىٌّ عند النظر إلى النَّايِ الظاهرِ طرفُه من جيبه ، وكان لا يَغْفُل عن الغلامِ غيرِ الحقيقىِّ طَرْفَة عين ، ولا ينفكُّ يَتَبسَّم له ، فلما نَهَض الغلام نَهَض الكهلُ وتَبِعه من بعيد ، وتَشْعُر جولية البائسةُ المنزوية ، متأثرةً ، بما يساور هذا الرجلَ الطيبَ من عطفٍ خفىٍّ نحوها .

وبينما كانت خارجةً من الحديقة ذاتَ يومٍ أخذ المطر يَنْزِل ، ويَدْنُو الرجلُ الطيبُ منها ويفتح مِظَلَّته الحمراء الواسعة ويَطْلُب منها أن تسمح له بأن يقيها من المطر ، وتوافقه على هذا بصوتٍ خفيفٍ واضح ، ولكنه ابتعد بشدَّةٍ عند سماع هذا الصوت أو عن انتشاقٍ دقيقٍ لرائحة امرأة مُعَرِّضاً الفتاةَ لمطرٍ عاصف ، فتُدْرِك الفتاةُ مغزَى ذلك متبسمةً مع همومها .

وكانت جُولْية تقيم بغرفةٍ تحت جَمْلُونٍ بشارع شِرْشْ ميدِى ، وتتظاهر بأنها كاتبُ بائعِ أجواخٍ باحثٌ عن عملٍ له ، وأخيراً تَقْنَع الوطنيةُ الأيِّم غَمْلان بأن الخطرَ لا يحيق بابنتها إلاَّ إذا كانت قريبةً منها ، فتُقْصيها من ميدان تيُونْفيل وقِسْمِ اليُونْ نُوف ، وتُمِدُّها بالزاد واللِّباس جُهْدَ الاستطاعة ، وكانت جُولية تَصْنع قليلَ طعامٍ وتَذْهَب إلى اللُّكْسَنْبُرغ لترى عاشقَها العزيزَ وتَعُودَ إلى مَخْدَعها ، وكانت نَمَطِيَّةُ هذا المُقام تُهَدْهِدُ كُرُوبَها ، فتنام الليلَ كلَّه نوماً عميقاً عن فَتَاءٍ وقوة ، وبما أنها كانت غاويةً بطبعها دَرِبَةً على المغامرات ، هائجةً بما تَلْبَس من ثوبٍ على ما يحتمل ، فإنها تذهب فى بعض الليالى إلى لِمُونَادىٍّ بشارع لافُور مُنْتَحِلٍ شِعَارَ الصليب الأحمر يَتَرَدَّدُ إليه أناسٌ من كلِّ صنف ونساءٌ من ذوات

الظَّرْف والدلال ، وكانت تقرأ هنـاك صُحُفاً وتَلْعَب بالنَّرْد مع خَدَم الدكان أو مع جنودٍ يُشْعِلُون غليونَها ، وهناك كان يُقْضَى كبيرُ وقتٍ فى الشرب واللَّعِب والغرام والجَدَل ، ومما حَدَث ذات عِشاءٍ أن رَفَعَ الستارَ شِرِّيبٌ على حِسِّ جَوَلانٍ فوق مَفْرِقِ طريقٍ ، وأن عَرَف رئيسَ الحرس الوطنىِّ ، الوطنىَّ أَنْرِيو (١) ، الذى مَرَّ مُسْرِعاً مع أركان حربه فقال الشرِّيبُ مخافتاً :

« ها هو ذا السِّكير ! »

وهنا تُقَهْقِهِ جُولْية .

غير أن وطنيًّا غَيُوراً طويلَ الشارين قال بشدَّة :

« إن من يقول هذا هو م ... أريستوقراطىٌّ يسُرُّنى أن أراه فى سَلَّة شَمْشُون ، فاعْلَمُوا أن الجنرال أَنْرِيو وطنىٌّ صالح قادر على الدفاع عن باريس ومجالسِ العهد عند الضرورة ، وهذا مالا يَصْفَحُ عنه المَلَكيون مطلقاً » .

ويقول الوطنىُّ الغَيُورُ الطويلُ الشارين مُحَمْلِقاً إلى جُولْية التى ما فتئت تَضْحَك :

« احترزْ أيها الغلام الغِرّ ، وإلاَّ ضربتُكَ برجلى على أَلْيَتِك لأعلِّمك كيف تحترم محبِّى الوطن » .

ومع ذلك فإن أصواتاً تَعْلُو :

« أَنْرِيُو سَكُور ! أَنْرِيُو سخيف ! »

— أَنْرِيُو يعقوبىٌّ صالح ! عاش أَنْرِيُو !

---

(١) أنريو : ثورى وقائد فرنسى (١٧٦١ — ١٧٩٤) .

ويتألف فريقان ، ويقتربان ، وتَنْزِل أَجماعُ الـكُفوف على القُبَّعات المنزوعِ أسفلُها ، وتُقْلَب الموائد وتتطاير شظايا الأقداح وتنطفىء المصابيح ، وتصيح النساء ، ويَهْجُم كثيرٌ من الوطنيين الغُيُرِ على جُولْيـة ، وتتسلَّحُ بمقعـدٍ بلا ظَهْرٍ وتُطْرَح فتُظَفِّر[1] ظالميها وتعضُّهم ، ويَظْهَرُ صدرُها اللاهثُ من ردِنغوتها المفتوح ومن مُقَدَّم قميصها المُمَزَّق ، ويُهْرَع عَسَسٌ إلى مكان الضوضاء وتَفِرُّ الفتـاة الأريستوقراطية من بين سيقان الشُّرْطة .

وكانت عرباتُ المحـكوم عليهم بالإعدام تُمْـلَأُ كلَّ يوم .

وتقول جُولْية : « ومع ذلك لا أستطيع أن أَدعَ عاشقي يَمُوت » .

وتَعْزِم على التوسُّل والتشبث لدى المندوبين والقضاة ، وعلى الذهاب إلى اللِّجان والمـكاتب وإلى كلِّ مكانٍ ضروريّ ، ولم يكن عندها ثوبٌ ، وتستعير لهـا أمُّها من الوطنية بِلِيز ثوباً مُخَطَّطاً وعِصابةً مُخَرَّمةً ومِنديلَ رَقَبـة ، فلما تزَيَّت جولية بزِيِّ امرأةٍ وطنيةٍ زارت القاضيَ رِنُودَان فى بيتٍ رطيبٍ قاتم بشارع مازارين .

وتَصْعَدُ فى السُّلَّم الخشبية البَلاطية مرتجفةً ، ويستقبلها القاضى فى غرفته الهزيلة المُجَهَّزة بِمِنْضَدةٍ من صَنَوْبر وكرسيين من حَصِير ، وكانت أوراقُ الجُدْرانِ الملوَّنةُ متدليـةً مِزَقاً ، ويشير عليها ذو الشعر الأسود المسدول والعينين السوداوين والشفتين المُقَلَّصَتين ، والذَّقَنِ البارز ، رِنُودَانُ ، بالـكلام ويُنْصِت لها صامتاً .

وتقول له إنها أخت الوطنيِّ شاسَّان السجين فى اللُّـكْسَنْبُرْغ ، وتكون بارعةً فى عَرْضِ الأحوال التى قُبِضَ عليه فيها ، وتُصَوِّره بريئاً بائساً وتَظْهَر لَجُوجاً .

ويَظَلُّ جافياً قاسياً .

---

(١) ظفر الشيء : غرز فيه ظفره .

وتبكى ضارعةً على قدميه .

ويَتغير لونه عنـد ما رأى الدموع ، وتلتهب حَدَقتاه السوداوان الضار بتان إلى حُمْرة ، ويتحرك فكَّاه الأزرقان الكبيران كما لو كانا يريدان رَدَّ رِيقهِ إلى حَلْقه الجافِّ .

« سيُصْنَع ما هو ضرورىٌّ أيتها الوطنية ، ولا تَجْزعى » .

ويَفْتَح باباً ، ويسوق المستدعيةَ إلى رَدْهَة وردية صغيرةٍ مشتملةٍ على فُرَجٍ مُلَوَّنةٍ بين النوافذ ، وعلى مجموعةٍ من الكَعْك ، وعلى ساعةٍ دَقَّاقةٍ وشماعدَ مُذَهَّبةٍ ذاتِ شُعَبٍ ، وعلى كراسىَّ واسعةٍ ذاتِ وسائدَ ، وعلى أريكةٍ ذاتِ بُسُطٍ مزخرفةٍ بمناظرَ رِعائيةٍ على طريقة بُوشِه ، وكانت جُولْيَة مستعدةً لكلِّ شىء إنقاذاً لعشيقها .

ويكون دِنُودَانُ بهيمياً مُسْرِعاً ، فلما نهضت لتقوِّم ثوبَ إلودية الجميلَ أبصرت نَظَرَ هذا الرجلِ الجافىَ الساخرَ فشَعَرتْ من فَوْرها بأن ما ضَحَّتْ به كان على غير جَدْوَى .

وتقول له : « لقد وعدتنى بإطلاق أخي » .

ويقول لها ضاحكاً مستهزئاً : « لقد قلتُ لكِ ، أيتها الوطنية ، إنه سيُصْنع ما هو ضرورىٌّ ، أى إن القانون سيطبَّق من غير زيادة ولا نقصان ، وقد قلتُ لكِ ألاَّ تجْزَعى ، ولِمَ تَجْزَعين ؟ إن المحكمة الثورية عادلةٌ دائماً » .

وتُفكِّر فى الارتماء عليه وعَضِّه وقَلْعِ عينيه ، ولكنها ، إذ تَشْعُر بأنها تَقْضِى على فُورْتُونِه بهذا ، تفرُّ وتُسْرِع إلى مَخْدَعها لتَخْلَعَ ثوبَ إلودية المُدَنَّس ، وهنالك فقط تُحْيِي الليلةَ بالنُّواح غيظاً وألماً .

وفى الغد تعود إلى اللُّكْسَنْبُرْغ فتجِدُ الشُّرَط يَطْرُدون النساء والأولاد من الحديقة ، وتَجِدُ فى جميع الممرات حَرَساً يَمْنَعُون السابلة من الاتصال بالموقوفين ، وجُولْيَة تَقُولُ الأمُّ ، التى تجىء كلَّ يومٍ حاملةً طفلَها بين ذراعيها، إنه يُحَدَّث عن وجود مؤامرةٍ فى السجون فيُوبَّخُ النساء فى الحديقة على إثارة الشعب نفعاً للأريستوقراطيين والخائنين .

٢٢

ارتفع جبلٌ فى حديقة التويلرى بغتةً ، ويسير مَكْسِيمِيلْيانُ أمام رفقائه لابساً ثوباً أزرقَ وسِرْوالاً أصفرَ وحاملاً بيده باقةً من السنابل والعَنْبر والخَشْخَاش، ويَتَسَنَّمُ الجبلَ ، ويُنْبِئُ إلهَ جانْ جاك بالجمهورية المُلاَنة ، فيا للنَّقَاوة ! ويا للسماحة ! ويا للإيمان ! ويا للبساطة القديمة ! ويا لَدموع الرحمة ! ويا لَلمُرُونة الخصيبة ! ويا لَلْحَنَان ! ويا لَلإخاء الإنسانىّ !

ومن العبث دوامُ الإلحاد على رَفْعِ وجهه القبيح ، فقد أَمسك مَكْسِيمِيلْيانُ مشْعلاً ، واللَّهَبُ يلتهم الغولَ والحكمةُ تَظْهَرُ دالَّةً على السماء بيدٍ وممسكةً إكليلاً من الكواكب بيدٍ أخرى .

ويكون إيڤارِسْتُ على مِصْطبةٍ مقابلةٍ لقصر التويلرى ، ويَسْكُب دموع الفَرَح بين الجُمهور الهائج ، ويَحْمَد الله ، فقد أبصر عصرَ السعادة .

ويتأوَّه :

« وأخيراً نكون سعداء أنقياء أبرياء إذا سَمَحَ الفُجَّار بذلك » .

واهاً واهاً ! إن الفُجَّار لم يأذنوا فى ذلك ، فلا بُدَّ من عقوباتٍ أخرى ، ولا بُدَّ من إراقة دماءٍ كثيرةٍ أخرى ، وتَمْضِى ثلاثةُ أيامٍ على عيد الوِفاق الجديد واتفاق السماء والأرض فيَضَعُ مجلسُ العهد قانونَ پِرِيرْيَال الذى يُلْغِى ، عن سَذَاجَةٍ هائلةٍ ، جميعَ شَكليات القانون التقليدية ، جميعَ ما وُجِدَ عادلاً منذ

عَهْد الرومان لضمان البراءة المتهَمة ، فلا احتياجَ بعد اليوم إلى التحقيق والاستنطاق والشهود والمحامين ، فحبُّ الوطن يُغْنِي عن كلِّ هذا ، وليُمرَّ المتهَمُ الذى يَحْمِل إجرامَه أو براءتَه صامتاً أمام المُحَلَّف الوطنىِّ الغيـور ، وليُدْرِكْ قضيتَه الصعبةَ أحْياناً المُثْقَلةَ المبهمةَ غالباً ، والآن كيف تقع المحاكمة ؟ وكيف يُفَرَّق فى ثانيةٍ بين الصالح والطالح ، و بين محبِّ الوطن وعدوِّ الوطن ؟ ...

ويرتبك غَمْلانُ قليلاً ، ثم يَفْهَم وظائفَه الجديدة و تُلائمه ، وهو يَعْرِف من مُوجَزِ أصول المرافعات حقيقةَ أمرِ هذه العـدالة الشافية الهائلة التى لا يكون خُدَّامُها قضاة يَزِنون البراءةَ أو الحـكمَ بموازينهم القُوطية متمهلين ، بل من السانْ كُولُوت الذين يَحْكُمون بوحيٍ وطنىٍّ و يبصرون كلَّ شىء بإلهام خاطف ، ومع أن من الممكن أن يَضِيعَ كلُّ شىء بالضمانات والتحفظات فإن حركة القلب السليم تُنْقِذ كلَّ شىء ، و يجب اتِّباعُ اندفاعاتِ الطبيعة ، هـذه الأمِّ الصالحة التى لا تُخْطِىء أبداً ، و يجب أن يُحْكم بالفؤاد ، و يتوسَّل غَمْلان إلى روح جانْ جاك بقوله :

« أَلْهِمنى أيها الرجل الفاضل حميةَ إصلاح الناس مع حُبِّهم » .

و يَشْعُر زملاؤه بمثـل ما يَشْعُر فى الغـالب ، وكان هؤلاء من البُسَطاء على الخصوص ، فلما بُسِّطَت الشـكلياتُ شُرِحَتْ صدورُهم ، وتَقَع العـدالة المُوجَزة عندهم موقع الرِّضا ، ولا يزعجهم شىء فى سيرها السريع ، و إنما يبحثون عن آراء المتهَمين غيرَ متصورين إمكانَ مخالفتهم تفكيراً بلا خُبْث ، و بما أنهم كانوا يعتقدون حيازتَهم الفضيلةَ والحـكمةَ والخيرَ فإنهم يَعْزُون الضـلالَ والشرَّ إلى خصومهم ، وقد كانوا شديدى الإحساس ، فَيَنْظرون إلى الرَّبِّ .

أَجَلْ كان مُحَلَّفُو المحكمة الثورية هؤلاء ينظرون إلى الرَّبِّ ، فَيَغْمُرُهم الكائنُ الأعلى الذى اعترف به مكسيمليانُ بأنواره ، أَجَلْ كانُوا يُحِبُّون ، وكانوا يعتقدون ـ

وتُستَبدل بكرسى المتهم مِصْطبةٌ واسعة يمكن أن يَجلس خمسون شخصاً عليها ، ولا يُحاكَمُ الناسُ بعد ذلك إلا زُمَراً ، وصار المتهمُ العامُّ يَجْمَع ، ويَتَّهِمُ كشركاء ، فى القضية الواحدة أناساً يلتقون فى المحكمة للمرة الأولى غالباً ، وتَحْكم المحكمة ، وَفْق ما نَصَّ عليه قانون پريريال من أصولٍ مُوَطَّأَةٍ ، فى أمر هـذه المؤامرات التى زُعِمَ وقوعُها فى السجون بعد تقتيل الدَّنْتُونيين والهيئة الثورية فيرتبط بعضُها فى بعضٍ بمكايدَ فكريةٍ دقيقة ، ويُوضَع هنالك رأسان متقابلان ، رأسا امرأتين ، رأسَ أرملةِ كاميلَ : لوسيلَ المحبوبة ، ورأسَ أرملةِ الإبريِّ مُومُورُو : إلهةِ يومِ والمِهذارِ المَرِحة ، تَبَيُّناً لظاهرتين جوهريتين فى مؤامرة واحدة نُسِجَتْ بذهب الأجنبيّ ضد الجمهورية ، تَبَيُّناً للاعتدال قبل الأوان والإفراط المُبَيَّت ، تَبَيُّناً للجناية الدَّنْتُونية والجناية الإبريَّة ، وكانت الاثنتان قد اعْتُقِلتا فى سجنٍ واحد لمناسبةٍ واحدة ، وبَكَتا على مقعدٍ حجريّ واحدٍ معاً ، وصَعِدتا فى مِقْصَلةٍ واحدة لهَدَفٍ واحد ، ويُعَدُّ هـذا رمزاً مُحْكَماً وأثراً من الأوابد لتوازنٍ تَمثَّلَتْهُ نَفْسُ نائبٍ عامٍّ لا رَيْبَ فَنُسِب إلى مَكْسِيميلْيان ، وإلى ممثل الشعب هذا تُعْزَى جميعُ الوقائع السعيدة وغيرِ السعيدة التى تَحْدُث فى الجُمهورية كالقوانين والعوائد والمواسم والمحصولات والأمراض ، وهذا ظلمٌ مستأهَلٌ ، وذلك لِما اتَّفقَ لهذا الرجل الصغير ، المتأنِّق الحقير الذى له وجهُ المِرِّ ، من سلطانٍ واسعٍ على الشعب .

وفى ذلك اليـوم تُعَجِّلُ المحكمة لقسم كبير من مؤامرة السجون الكبرى ، تُعَجِّلُ لثلاثين من مؤتمرى اللُّكسنبرغ ، لهؤلاء المساجين الطَّوَّع من الملكيين والاتحاديين الظاهرين ، ويستند الاتهام كلُّه إلى شهادة واشٍ واحد ، وكان المحلَّفُون لا يَعْرِفون كلمةً من القضية ، وكانوا يَجْهَلون حتى اسمَ المؤتمرين ، ويُلْقِى غَمْلان نظرةً على مقعد المتهمين فيَجِدُ فُورْتُونِه شاسَّانَ بينهم ، وكان عاشقُ جُولْيَة هذا

لا يزال محافظاً على شيء من ملاحته وزهوه وإن أنحفه السِّجنُ الطويل وجَسَأَت ملامحُه بالضياء الفِجِّ الذى يَغْمُرُ الرَّدْهة ، وتُلاقِى نَظَراتُه نظراتِ غَمْلانَ وتُوقَرَ احتقاراً .

ويستحوذ على غَمْلان غَيْظٌ ساكن ، فَينْهَض ، ويَطْلُبُ الكلامَ شاخصاً إلى تمثالِ بروتُوسَ النصفىِّ الذى يهيمن على المحكمة ، ويقول :

« الوطني الرئيس ! إننى ، وإن كان بينى وبين أحد المتهمين من الصلات ما يُعَدُّ مصاهرةً إذا ماصَرَّحْتُ به ، أُصَرِّحُ بأننى لا أَرْفِض نفسى مطلقاً ، ولم يَرْفِض البُروتوسَان [1] نفسَهما عندما وَجبَ عليهما أن يَحْكُما على ابنٍ وأن يَطْعَنا أباً بالتَّبَنِّى فى سبيل الجُمهورية أو الحرية » .

وَيَجْلِس ، ويقول شاسَّانُ متمتماً بين أسنانه :

« ها هو ذا الفاجر » .

ويظلُّ الجُمهور فاتراً ، سواءٌ أَنشأَ فتورُه عن تَعَب من الأخلاق العالية أم عن قَهْرِ غَمْلانَ للمشاعر الطبيعية بسهولةٍ بالغة .

الرئيس : « أيها الوطنىُّ غَمْلان ! يَنُصُّ القانون على أن يَقَع كلُّ رَفْض للقاضى ضِمْنَ أربعٍ وعشرين ساعةً قبل البدء بالمحاكمة ، ثم لا محلَّ لرفضكَ نفسَك ، فالحلَّفُ المحبُّ لوطنه هو فوق الأهواء » .

---

(١) البروتوسان : رومانيان ، فأما أولهما فقد طرد آل الملك من رومة ، فلما أراد أبناؤه اعادة هؤلاء الآل الى الملك حكم عليهم بالاعدام ، وشهد تنفيذ الحكم بنفسه ، وأما الآخر فهو من حفدة الأول ، وهو قاتل أبيه بالتبنى : يوليوس قيصر .

ويُستَنْطَقُ كلُّ متهمٍ مدةَ ثلاثِ دقائقَ أو أربعِ دقائقَ ، وتطلب النيابةُ أن يُحْكَم على الجميع بالإعدام ، ويُصوِّت المحلَّفُون لذلك بكلمة أو بإشارة أو بهُتاف ، فلما جاء دَوْرُ غَمْلانَ لإبداء رأيه قال :

« ثَبَتُ ذَنْبُ جميع المتهَمين والقانونُ صريح » .

ويَنْزِل غَمْلانُ من دَرَج القصر فيَقِفُه بغتةً فتًى لابسٌ رِدِنْغُوتاً أخضرَ بالغٌ من العمر سبعةَ عشرَ عاماً أو ثمانيةَ عشرَ عاماً ، وكان هذا الفتى معتمراً بقُبَّعة مدوَّرةٍ مردودةٍ إلى الوراء باديةٍ أطرافُها كإكليلٍ أسودَ حَوْلَ رأسه الشاحب الجميل ، وينتصب الفتى أمام المحلَّف ويقول له صارخاً عن غضبٍ ويأسٍ :

« أيها الفاجر ! أيها الغُول ! أيها القاتل ! اضْرِبنى أيها اللئيم ! إننى امرأة ! اقْبِضْ علىَّ ! أرسلنى إلى المِقْصَلة يا قابيل ! أنا أختك » .

وتَبْصُق جولية على وجهه .

وكان وَعْىُ جُمهورِ المستمعاتِ والسَّانْ كُولُوتَ الثوريُّ قد فَتَر ، وكانت حميَّةُ هـذا الجُمهورِ الوطنيةُ قد بَرَدت ، فلم يُحَطْ غَمْلانُ ومباغِتُه بغير حركاتٍ حائرة مضطربة ، وتَشُقُّ جُولْية جَمْعَ الغوغاء وتتوارى فى الشَّفَق .

٢٣

كان غَمْلان إيڤارسْت تَعِباً لا يَقْدِرُ على الاستراحة ، وكان فى الليلة الواحدة يَهُبُّ من نومه عشرين مرةً مرتجفاً مملوءاً كَوَابِيسَ ، ولم يكن ليستطيع النوم بضعَ ساعاتٍ إلَّا فى الغرفة الزرقاء بين ذراعى إلُودْية ، وهو إذا ما نام تَكَلَّم وصاح فى سُبَاته فتَصْحُو من غير أن تَفْهَم ما يقول .

وقد أفاق ذاتَ صباحٍ مذعوراً خائراً كالطفل من نوم ليلةٍ رأى الأُنيميدَ (١) فيه ، وكان الفجر يَنْفُذُ ستائرَ الغرفة بسهامه الزُّرْق ، وكان شَعْرُ إيڤارِسْتَ على جبينه يَسْتُرُ عينيه بحجابٍ أسود ، وتُبْعِدُ إلودية ، وهى على رأس السرير ، خُصَلَه الخَشِنَةَ بلطفٍ ، وتَنْظُرُ إلودية إليه فى هذه المرة نظرَ الأخت العطوف ، وتَمْسَح العَرَقَ بمِنْديلها عن جبينِ التَّعِس ، وهنالك يَذْكُرُ « أُورسْتَ » أُوريپيد الذى رَسَمَ له لَوْحاً يكون أبدعَ آثاره لو استطاع إتمامَه ، والمنظرُ هو أن إلِكْتِرَ الشقيةَ تَمْسَح الزَّبَدَ الذى يُلَوِّثُ فَمَ أخيها ، وهو يظنُّ ، أيضاً ، أنه يَسْمَع إلودية وهى تقول بصوتٍ ناعم : « اسْمَع لى ، يا أخى العزيز ، حينما تَدَعُك آلهةُ الجحيم سيدَ عقلك ... »

ويقول فى نفسه : « ومع ذلك فإننى لستُ قاتلَ أمى ، وعلى العكس سَفَكْتُ دمَ أعداء وطنى الدَّنِسَ عن بِرٍّ بَنَوِيٍّ » .

---

(١) الأنيميد : احدى المآسى اليونانية ، موضوعها فرار أورست بعد قتل أمه ثم استغفاره وعفو الآلهة عنه وبراءته أمام المحكمة كما جاء فى الأساطير .

٢٤

لم يُفْرَغْ من مؤامرة السجون ، ويَمْلأ درجَ المِصْطبةِ تسعةٌ وأربعون متهماً ، ويَشْغَل مُوريس برُوتو يمينَ الدرجة العالية ، أى مكانَ الشَّرَف ، وقد كان لابساً رِدنْغُوتَه البُرْغوثىَّ المُنظَّفَ بالفِرْجَوْن عَشِيةً والمُرَقَّعَ من الجيب الذى أبلاه ديوانُ لُوكْرِيسَ الصغيرُ مع الزمن ، وكانت السيدة رُشْمُورُ تُرَى بجانبه مُزَوَّقةً مُحَمَّرةً مُلَمَّعةً مع إفراطٍ ، ووُضِعَ الأبُ لُونْغِيارُ بينها و بين الفتاة أَتِنايِيس التى استردت نضارةَ شبابها فى المادِلُونِت (١) .

ويَرْكُم الشُّرَطُ على المِصطبة المُدَرَّجة أناساً لا يعرفونهم ، أناساً غيرَ متعارفين فيما بينهم على ما يحتمل ، أناساً شركاءَ فى الذنب مع ذلك ، أناساً بَرْلُمانيين وصِحافيين وأشرافاً ، ونساءً ورجالاً من الطبقة الوسطى ، وتُبْصِر الوطنيةُ رُشْمُورُ غَمْلانَ جالساً على كرسىِّ المحلَّفين ، وهى ، على ما كان من عدم جوابه عن كتبها المُلِحَّة ورسائلها المُكَرَّرة ، لم تَزَلْ تأمُلُ منه ، وترسل إليه نظرةَ تَوَسُّلٍ محاولةً أن تَبْدُوَ له حسناءَ مؤثِّرَةً ، ويقابلها هذا القاضى الشابُّ بنظرةٍ فاترةٍ فيُقْطَع رجاؤها منه .

ويقرأ المسجِّلُ قرارَ الاتهام الذى هو طويلٌ لكثرة المتهَمين و إن كان مختصراً حَوْل كلٍّ واحد منهم ، وفى الاتهام عَرْضٌ لخطوط المؤامرة التى حِيكَت فى السجون

---

(١) المادلونت : دير بباريس حول الى سجن أيام الثورة الفرنسية ، ثم هدم سنة ١٨٦٦ .

إغراقاً للجُمهورية فى دم ممثلى الأمة والشعب البـاريسىِّ ، وفى الاتهـام قولٌ عن كلِّ متهَم :

« إن أكثر مدبِّرى هـذه المؤامرة الممقوتة ضرراً هو المدعُوُّ برُوتُو والمسمَّى دِيزِلِّت سابقاً والذى كان جابياً فى عهد الطاغية ، وإن هذا الشخص ، الذى عُرِف ، حتى فى عهد الطغيان ، بسلوكه الداعر ، دليلٌ قاطعٌ على كون الفُجُور والخُلُق الفاسد أعظمَ عدوٍّ لحرية الأمم وسعادتها ، والواقعُ أن هذا الشخص ، بعـد أن بَدَّد أموالَ بيت المال واستنفد قسماً لا يُسْتهان به من موارد الشعب ، اشترك مع حَظِيَّتِهِ السابقة رُشْمُور فى مراسلة المهاجرين وإطلاع الأجنبىِّ على أحوالنا المـالية وحركات جيوشنا وتقلبِ الرأى العامِّ .

« وإن برُوتُو الذى كان يَقْضِى حياةً حقيرةً فى هذا الدور اتخذ البَغِىَّ أتِنَايِس سُرِّيَّـةً له بعد أن التقطها من وَحَلِ شارع فرُومَانتو مُسخِّراً إياها لمقاصده مستخدماً إياها فى مناهضة الثورة بهُتافاتٍ مغايرةٍ للحياء وتحريضاتٍ منافية للأدب .

« وتدلُّكم بضعةُ أقوالٍ لهذا الرجل المشؤوم دلالةً واضحة على أفـكاره الدنيئة وغايته الضارَّة ، فهو لمـا تكلَّم عن المحـكمة الثورية المنعقدة اليوم لمعاقبته قال عنها بوقاحة : « إن المحـكمة الثورية تشابه روايةً لوليَمْ شكسپير يَخْلِطُ فيها أدمى المناظر بأكثر المداعبات ابتذالاً » ، وهو لم ينفكَّ يَـدْعُو إلى الإلحاد كأضمن وسيلةٍ لإفساد الشعب والقذف به فى الفُسُوق ، وقـد كان فى سجن الـكُونْسِيرْجِيرى الذى كان معتَقلاً فيه يَرْثى لانتصارات جيوشنا البـــاسلة كما تُرْثَى لأسوأِ ما تُمْنَى به من الـكوارث ، وقد كان يحاول أن يُلْقِىَ الرِّيبَ حَوْلَ أكثرِ قُوَّادنا وطنيةً مُتَقَفِّياً إياهم بصُورٍ لقَتَلة الطُّغَاة ، وقد قال بلسانٍ قاسٍ : « انتظروا جَفَافَ القـلم ، انتظروا

اليومَ الذى يبتلعـكم فيه أَحدُ حَمَلَة السـيوف هؤلاء ، يبتلعكم مَنْ أنتم مَدِينون له بسلامتكم ، كما يبتلع الضفادعَ غُرْنوقُ الأُسطورة » .

وهكذا يداوم قرارُ الاتهام .

« وليست المرأةُ رُشْمُور ، التى كانت من طبقة الأشراف والتى هى حَظِيَّةُ بروتو ، أقلَّ ذنباً منه ، ولم يقتصر عملُها على مراسلة الأجنبىِّ وقَبْض راتبٍ من بيتَ نفسه ، بل كانت ، أيضاً ، شريكةَ أناسٍ فاسدين كجوليان (الطُّولُوزىِّ) وشابُو ، وكانت ، أيضاً ، ذاتَ صلاتٍ بالبارون السابق دُوباتْس[1] ، فتبتكر مع هذا الداعر أنواعَ الحِيَلِ خَفْضاً لسندات شركة الهند واشتراءً لها بأثمانٍ بَخْسَةٍ ثم رفعاً لها بحِيلٍ معاكِسة للأولى ، وإضراراً بالثروة الخاصة والثروة العـامة على ذلك الوجه ، وهى لم تنقطع ، بعد اعتقالها فى البُورْب والمادِلُونت ، عن الائتمار والمتـاجرةِ بالأوراق المالية ومحاولةِ رَشْوِ القضاة والمحلَّفين .

« وما فتئ الشريفُ السابق والكَبُوشىُّ السابقُ لويس لُونْغمار يحاول الإجرامَ وإتيانَ المُنْكَرِ قبل أن يقوم بالخيانة التى يجب عليه أن يجيب عنها هنا ، وهو ، إذْ يَعْبَث بالبنت غُورْكُو ، التى تُدْعَى أَتِنَايِيس ، تحت سَقْف بروتو ، كان شريكاً لهذه البنت ولهذا الشريف السابق ، وهو لم ينفكَّ فى أثناء اعتقاله فى الكُونْسِيرْجِيرى يكتب رسائلَ ضارَّةً بالحرية والأَمْن العام .

« ومن الحقِّ أن يقال ، عند الكلام عن مارْت غُورْكُو التى تُدْعى أَتِنَايِيس ، إن المُومِساتِ آفةُ الأخلاق العـامة التى يُسَفِّهْنها وسُبَّةُ المجتمع الذى

---

(١) البارون دوباتس : اشترك فى جميع المؤامرات التى نسجت ضد مجلس العهد ، وقد كان ماهرا فى انقاذ رأسه (١٧٦١ – ١٨٢٢) .

يَفْضَحْنه ، ولـكن ما فائدةُ الإسهاب فى بيان الجرائم الـكريهة التى تعترف المتهمةُ بها خالعةَ العِذار ؟ ... »

ثم يَعْرِض الاتِّهامُ أمرَ المتهمين الخمسة والأربعين الآخرين الذين لا يَعْرفهم بروتو ، ولا الأبُ لُونْغمار ، ولا الوطنيةُ رُشْمُور ، إلاَّ ما كان من رؤية كثيرٍ منهم فى السجون ، والذين ضُمُّوا إلى الأوَّلين فى « هذه المؤامرة الـكريهة التى لا يوجد لها نظيرٌ فى حَوْليَّات الأمم » .

ويُخْتَم الاتهامُ بطلب فَرْضِ عقوبة الإعدام على جميع المتهمين .

وكان بُروتو أولَ من اسْتُنْطِق .

— هل ائتمَرْتَ ؟

— كلا ، لم أأتمر ، وكلُّ ما جاء فى قرار الاتهام الذى سَمِعْتُه غيرُ صحيح .

— وأنت الآن ، كما ترى ، تأتمر بالمحـكمة أيضاً .

وينتقـل الرئيس إلى المرأة رُشْمُور ، وتجيب باحتجاجاتِ يأسٍ وبدموعٍ ومماحكات .

ويُسَلِّم الأبُ لُونْغمارُ أمره إلى الربِّ ، ولم يأت حتى بدفاعه المـكتوب .

ويجيب عن جميع الأسئلة التى وُضِعَتْ له بروح الزاهد ، ومع ذلك فقـد انتبه الرجلُ الشائبُ فيه عند ما وصفه الرئيس بالـكَبوشىِّ فقال :

« لستُ كَبوشِيًّا ، بل قِسِّيسٌ وراهبٌ من مُنَظَّمة البرنابيين » .

الرئيسُ ببساطة : « الأمرُ واحدٌ » .

وينظر الأب لُونْغمارُ إليه حانقاً ويقول :

« لا يُمْكِن تصورُ خطأٍ أغربَ من خَلْط كَبُوشيٍّ براهبٍ من مُنَظَّمة البرنابيين التى تَعْمَل بدساتيرِ الرسولِ مارْبُولُسَ نفسِه » .

ويقهقه الحُضَّارُ ساخرين .

ويَعُدُّ الأبُ لُونْغارُ هـذا الهُزْءَ دليلًا على الإنكار فَيَجْهر بأنه يموت عُضْواً فى مُنَظَّمَة مارْ بَرْنابا[1] .

الرئيس يسأل : « أَوَتعترف بأنك ائتمرت مع البنت غُورْكُو ، مع المدعُوَّةِ أَتِنايِيسَ التى كانت تَمُنُّ عليك بألطافٍ دنيئة ؟ » .

وهنا يَرْفَع الأبُ لُونْغارُ نظرةً أليمةً إلى السماء ، ويجيب عن السؤال بصمتٍ يَنِمُّ على حَيْرَةِ نَفْسٍ مخلصةٍ ورصانةِ راهبٍ يخاف أن يَنْطِق باللَّغْو .

ويسأل الرئيسُ الفتاةَ أَتِنايِيسَ : « أَوَ تعترفين ، يا غُورْكُو ، بأنك ائتمرتِ مع بِرُوتُو ؟ » .

أَتِنايِيسُ بلُطْفٍ : « لم يَعْمَل مسيو بِرُوتُو غيرَ الخير على ما أَعْلَمُ ، وهو بعيدٌ من ذلك كثيراً ، وضَلَّ من يقول غيرَ هذا ، وهذا كلُّ ما أقول » .

ويسألها الرئيسُ عن كونها حَظِيَّةً لبِرُوتُو ، وتلتمس إيضاحَ هـذا التعبير الذى لم تَسْمَع عنه ، وتقول ، بعد ما أدركت المَقْصِد ، إن من الممكن ابتغاءه لها ، غير أنه لم يَبْغِ ذلك منها .

ويَضْحَك الحُضور ، ويُهَدِّد الرئيسُ البنتَ غُورْكُو بإخراجها من المحكمة إذا ما عادت إلى الجواب بمثل هذه الوقاحة .

---

(١) مار برنابا : هو أحد الحواريين الاثنى عشر .

وهنالك تَدْعُو الرئيسَ بالمُرَائى والشاحب والأحمق وتَصُبُّ عليه وعلى القُضاة والمحلَّفين قُلَّةَ شتائمَ ، ويَجُرُّها الشُّرَطُ من مقعدها إلى خارج القاعة .

ثم يسأل الرئيسُ المتهَمين الآخرين باختصارٍ وَفْقَ ترتيبهم على دَرَج المِصْطبـة ، ويجيب المَدْعُوُّ ناڤِت بأنه لا يستطيع الائتمارَ فى سجنٍ لم يُقِمْ به غيرَ أربعِ ساعات ، ويقول الرئيس إنه سيُنْعِمَ النظر فى هـذا الجواب وإنه يَرْجو من الوطنيين المحلَّفين أن يَحْفِلُوا به ، ويجيب المدعُوُّ بِلْيِه بمثل هذا ويوجِّه الرئيسُ مثـلَ تلك الملاحظة إلى المحلَّفين مراعاةً له ، ويُفَسِّرُ التفاتُ القاضى هـذا بالإنصاف المحمود أو بالأَجْر على الوِشاية .

ويتكلم نائبُ المتهِم العـامِّ ، ولا يَصْنَع غيرَ إيضاح قرارِ الاتهام ، ويَضَعُ السؤالَ الآتى :

« هل من الثـابت أن مُوريس برُوتُو ولويزْ رُشْمُور ولويس لُونْغمار ومارتْ غُورْكو المسماة أَتِنـاييس وأُوزِبْ رُوشِـه وپِيـيرْ غويتُون فابُولِه ومارْسِلينْ دِيكُورْتيس ، إلخ ، إلخ ، نَسَجُوا مؤامرةً تقوم على القتل والمجاعة وصنع أوراق نقدية زائفة وإفسادِ الأخلاق والروحِ العامة وإثارةِ السجون وتَهْدِف إلى الحرب الأهليـة وإبطال التمثيل القومىّ وإعادة الملـكية ؟ »

وينزوى المحلَّفون فى غرفة المذاكرة ، ويُجْمِعُون على تجريم جميع المتهمين خلا المَدْعُوَّيْن ناڤِت وبِلْيِه اللذين أخرجهما الرئيسُ ثم المتهِمُ العامُّ من القضية كما هوظاهر ، ويُعَلِّل غَمْلانُ حكمه بما يأتى :

« إن وِزْر المتهمين يَفْقَأ العين ، وتقتضى سـلامةُ الأمة عِقابَهم ، وعليهم أن يَتَمَنَّوْا موتَ أنفسهم تكفيراً عن جرائمهم » .

ويَنْطق الرئيس بالحكم فى غِياب من يُهمُّهم الأمر ، ولا يُدْعى المحكوم عليهم فى هـذه المراحل لِيُتْلَى عليهم الحُكْم وَفْقَ القانون ، وذلك خشيةَ قُنُوط عدد كبير كذلك ، ولا داعى لِمثـلِ هذا الخوف ما دام انقياد الضحايا عظيماً عامًّا فى ذلك الحين ، ويَـنْزِل المسجِّل لتلاوة الحـكم الذى اسْتُمِـعَ له بصمتٍ وهدوءٍ يُشَبَّه معهما محكومى شهر پريريال بالشجر المقطوع .

وتُعْلِن الوطنيـةُ رُشْمُورُ أنها حُبْلَى ، ويُفَوَّض إلى جَرَّاحٍ كان من المحلَّفين أن يَفْحَصها ، وتُحْمَـل إلى سجنها مغشيًّا عليها .

الأب لُونغمار مُتَحَسِّراً : « آه ! حقًّا أن قُضاةَ الناس هؤلاء يستحقون الرحمة ، حقًّا أن حالتهم النفسـية يُرْثى لها ، فكُلُّهم يرتبك ويَخْلِطُ بين البَرْنابىِّ والفرَنْسِيسْكِىِّ » .

وسيُنَفَّذ الحـكم فى اليوم نفسه عنـد « باب ترُونْ رَنْفِرْسِه[1] » ، وينتظر المحـكومُ عليهم الجَلَّادَ مُزَيَّنين مُحَلَّقين مُقَوَّرِى القمصان مزرو بين كأنعامٍ فى قاعةٍ صغيرة منفصلةٍ عن غرفة المسجِّل بحاجزٍ زُجاجىّ .

ويَصِل الجَلَّادُ وخَدَمُه ، فيَضَع بِرُوتُو ، الذى كان يقرأ ديوانَ لُوكْرِيسَ هادئاً ، شُرَيِّطةَ الـكتابِ على الصَّفْحة المبدوءة ويُغْلِقه ويُدْخِلُه إلى جيب ردنغوته ويقول للراهب البَرْنابىِّ :

« أبى المحترم ، إن الذى يَغِيظُنى هو أننى لم أُقنعك ، فسـنذهب كلانا لننام نَوْمتنا الأخيرة ، ولن أستطيع أن أَجُرَّك من الـكُمِّ وأُوقظك لأقول لك : تَرَى أنكَ عُدْتَ فاقدَ الحِسِّ فاقدَ المعـرفة ، فأنت مَيِّتٌ ، والذى يَعْقُب الحياةَ هو كالذى يَسْبِقُها » .

---

(١) تجىء بمعنى العرش المقلوب .

ويريد أن يتبسم ، غير أن ألماً شديداً يَحْتَبس قلبَه وأمعاءه ، فيكاد يُغْمَى عليه .

ثم يُفِيقُ ويقول :

« أَدَعُك تُبْصِرُ وَهْنِي ، فأنا أُحبُّ الحياة ولا أَتْرُكها من غير أسف » .

الراهبُ بلطفٍ : « سيدى ، إنك أشجع منى . ومع ذلك فإن الموت يُزْعجك أكثر مما يزعجنى ، أَوَليس هذا هو أننى أُبصرُ النُّورَ الذى لم تُبْصِرْه بَعْدُ ؟ » .

بُرُوتُو : « ومن المحتمل أيضاً أننى أَسِفٌ على الحياة لأننى تمتعتُ بها أكثر مما تمتعتَ ، أنت الذى جعلَها شبيهةً بالموت » .

الأبُ لُونْغمار : شاحباً : « سيدى ، إن هذه الساعة عصيبة ، أعاننى الله ! نَمُوت بلا عَوْنٍ لا رَيْب ، لا بُدَّ من أن أكون قد تناولتُ سِرَّ القربان فاتراً كَنُوداً (١) فتَضَنُّ السماءُ علىَّ به اليوم مع افتقارى المُلِحِّ إليه » .

وكانت العَرَباتُ تنتظر ، ويُرْكَمُ المحكومُ عليهم فيها مُوثَقِي الأيدى ، وتُرْفَعُ المرأة رُشْمُورُ التى لم يعترف الجرَاحِيُّ بحبَلها إلى عَرَبة ، ويعود إليها قليلُ نشاطٍ لملاحظة جُمهور الحُضَّار راجيةً وجودَ منقذين بينهم مع انقطاع كلِّ أمل ، وتَضْرَع بعينيها ، ويكون الزِّحام أقلَّ من قَبْل ، وتكون حركةُ النفوس أقلَّ عُنفاً ، ويَهتِفُ بضعُ نِسْوَةٍ فقط بقولهنَّ : « إلى الموت ! » أو يَسْخرن من الذاهبين إلى الموت ، ويَرْفَع الرجال أكتافَهم ويُحوِّلون وجوهَهم حَذَراً أو احتراماً للقوانين .

وتعترى الجُمهورَ رَعْدَةٌ عند ما مَرَّت أَتِنايِيسُ من البُوَيْب ، فقد كانت لها هيئةُ الولد .

---

(١) الكنود : العاصى ، الكافر النعمة .

وتَرْكَع أمام الراهب وتقول :

« سيدى الـكاهن ، امْنَحْنى الغُفْران » .

ويُتَمْتِم الأبُ لُونْغارُ فى الأسرار مُتَّزِناً ويقول :

« أىْ بُنَيَّتى ! إنك مُرْتَبِكةٌ ، ولـكننى لا أستطيع أن أقدِّم قلباً إلى الرَّبِّ أصفى من قلبكِ ! »

وتَصْعَدُ خفيفةً فى عربة المحـكوم عليهم ، وهنالك ينتصب نصفُها الأعلى ورأسُها الفَتِىُّ وتَهْتِف :

« عاش الملك ! »

وتُشِيرُ إلى برُوتُو بوجود مكان بجانبها ، ويساعد برُوتُو الراهبَ البَرْنابىَّ على الصعود ويَجْلِس بين الراهب والبنت البريئة .

ويقول الأبُ لُونْغارُ للفيلسوف الأَبيقورىِّ : « سـيدى ، تَفَضَّلْ عَلَىَّ بأن تَدْعُوَ لى الرَّبَّ الذى لا تزالُ غيرَ مؤمنٍ به ، فليس هنالك ما يَضْمَنُ عدمَ قُرْبِكَ إليه أكثرَ من قُرْبى إليه ، ويُمْكِن أن يُقَرَّر هذا فى لحظة ، ولا ضرورةَ إلى أكثرَ من ثانيةٍ لتكون ابنَ الرَّبِّ المُفَضَّل ، فادْعُ لى يا سيدى » .

وبينما كانت العَجَلُ تَسِيرُ صَالَّةً على بلاط الرَّبَض[1] كان الراهب يَتْلُو أدعيةَ المُحْتَضَرين عن ظَهْرِ القلب .

ويَذْكُر برُوتُو قصيدةَ شاعر الطبيعة : « يحدث هـذا حيث لا نكون ... » ،

---

(١) الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

وهو ، مع شَـدِّه بالوَثاق واهتزازه فى العَرَبة الشائنة ، كان ساكنَ الهيئـة هادئَ البال ، وبجانبه كانت أَتِنابيسُ ، الفخورُ بأن تموت كملكة فرنسة ، تُلْقِى على الجمهور نَظْرَةَ زَهْوٍ ، وكان الجابى الشائبُ يُنْعِم النظر ، كخبيرٍ ، فى جِيدِ الفتاة الأبيضِ فيأسَفُ على نُور النهار .

٢٥

بَيْنَا كانت عَرَباتُ المحكوم عليهم تَسِيرُ إلى ميدان ترُونْ رَنْفِرْسِه محاطةَ بالشُّرَط جالبةً بُروتُو وشركاءَه إلى الموت كان إيڤَارِسْت جالساً على مقعدٍ بحديقة التويلرى مشغولَ البال منتظراً إلُودْيه ، وكانت الشمس مائلةً إلى الأُفُق ثاقبةً أشجارَ الكستناء الملتفَّةَ بسهامها الملتهبةِ ، وكانت رِنُومِه [١] الراكبةُ حِصانَها المُجَنَّح تُرَى عند سياج الحديقة وهى تنادى ببُوقِها الخالد ، وكان بائعو الصحف يُذِيعُون صارخين نبأَ النصر الكبير الذى تَمَّ فى فلُورُوس [٢] .

ويقول غَمْلان فى نفسه : « أَجَلْ ، إن النصر لنا ، وقد دفعنا ثمنه » .

ويتمثَّلُ أَرْدِياءَ القُوَّاد وهم يُجَرِّرون أشباحَهم المحكوم عليها فى نَقْع ميدان الثورة الدامى هذا حيث هَلَكُوا ، ويتَبسم مُخْتالاً مفكراً فى أن خُيُول النمسة كانت تَقْضَم قِشْرَ هذه الأشجار لولا الشِّدَّةُ التى كان له نصيبٌ فى إبدائها .

ويقول فى نفسه :

« أيها الهَوْلُ الشافى ! أيها الهَوْلُ المُقَدَّس ! لقد كان لنا فى مثل هذا اليوم من العام الماضى حُمَاةٌ أبطالٌ قُهِروا رِثَاثَ الثياب ، وقد كانت أرضُ الوطن عُرْضةً

---

(١) رنومه : الهة رمزية كما فى الأساطير .

(٢) فلوروس : من مدن بلجيكة انتصر فيها جوردان على النمسويين سنة ١٧٩٤ .

للغزو ، وقد كان ثُلُثا الولاياتِ عاصياً ، واليومَ تتَّخِذُ جيوشنا الحَسَنةُ العُدَّةِ الحَسَنةُ التدريب خِطَّةَ الهجوم بقيادة قُوَّادٍ ماهرين ، واليومَ تستعدُّ جيوشـنا لنشر الحرية فى أرجاء العالَم ، ويَسُـود الأَمْنُ جميعَ بلاد الجمهورية . . . أيها الهَوْلُ الشـافى ! أيها الهَوْلُ المُقدَّس ! أيتها المِقْصَلة المحبوبة ! لقد كانت الجمهورية فى مثل هذا اليوم من العام الماضى مُمَزَّقَةً بالأحزاب ، وقد كان ثُعْبَانُ الاتحادية ذو الرؤوس السـبعة يتوعَّدُ الجمهورية بافتراسها ، والآن تَنْشُر الوَحدةُ اليعقوبية فى الإمبراطورية قُوَّتَها وحِكْمَتَها . . . »

ومع ذلك فقد كان كئيباً ، وكانت تَحْجُز عنه الجبينَ خُدَّةٌ (١) عميقة ، وكان فَمُه مُرًّا ، وكان يقول فى نفسه : « كُنَّا نقول : النصر أو الموت ، فنخادع أنفُسَنا بهذا ، فالذى يجب أن يقال هو : النصر والموت » .

وينظر غَمْلانُ إلى ماحَوْله ، فيرى الأولادَ يَصْنَعون جُثًى (٢) من التراب ، ويرى الوطنياتِ الجالساتِ على كَرَاسٍ خشبيةٍ تحت الشجر يُطَرِّزن أو يَرْفَأْن (٣) ثياباً ، ويرى السابلةَ الهيفَ اللابسين سراويلَ وأردية يَعُودون إلى منازلهم مفكِّرين فى مصالحهم ومَلاَذِّهم ، ويَشْعُر غَمْلان بأنه وحيدٌ بينهم ، فـكأنه ليس من بلدهم أو من معاصريهم ، وماذا حَدَث إذَنْ ؟ وكيف عَقَبَ السنين المِلاَحَ عدمُ الاكتراث والتعبُ ، والضَّجَرُ على ما يحتمل ؟ أَجَلْ ، لا يريد هؤلاء الناس أن يَسْمَعُوا حديثاً عن المحـكمة الثورية ، وهم يَتَحَوَّلون عن المِقْصَلة ، وقـد أصبحت المِقْصَلةُ مزعجةً فى ميدان الثورة فأُرسلت إلى طَرَف رَبَض أنْطوَان ، وهنـاك أيضاً يُتَمْتِم الناسُ عند مرور عَرَبات المحـكوم عليهم ، ويُرْوَى أن بعضهم هتف : « كَفَى ! » .

---

(١) الخدة : الحفرة المستطيلة .
(٢) الجثى : جمع الجثوة ، وهى كومة التراب .
(٣) رفأ الثوب : لأم خرقه وخاطه .

كَفَى ، فى وقتٍ لا يزال يوجَد فيه خائنون ومؤتمرون ! كَفَى ، فى وقت يجب أن تُجَدَّد فيه اللِّجان و يُطَهَّرَ مجلسُ العهد ! كَفَى ، فى وقتٍ يَشِين التمثيلَ القومىَّ فيه فُجَّارٌ ! كَفَى ، فى وقتٍ يُرَى فيه ، حتى فى المحكمة الثورية ، هلاكُ العادل ! هذا أمرٌ يُكْرَه التفكير فيه ، هذا أمرٌ صحيحٌ جِدًّا ! حاك الدسائسَ فُوكْيِه نفسُه ، فقد أراد هلاكَ مَكْسِيمِيلْيان بذَبْحِه على عَجَلٍ سبعاً وخمسين ضحيةً سِيقُوا إلى الموت لابسين قمصانَ الخَوَنةِ الحُمْرَ ، ولأية رحمةٍ جارمةٍ تنقاد فرنسة ؟ يجب إنقاذ فرنسة على الرُّغم منها إذَنْ ، وهى إذا ما التمست لُطْفاً وجب جَعْلُ الأصابعِ فى الآذان والإمعانُ فى الضرب . آهْ ! إن الأقدار قَضَتْ بهذا ، والوطنُ يَلْعَن منقذيه ، فَلْيَلْعَنَّا ولْيُنْقَذْ !

« لا يَكْفِى أن تُذْبَح الضحايا القُتْمُ وأن يُبَادَ أناسٌ من الأريستواقراطيين والماليين والعلماء والشعراء ، وأن يُقْضَى على رجالٍ كلافْوَازْيه [١] ورُوشِه [٢] وأَنْدره شِنْيه [٣] ، بل يجب ضربُ هؤلاء الفُجَّار الأقوياء الذين يُعِدُّون إهلاك المونْتان [٤] مملوئى الأيدى ذهباً قاطرى الأيدى دَماً ، يجب ضَرْبُ فُوشِه [٥] وتالْيَان [٦] ورُوفير وكارْيه [٧] و بُورْدُون ومَنْ إليهم ، ويجب إنقاذ الدولة من جميع أعدائها ، ولوفاز إيبر لأُسْقِط مجلس العهد ولسقَطت الجمهورية فى الهُوِّ [٨] ، ولو نُصِرَ دِيمُولاَن

---

(١) لافوازيه : كيماوى فرنسى مشهور (١٧٤٣ — ١٧٩٤) .
(٢) روشه : شاعر فرنسى (١٧٤٥ — ١٧٩٤) .
(٣) أندره شنيه : شاعر فرنسى (١٧٦٢ — ١٧٩٤) .
(٤) المونتان : فريق مجلس العهد الذى كان يصوت لاقسى التدابير .
(٥) فوشه : من أعضاء مجلس العهد (١٧٥٩ — ١٨٢٠) .
(٦) تاليان : من أعضاء مجلس العهد (١٧٦٧ — ١٨٢٠) .
(٧) كاريه : من أعضاء مجلس العهد (١٧٥٦ — ١٧٩٤) .
(٨) الهوة : جمع الهوة ، وهو ما انهبط فى الأرض .

ودَنْتُون لسلَّم مجلسُ العهد الخالى من الفضائل جُمْهورية البلاد إلى الأريستوقراطيين والقُوَّادِ والمضاربين فى الأوراق المالية ، ولو يُفْلِحُ تاليان وفُوشِه ومَنْ إليهم من الغيلان السفَّاحين النَّهابين لغرقَت فرنسة فى الجرائم والفضائح ... تَنَامُ يا رُوبِسْبِير على حين يُفكِّر المجرمون السُّكارَى غيظاً وهَوْلاً فى قتلكَ ودَفْنِ الحرية ، ويا كُوتُون[1] وسانْ جُوسْت لِمَ تتأخران عن إظهار المؤامرات ؟

« ماذا ؟ كانت الدولةُ السابقة ، كان الغُولُ المَلَكىُّ يُوَطِّد سلطانَه بحبسه فى كلِّ سنة أربعمئة ألف رجلٍ وشنقِه خمسةَ عشرَ ألفَ رجلٍ وكسرِه بالدُّولاَب عظامَ ثلاثةِ آلاف رجل ، ثم لا تزال الجمهورية تتردَّد فى التضحية ببضع مئات من الرؤوس فى سبيل سلامتها وسلطتِها ! فلْنَغْرَقْ فى الدم إنقاذاً للوطن .. » .

وإنه ليُفكِّر هكذا إذْ تُهْرَعُ إلوُدْية إليه شاحبةً ناحلةً وتقول له :

« ماذا تريد أن تقول لى يا إيڤارِسْت ؟ ولِمَ لا تأتى إلى « مصوِّر الغرام » إلى الغرفة الزرقاء ؟ ولِمَ حملتنى على المجىء إلى هنا ؟ » .

— لأودِّعكِ وَداعاً أبديًّا .

وتُتَمتم بأنه مجنون ، وبأنها عاجزةٌ عن الفَهْم . . .

ويَقِفُها بحركةِ يدٍ خفيفة جدًّا ، ويقول لها :

« عُدْتُ لا أرضى بغرامك » .

— صَهْ ، صَهْ ، يا إيڤارِسْت !

وتَرْجُو منه الذهابَ بعيداً هنالك ، لملاحظة الناس إياهم ، ولإنصات الناس لهم .

ويسير نحو عشرين خُطوةً ، ويداوم على كلامه هادئاً :

---

(١) كوتون : من أعضاء مجلس العهد (١٧٥٦ — ١٧٩٤) .

« لقـد ضحيتُ بحياتى وشَرَفى فى سبيل وطنى ، وسأموت رذيلًا ، وليس لدىَّ ما أُوصِى به لكِ أيتها التَّعِسَةُ ، غيرُ تذكارٍ كريه ... أتَحابُّنا ؟... أَوَيمكن أن أُحَبَّ بَعْدُ ؟ أَوَيُمْكِنِنى أن أُحِبَّ ؟ » .

و تقول له إنه مجنون ، و إنها تُحِبُّه ، و إنها ثابتـةٌ على حُبِّه ، وتَظْهَرَ مُلْتهبةً مخلصةً ، ولـكنها تَشْعُر مثلَه ، ولـكنها تَشْعُر أحسنَ منه ، بأنه على حَقٍّ فيما يقول ، ولـكنها تكابر فى المحسوس .

و يعود إلى الـكلام :

« لا أَلُوم نفسى أبداً ، وسأداوم على مِثْل ما صنعتُ ، وقد أوجبتُ حِرْمَ نفسى فى سبيل الوطن ، وقد لُعِنْتُ ، وقد وُضِعْتُ خارجَ الحظيرة البشرية ، ولن أدخلَها ، كَلاَّ ! لَمَّا يَنْتَهِ العملُ العظيم ، آه ! الرحمةُ ، العفو !... أَوَيَعْفُو الخَوَنَة ؟ وهل المؤتمِرون من الرُّحَماء ؟ و يزيد عدد الفُجَّارِ الخائنين بلا انقطاع ، وهم يَخْرُجون من تحت الأرض ، وهم يُهْرَعون من جميع حدودنا ، ومنهم الشُّبَّانُ الذين كان يَجْدُر بهم أن يَهْلِـكُوا فى جيوشـنا ، ومنهم الشيوخ والأولاد والنساء مع أَقْنِعَـةِ براءةٍ وطُهْرٍ وفُتُون ، وهم إذا ما ذُبِحُوا ظَهَرَ من نَمَطهم مَنْ هم أكثرُ منهم عدداً ... ومن ثَمَّ تُبْصِرين أن علىَّ أن أعْدِل عن كلِّ غرامٍ وكلِّ فَرَحٍ وعن بهجةِ الحياة وعن الحياة نفسِها » .

و يَسْكُتُ ، و بما أن إلودية فُطِرَت لتتمتع بملاذَّ هادئةٍ فإنها أخذت منذ أكثرَ من يومٍ ترتعب من خَلْطها انطباعاتِ الشهوة بالصُّوَرِ الداميـة تحت قُبُـلاتِ عاشقٍ فاجع ، فلم تُجِبْ عن شىءٍ قَطُّ ، و يَبْلَع إيڤارِسْتُ صَمْتَ الفتاة كأنه كأسٌ مُرَّةٌ .

« وتُبْصِرين ، يا إلودية ، أننا تدهورنا ، وأن عَمَلَنا يفترسنا ، وتُعَـدُّ أيامنا

وساعاتنا أعواماً ، وسأُحْسَبُ ابناً للمئة عَمَّا قليل ، انْظُرى إلى هذا الجبين ! أهو جبينُ عاشق ؟ حُبٌّ ! . . . »

— أنتَ لى يا إيڤارِسْت ، أنا أحْفَظُك عندى ، لا أُعيد إليك حُرِّيتَك .

وتُعْرِب عن نفسها بلهجة الضحية ، ويُحِسُّ هذا ، وهى تُحِسُّ هذا .

« أَوَتستطيعين ، يا إلودية ، أن تَشْهَدِى ، ذات يومٍ ، أننى عِشْتُ مخلصاً لواجبى ، وأننى مستقيمٌ قلباً طاهرٌ نَفْساً ، وأن المصلحةَ العامة هى هواى ، وأننى ولدتُ حنوناً رؤوفاً ؟ أَوَتقولين « إنه قام بواجبه » ؟ ، كَلَّا ، إنك لن تقولى ذلك ، ولا أطلُب منكِ أن تقولى ذلك ، سُحْقاً لذكراى ! فالمجدُ فى فؤادى والعارُ يحيط بى ، وإذ كنتِ تُحِبيننى فالزَمى جانبَ الصمت حَوْل اسمى » .

وإن الأمر لكذلك إذْ يَرْتمى على ساقَىْ غَمْلانَ صبيٌّ فى الثامنةِ ، أو التاسعة ، من سنيه كان يَلْعَبُ بإطارٍ .

ويَرْفَعه غَمْلان بين ذراعيه من فَوْره ، ويقول له :

« أيها الصبىُّ ! سَتَكْبَرَ حُرًّا ، وستكون مديناً بهذا للرذيل غَمْلان ، فأنا طاغ لتكون سعيداً ، وأنا قاسٍ لتكون صالحاً ، وأنا فَظٌّ ليتعانق جميع الفرنسيين ساكبين دموعَ الفرَح » .

ويَضُمُّه إلى صدره ، ويقول له :

« أيها الولد الصغير ! إذا ما صِرْتَ رجلاً كنت مديناً لغَمْلان بسعادتك وسلامة نِيَّتك ، وإذا ما سَمِعتَ الناس يَنْطِقون باسمى لعنتَه » .

ويَضَعُ الصبىَّ على الأرض ، ويَذْهب الصبىُّ مذعوراً ليَرْتمى على تَنُّورَة أمه التى أسرعَت إلى إنقاذه .

وتَمضِي بابنها الصغير مختالةً هذه الأُمُّ الفتاةُ التى كانت أنيقةً ذاتَ مَلاحةٍ أريستوقراطيةٍ فى ثوبها الكَتَّانىِّ الأبيض .

ويلتفت غَمْلانُ إلى إلُودْية جافىَ النظر ، ويقول لها :

« إننى قَبَّلْتُ هذا الصبىّ ، وقد أُرْسِلُ أمَّه إلى المِقْصلة » .

ويبتعد بخُطاً واسعة تحت الشجر .

وتَظَلُّ إلُودْية جامدةً شاخصةَ العين خافضةَ الطَّرْف مقدارَ دقيقةٍ ، ثم تَثِبُ على خُطَا عشيقها شَعْثاءَ حانقةً كأنها من كَوَاهن باخُوس وتُمْسكه كما لو كانت تريد تمزيقَه ، وتَصْرُخ بصَوْتٍ يَخْنُقه النزيف والدموع :

« والآن ، يا حبيبى ، أرسلنى ، أنا أيضاً ، إلى المِقْصَلة ، اقطَعْ رأسى ! » .

وهى ، إذ تَتَمثل الساطُورَ على القفَا ، يذوب بَدَنُها رَعَشاً وشهوةً .

٢٦

بينما كانت شمسُ شهرِ ترْميدور [١] تَغيب فى أُرْجُوانٍ دامٍ كان إيڤارِسْت يطوف عابساً مشغولَ البال فى حدائق مارْبُوف التى أصبحت مُلْكَ الأمة فصار يَقْصِدُها ذوو البِطالة من أهل باريس ، وكان يُتَناوَل فيها شرابُ اللَّيْمون والمُجَمَّداتُ ، وكان يُوجَدُ فيها خَيْلٌ من خشب وإطلاق للنار من قِبَل فِتْيان الوطن ، وكان يوجد تحت شجرةٍ ولدٌ من أهل ساڤوَا [٢] رَثَّ الثياب معتمراً بَقَلَنْسُوَةٍ سوداء مُرْقِصاً يَرْبوعاً على صوت طُنْبُوره الحادِّ ، وكان يوجد شابٌّ رشيقٌ لابسٌ ثوباً أزرقَ مسدولَ الشعر مع كلبٍ كبير واقفٌ لسماع هذه الموسيقا الغليظة ، ويَعْرِفُ إيڤارِسْتُ رُوبِسْپيرَ ، ويَجِدُه شاحباً ناحلاً جاسىء الوجه مُغَضَّنَ المُحَيَّا بغُضُونٍ أليمة ، ويقول فى نفسه : « ما أكثر المتاعبَ والآلامَ التى تركتْ آثارَها على جبينه ! ما أصعبَ العملَ فى سبيل سعادة الناس ! وفِيمَ يُفَكِّر الآن ؟ أَوَ يُلْهيه صوتُ الآلة عن هَمِّ الأعمال ! أَوَ يُفَكِّر فى وجود عَقْدٍ بينه وبين الموت وفى دُنُوِّ ساعة إمساكه ؟ أَوَ يُفَكِّرُ فى الرجوع إلى لَجْنة السلامة العامة التى اعتزلها مع كُوتُون وسانْ جُوسْت خوفاً من أن تَخْذُلَه أكثريةٌ مشاغبة ؟ وأىُّ الآمال ، أو أىُّ المخاوف ، تهتزُّ فى هذا الوجه الذى لا يُدْرَكُ كُنْهه ؟ » .

---

(١) ترميدور : الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية .

(٢) سافوا : بلد فرنسى واقع فى جنوب فرنسة الشرقى .

ومع ذلك فقد تبسَّمَ مَكْسِيمِيلْيانُ للولد ، وسأله بلطفٍ وصوتٍ عَـذْبٍ عن الوادى والـكوخ وعن الأبوين اللذين تركهما ، ويَرْمى له درهماً ، ويعُود إلى نُزْهته ، ويسير بضعَ خُطُواتٍ ، ويلتفت لينادىَ كلبَه الذى كان يتوعد اليَرْبُوعَ الشائك .

« برُون ! برُون ! » .

ثم يُوغِل فى الممرات القاتمة .

ولم يَدْنُ عَمْلانُ من الجائل المنفرد ، ولـكنه ، إذ ينْظُرُ إلى الشـكل الدقيق الذى يَمَّحِى فى الليل ، يُوَجِّه إليه هذا الخطابَ النفسىَّ :

« رأيتُ كَرْبَكَ يامَـكْسِيمِيلْيان ، فأدركتُ فـكرَكَ ، وكلَّ ما فيك من سَوْداءَ وتعبٍ وكلَّ ماتَنِمُّ عليه نَظَراتُك من هَلَعٍ ينْطِقُ « بختام الهَوْل وبدءِ الإخاء ! فاتَّحدوا أيها الفرنسيون ، وكونوا فضلاء صالحين مُتَحابِّين . . . » ، والآن أَخْدِمُ مقاصدكَ فأُعِدُّ مع زملائى فى المحـكَمة سُبُلَ الرحمة بإبادة المؤتمِرين والخائنين حتى تستطيعَ بحكمتك وصـلاحك أن تَضَعَ حدًّا للاختلافات الداخلية وتُطْفِئَ الأحقاد التى تؤدى إلى قتل الأخ لأخيه وتجعلَ من الجَلاَّد بستانيًّا لايَقْطَعُ غيرَ رؤوس الـكُرُنْب والخسِّ ، وسنضاعف حَذَرَنا وقَسْوَتنا ، ولن يَتَفَلَّتُ مُذْنِبٌ منا ، ومتى سَقَط رأسُ آخرِ أعداءِ الجُمهورية تحت الساطور أمْـكنكَ أن تـكون سَمْحًا غيرَ آثم وأمكنك أن تجعل طهارةَ القلب والفضيلةَ تَسُودان فرنسـة ، فيا أبا الوطن ! » .

وكان العفيفُ قد ابتعد ، ويلاقيه عند عَطْفةِ ممرٍّ رجلان لابسـان قبعتين مدوَّرتين وسِرْوالين أصفرين ، يلاقيه رجلان أحدُهما جافى المنظر طويلٌ نحيفٌ ذو شائبةٍ فى عينه مشابهٌ لتاليان ، فيُلْقيان عليه نظرةً بمؤخَّر العين ، ويتظاهران

بعدم معرفته ، ويَمُرَّان ، فلما صارت المَسافةُ بينهما وبينه كبيرةً لا يَسْمَعهما معها قالا مُخافِتيْن :

« إِذَنْ ، ها هو ذا الملكُ والبابا وإلاله ، فهو الرَّبُّ وكاترينة تيُو[1] هى نَبِيَّتُه » .

— مستبد ، خائن ، طاغية ! ولا يزال من آل بروتوس !

— راجف ، فاجر ! تَقْرَبُ صخرةُ تارْپيَان[2] من الكابيتول[3] .

ويَدْنُو الكلب بُرونُ منهما ، ويَسْكُتان ، ويُسْرعان فى السَّيْر .

---

(١) كاترينة تيو : عرافة فرنسية (١٧١٦ — ١٧٩٤) .

(٢) تاربيان : صخرة فى رومة كان يرمى المجرمون من فوقها .

(٣) الكابيتول : معبد وقلعة فى رومة .

٢٧

أنت نائمٌ يارُو بِسْپِير ! والساعة تمرُّ والوقتُ الثمين يَجْرِى . . .

وأخيراً ، فى ٨ من ترْمِيدُور ، ينهض العفيفُ فى مجلس العهد ليتكلم ، أوَ تَطْلَعِين مرة أخرى ياشمسَ ٣١ من مايو ؟ ويَنْتَظِرُ غَمْلان ، ويأمُل ، ويريد رُو بِسْپِير أن يَنْزِع هؤلاءِ المشترعين ، الذين هم أعظمُ ذنباً من الاتحاديين وأشدُّ خَطَرًا من دَنْتُون ، من هذه المقاعد التى يَشِينُونها . . . كَلاَّ ! لَمَّا ، ويقول : « لَمَّا أعْزِمْ على تمزيق القِناع الذى يَسْتُر سِرَّ هذا الفساد العميق » ، وتخيف الجميعَ تلك القنبلةُ المتناثرة من غير أن تصيب أحداً من المؤتمرين ، ويَبْلُغ ستين عددُ من لم يَجْرُؤوا على النوم فى بيوتهم منذ خمسةَ عشرَ يوماً ، وكان مارا يَذْكُر أسماءَ الخائنين ، وأما هو فيدلُّ عليهم بالإصبع ، ويتردَّد العفيفُ ، والعفيفُ هو المتَّهَمُ من الآن . . .

وفى المساء كان يُخْتَنَقُ من الزِّحام فى رَدْهَة نادى اليعاقبة ودهاليزه وساحته .

والجميعُ هنالك ، وهنالك الأصدقاءُ الصاخبون والأعداء الصامتون ، ويَتْلُو رُو بِسْپِير عليهم هذه الخُطبة التى استمع لها مجلس العهد صامتاً صَمْتًا هائلاً ، والتى هَتَف اليعاقبةُ لها هُتافاً هائجاً .

قال الرجل : « هذه هى وصيةُ الوفاة ، وستَرَوْن أننى أجْرَع الشَّوْكَرَان[1] هادئاً » .

---

(١) الشوكران : عصير نبات سام يشبه البقدونس ، وبه قتل سقراط ، والكلمة من الدخيل .

داڤيد : « سأجترعه معك » .

« الجميع ! الجميع ! » ، هـذا ما صاح به اليعاقبـة الذين افترقوا من غير أن يُقْضَى أَمرٌ .

و بينا كان مَوْتُ العادل يُعَـدُّ كان غَمْلانُ نائماً نومَ التلاميـذ[١] فى بستان الزيتون ، ويذهب صـباحاً إلى المحكمة حيث يَجْلِس فَرْعان ، ويحـاكِم الفرعُ الذى هو مُحَلَّفٌ فيه واحداً وعشرين شريكاً فى مؤامرة لازار[٢] ، وتَصِلُ فى هـذا الحين حوادثُ قائلةٌ : « إن مجلس العهد أمر ، بعـد جلسة عشر ساعات ، باتهام مكسيمليان رُوبِسْـپِير وكوتُون وسانْ جُوسْت مع أُوغُوسْتَن رُوبِسـپِير وليبا[٣] اللذين طلبا مقاسمةَ المتهمين نصيبَهم ، فأُنزل الأطِلَّةُ[٤] الخمسةُ إلى داخل السِّيَاج » .

ويُعْلَمُ أن رئيسَ الفرع الذى يَعْمَـل فى القـاعة المجاورة ، الوطنىَّ دُومَا[٥] ، قد قُبِضَ عليه وهو جالس على كرسيِّه ، ولـكن مع دوام الجَلْسة ، ويُسْمَعُ دَرْدَابُ الطُّبول ودقُّ الأجراس .

ويَتَلَقَّى إيڤَارِسْتُ ، وهو جالسٌ على مقعده ، أمراً من الهيئة الثَّوْرية بأن يذهب إلى المجلس العامِّ للجلوس فيـه ، ويُصْدِر هو وزملاؤه حكمهم مع صوت الأجراس والطبول ، ويُسْرِع إلى بيته ليعانق أمَّه ويتناول وِشَاحَه ، وكان ميدانُ تيُونْـڤِيلَ خالياً ، ولم يَجْرُؤ القِسْمُ على الشُّعور مع مجلس العهـد أو ضِدِّه ، وتُدَمَّرُ الجُدُر ، ويُدْخَلُ إلى الممرات ، وتُولَجُ البيوت ، ويقابَلُ دَقُّ الأجراس ودَرْدَابُ

---

(١) اشارة الى تلاميذ المسيح .
(٢) من سجون الثورة بباريس .
(٣) ليبا : من مجلس العهد وصديق روبسبير (١٧٦٥ ـ ١٧٩٤) .
(٤) الأطلة : جمع الطليل ، وهو الذى هدر دمه .
(٥) دوما : رئيس المحكمة الثورية (١٧٥٧ ـ ١٧٩٤) .

الطبول بصَرِير المصاريع[1] التى تُسَكَّر والقفُول التى تُرَدُّ ، ويختبئ الوطنىُّ الشائب دُوبُون فى دُكَّانه ، ويَحْتَمى البوَّاب رِمَاكْل بحُجْرَته ، وتُمْسِك جوزفينُ الصغيرةُ مُوتُونَ بين ذراعيْها خائفـةً ، وتئنُّ الوطنيةُ الأيِّمُ غَمْلانُ من غلاء القُوت الذى هو عِلَّةُ كلِّ بلاء ، ويُلاقى إيڤَارِسْت ، عنـد أسفل السُّلَّم ، إلوديةَ لاهثةً لاصقةً خُصَلُ شَعْرِها السُّودُ بجِيدها النَّدِىِّ .

— لقد بحثتُ عنك فى المحـكمة ، وأراك ذاهباً ، فإلى أين ؟

— إلى دار البلدية .

— لا تَذْهَبْ ، وإن لم تَسْمَع هلـكتَ ، فقـد قُبِضَ على أنْرِيُو ... ولن تسير أمورُ الأقسام ، ويَسُودُ السكونُ قسمَ بِيكَ وقسمَ رُوبِسْپِير ، وأعْـلَمُ هذا لانتساب أبى إليه ، وإذا ما ذهبتَ إلى دار البلدية هلـكتَ على غير جَدْوَى .

— أتُريدين أن أكون جباناً ؟

— أرى الشجاعةَ فى الإخلاص لمجلس العهد وفى إطاعة القانون .

— إذا ما فاز الفُجَّار مات القانون .

— اسْمَعْ لإلُودْيَتِكَ يا إيڤَارِسْت ، اسمع لأختك ، تعالَ واجْلِسْ بجانبها حتى تُسَكِّنَ قلبَك الهائج .

ويَنْظُرُ إليها ، وهى لم تَبْدُ له مشتهاةً كما بَدَت له الآن ، وهى لم يَرِنَّ صوتُها فى أُذُنَيْه رنينَ شهوةٍ وإقناعٍ كما رَنَّ الآن .

« خُطْوَتان ، خُطْوتان فقط يا حبيبى ! » .

---

(١) المصاريع : جمع المصراع ، وهو من الباب أحد غلقيه .

وتجرُّه إلى ترابٍ مركوم مُسطَّحٍ كانت تقوم عليه قاعدةُ التمثال المُنكَّس ، وكانت المقاعدُ تحيط بالقاعدة مشحونةً بالجائلين ، وتَعرِض بائعةُ قُطنيَّاتٍ مُخرَّماتِها ، ويُحرِّك جُرَيْسَهُ بائعُ المُغْلَيَاتِ الحاملُ على ظهره إناءه ، وتَلعَبُ بُنَيَّاتٌ بالمخاصر[1] والأُطُرِ ، ويَقِفُ صيادون على الضِّفَّة ساكنين مُمسِكين شُصُوصَهم[2] بأيديهم ، وكان الوقت عاصفاً والسماء ذاتَ غَيْم ، وكان غَمْلانُ المائلُ على الحاجز ينظر إلى الجزيرة الحادَّة كمُقدَّم السفينة ، ويُنْصِتُ لهَزِيز الريح فوق الشجر ، ويَشْعُر فى نفسه برغبةٍ فى الراحة والعزلة لا حَدَّ لها .

وتقول إلُودْية مُتنهِّدةً كما لو كانت تُرَدِّدُ صدى خيالِه العَذْبَ :

« أَوَ تَذْكُرُ أنك تَمَنَّيْتَ أن تكون حاكمَ صُلْحٍ فى قريةٍ صغيرة عند نَظَرِكَ إلى الحقول ؟ فهذه هى السعادة » .

ولكنه كان يَسْمَع من خلال حَفِيف الشجر وصوتِ النساء دَرْدابَ الطبول ودقَّ الأجراس ووَقْعَ حوافر الخيل وعَجَلِ المَدافع على البَلاط .

وعلى بُعْدِ خُطوتين منه يقول شابٌّ لوطنيةٍ هيفاء :

« ألم يَنْتَهِ إليكِ الخبرُ ؟ . . . لقد جُعِلت الأُبِرا فى شارع اللُّوَا » .

ومع ذلك فقد كان يُذْكَرُ اسم رُوبِسْپِير هَمْساً ، ولكن مع الارتعاش ، وذلك لأن الناس لا يزالون يَخْشَوْنه ، وتُخْفِى النساء ابتسامةً عند تَمْتَمَةِ الناس بنبأ سقوطه .

ويُمسِك إيڤارِسْت غَمْلانُ يدَ إلُودْية ويُلْقِيها بغتةً ، ويقول :

---

(١) المخاصر : جمع المخصرة ، وهى ما يتوكأ عليه كالعصا .

(٢) الشصوص : جمع الشص ، وهو حديدة عقفاء يصاد بها السمك وتسمى الصنارة .

« وَداعاً لقد أَشركتكِ فى مقاديرى الفظيعة ، وقد كَدَّرتُ حياتكِ إلى الأبد ، وَداعاً ! أوَ تستطيعين نسيانى ؟ » .

إلودية : « لا تَذْهَبْ إلى بيتك هـذه الليلة ، تَعالَ إلى « مصوِّر الغرام » ، ولا تَدُقَّ الجَرَس وألْقِ حجراً على مِصْراع نافـذتى أُسْرِعْ إلى فَتْح البابِ لك بنفسى ، وسأُخفيكَ فى طبقة البيت التى تحت السقف » .

غَمْـلان : « إمَّا أن تَرَيْنى ظافراً و إما ألاَّ تَرَيْنى أبداً ، وَداعاً ! » .

و إنه ليَدْنُو من دار البلدية إذ يَسْمَع ضَوْضاء يَشُقُّ عَنانَ السماء ، إذ يَسْمَع صليلَ سلاحٍ و يُبْصِر التماعَ وُشُحٍ و بِزَّاتٍ ومِدْفعياتٍ أَنْرِيُو فى ميدان غِريف ، و يَصْعَد فى دَرَج الشَّرَف و يدخل قاعة المجلس و يُوَقِّع ورقةَ الحضُور ، و يُصَوِّت مجلسُ الثورة العامُّ للأطِـلَّة بإجماع ٤٩١ عُضْوٍ .

و يأمر رئيس البلدية بإحضار لَوْحِ حقوق الإنسان و يتلو المادَّةَ التى جاء فيها : « إذا ما انْتَهـكَت الحـكومةُ حرمةَ حقوق الأمة كان العصيانُ أقدسَ واجبات الأمة وألزمَ وظائفِها » ، و يُصَرِّح حاكمُ باريسَ الأول بأن الهيئة الثـورية تقابل انقلابَ مجلس العهد بعصيان الشعب .

و يُقْسِم أعضاء المجلس العامِّ على البقـاء فى مركزهم ، و يُفَوَّض إلى اثنين من موظفى البلدية أن يذهبا إلى ميدان غِريف ليَدْعُوَا الشعبَ إلى اللَّحَاق برؤسائه لإنقاذ الوطن والحرية .

و يَبْحَثُ بعضُ الناس عن بعضٍ ، و يتبادلون الحوادثَ والآراء ، وكان يوجد بين هؤلاء الرؤساء قليلٌ من الصُّنَّاع ، وكانت الهيئةُ الثورية المجتمعة هنالك ، كما أسفرتْ عنها التصفية اليعقوبية ، مؤلفةً من قضاة المحـكمة الثورية ومحلَّفيهـا

ومن المتفننين كبُوڤالّه وغَمْلان ومن أصحاب دَخْلٍ ومن أساتذةٍ وبُرْجوازٍ أغنياءَ ومن تجارٍ كُبَراءَ ومن رؤوس مسدولةِ الشعر ومن بطونٍ سلاسلُهـا ذاتُ تُحَفٍ ، وكان يُرَى قليلُ خِفافٍ وسراويلَ وسُتَرٍ قصيرةٍ وقلَانسَ حُمْرٍ ، وعددُ هؤلاء البُرْجواز العازمون كثير ، ولـكنه إذا ما فُـكِّر فى أمرهم وُجِدَ أنهم جميعُ من فى باريس من الجُمهوريين الحقيقيين تقريباً ، ويُحيط بالجمع فى دار البلدية بحرٌ من عدم الاكتراث كما لو كان على صخرة الحرية .

ومع ذلك كانت تَرِدُ حوادثُ ملأمةٌ ، وذلك أن أبوابَ جميع السجون التى اعْتُقِل فيها الأَطِلَّة فُتِحَتْ ورَدَّتْ فرائسها ، وأن أُغُوسْتَن رُوبِسْپِير دَخَل أول دار بلديةٍ وهُتِف له ، وأن مَكْسِيمِيلْيان ، كما عُلِم فى الساعة الثامنة ، قد توجَّه إلى الهيئة الثورية بعد مقاومة طويلة فيُنْتَظَر ، وسيأتى ، وهو آتٍ ، ويَهُزُّ قِبابَ دار البلدية القديمة تصفيقٌ هائل ، ويَدْخُل محمـولاً على عشرين ذراعاً ، وها هو ذا الرجلُ النحيف المتأنق اللابسُ ثوباً أزرقَ وسروالاً أصفرَ ، ها هو ذا ، والرجلُ يَجْلِس ، والرجلُ يتـكلم .

ولما وَصَل أَمَرَ المجلسُ بأن يُنَار مُقَدَّمُ دار البلدية حالاً ، فالجُمهورية مستقرَّةٌ به ، ويتـكلَّم ، ويتـكلَّم بصوت رفيعٍ ذى طَلاوة ، ويتـكلم خالصاً مُسْهِباً ، ومَنْ كان هُنالك مِمَّنْ مَثَّلَ دورَه على رأسه أبصر مذعوراً أن هذا رجلُ كلام ، أن هذا رجلُ لِجَانٍ ، أن هذا رجلُ منابرَ ، أن هذا رجلٌ عاجزٌ عن إصدار قرارٍ سريع وإتيان عملٍ ثوريّ .

ويُجْـذَب إلى قاعة المذاكرة ، والآن جميع الأَطِلَّة المشهورين هنـاك ، والآن لِيباَ وسان جُوسْت وكُوتون هناك ، ويتـكلم رُوبِسْـپِير ، وقد مضتْ ثلاثون دقيقةً على منتصف الليل ، ولا يزال يتـكلم ، وفى تلك الأثنـاء كان غَمْلانُ مُلْصَقَ الجبين

على نافذةٍ من رَدْهة المجلس وهو ينظر بعينٍ قَلِقَة ، فيرى تدخينَ المصابيح الصغيرةِ في الليل البهيم ، وقد كانت مِدْفعيةُ أَنْرِيُو مستعدةً أمام دار البلدية ، وقد كان يَهْتَزُّ في الميدان الحالك جُمهورٌ حائرٌ مذعور ، وتَبْرُز في الدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل مشاعلُ من زاويةِ شارع ڤانيِّرى محيطةٌ بمندوبٍ من مجلس العهد حاملٍ لشِعَاره فيَنْشُر ورقةً ويقرأ على نُورٍ أحمرَ مرسومَ مجلس العهـد الذى يقضى بوضع أعضـاءِ الهيئة الثورية العُصاةِ وأعضاءِ المجلس العامِّ الذين يساعدونها والوطنيين الذين يُلَبُّون نداءها خارجَ حماية القانون .

وَضْعٌ خارجَ حمايةِ القانون ! إعدامٌ بلا محاكمة ! هـذا أمرٌ يُمْتَقَعُ منه أقوى الناس عَزْماً ، ويَشْعُر غَمْلانُ بجُمُود جبينه ، ويُبْصِرُ مغادرةَ الجُمْهور لميدان غريف بخطًا واسعة .

ولما التفتَ رأت عيناه خُلُوَّ القاعة التى كانت زاخرةً بأعضاء المجلس منذ هُنَيْهة .

وكان فِرارُهم على غير جَدْوَى ، فقد وَقَعُوا .

وتَحِلُّ الساعة الثانيـة ، ويَتَشَاور العفيف فى الرَّدْهة هو والهيئـة الثورية والممثلون الأَطِلَّة .

ويُنْعِمُ غَمْلانُ النظرَ قانطاً فى الميدان الأسود ، ويرى على نور المصابيح تصادمَ الشموع الخشبية فوق رَفِّ العطار مع صَرِير الأسـاطين الصغيرة ، وترتجُّ الفوانيس ذاتُ المَرَايا العاكسةِ للنور وتتمايل ، فقد هَبَّتْ عاصفة ، وتمضى دقيقةٌ فيَنْزِل مطرٌ ، ويَخْلُو الميـدان تماماً ، وتُفَرِّق بِضْعُ قَطَرَاتٍ مَنْ لم يَطْرُدْهم المرسومُ المرهوب ، وتُتْرَكُ مدافعُ أنْرِيُو ، فلمـا ظَهرت على نور البُرُوق كتائبُ مجلس العهـد آتيةً من شارع أَنْطوان ومن الرصيفِ فى وقت واحد كانت أطراف دار البلدية مهجورة .

وأخيراً يُقرِّر مَكْسِيميلْيانُ أن يستأنف مرسومَ مجلس العهد لدى قسم البيك .

ويَجْلِبُ المجلسُ العامُّ سيوفاً وفُرُوداً و بنادقَ ، غيرَ أنه يملأ الدارَ صليلُ سلاحٍ ووَقْعُ أقدامٍ وتَكَسُّرُ زجاجٍ ، وتمْضِي كتائبُ مجلس العهد من قاعة المذاكرات مِثْل الثلوج المتهافتة من جبلٍ وتَدْفُق فى رَدْهة المجلس ، ويُدَوِّى عِيَارٌ نارِىٌّ ، ويَرَى غَمْلانُ سقوطَ رُوبِسْپِيرَ مكسورَ الفكِّ ، ويُمْسِكُ غَمْلانُ مُدْيَتَه التى قيمتُها ستةُ أفْلُس ، والتى كان فى يومِ مجاعةٍ قد قَطَع بها خُبْزاً فى سبيلِ أمٍّ محتاجة ، والتى كانت إلُودْية قد حَفِظتها ذاتَ مساءٍ على ركبتها عند فَكِّ الرِّهان ، ويَفْتَحها ، ويريد إدخالها إلى قلبه ، وتَعُوق النَّصْلَ ضِلْعٌ ، ويَنْثَنِى على حلقته التى تلتوى . ويُقَطِّع اثنتين من أصابعه ، ويقع دامياً ، ولا يُبْدِى حَرَاكاً ، بَيْدَ أنه يقاسى بَرْداً شديداً ، وإنه ليُدَاس فى أثناء ضَوْضاءِ صِراعٍ مُفْزِعٍ إذ يَسْمَع صوتَ الفتى الفارس هَنْرى وهو يَصيح :

« عاد الطاغيةُ غيرَ موجود ، فقد كُسِرَ أتباعُه ، وستعود الثورةُ إلى مجراها الجليل المرهوب » .

ويُغْمَى على غَمْلان .

وفى الساعة السابعة صباحاً يَضْمِدُ جِراحَه جَرَّاحٌ مُرْسَلٌ من مجلس العهد ، وكان هذا المجلسُ كثيراً مُعْنًى بشركاء رُوبِسْپِير ، فلا يريد أن يَتَفَلَّت من المِقْصَلة أحدٌ منهم ، ويُحْمَلُ المتفننُ المصور والمحلَّف السابق وعضوُ مجلس الثورة العامِّ السابقُ إلى الكُونسِيرْجِيرى على نَقَّالة .

٢٨

بينا كان غَمْلانُ ، فى اليوم العاشر من الشهر ، مُلْقًى على حَصيرٍ حقير فى سجنٍ مظلم ، فيستيقظ بعد نومٍ من الحُمَّى مرتجفاً مذعوراً ذُعْراً يَعْجِزُ القلمُ عن وصفه ، كانت باريسُ تَبْتَسِم للشمس لطيفةً رحيبةً ، ويُبْعَث الأمل فى نفوس المسجونين ، ويَفْتح الباعةُ دكاكينَهم بنشاط ، ويُحِسُّ البُرْجُوَازُ بسقوط رُوبِسْبِيرأنهم أصبحوا أكثرَ غِنًى ، ويُحِسُّ الشبابُ أنهم أعظمُ سعادةً والنساء أنهن أوفرُ جمالاً ، وطائفةٌ يسيرةٌ من اليعاقبة والقساوسة الدُّستوريين والعجائزِ وحدَها هى التى ترتجف من انتقال الإمبراطورية إلى أيدى الطُّلَّح الفاسدين ، ويأتى مجلسَ العهد وفْدٌ مؤلَّفٌ من المتهم العامِّ ومن قاضيين لتهنئته بوَقْفِه الدسائسَ ، ويأمرُ هذا المجلسُ بنَصْب المِقْصَلة مُجَدَّداً فى ميدان الثورة ، ويُرَاد بهذا أن يَحْضُر الأغنياءُ والظُّرَفاء وحِسانُ النساء ، من غير زَعَجٍ ، إعدامَ روبِسْبِير فى ذلك النهار ، وكان الطاغيةُ وشركاؤه قد وُضِعوا خارجَ حماية القانون ، فيكفى أن يُحَقِّق هُوِيَّتَهم اثنان من ضباط البلدية حتى تسلِّمهم المحكمة إلى الجلَّاد حالاً ، غير أن صعوبةً بَدَتْ حَوْل توكيد الهُوِيَّات ما دامت البلدية بأسْرِها قد وُضِعتْ خارجَ حماية القانون ، ويأذن المجلس للمحكمة فى تحقيق الهُوِيَّات بشهادة أناسٍ عاديين .

ويُساقُ الحُكَّامُ الثلاثة مع شركائهم البارزين إلى الإعدام بين هُتافات السرور والسُّخْط واللعنة ، و بين الضحك والرقص .

وفى الغد يستردُّ إيڤارِستُ بعضَ قوته و يستطيع الوقوفَ على رجليه تقريباً فيُؤخذ من سجنه المظلم إلى المحكمة و يوضَع على المِصْطبة التى أبصرها مُثْقَلةً بالمتهمين عِدَّةَ مراتٍ ، والتى جلس عليها ، مناوَبةً ، كثيرٌ من الضحايا المشهورين والخاملين ، والآن ترْزَحُ المِصْطبةُ تحت سبعين رجلاً من الأَطِلَّة مُعْظَمهم من أعضاء الهيئة الثورية و بعضُهم من المحلَّفين كغَمْلان ، والآن يَرَى غَمْلانُ مقعدَه وظَهْرَ الكرسىِّ الذى كان يتَّكىء عليه عادةً ، والمكانَ الذى كان يُرْهِبُ منه كثيراً من التُّعَساء ، المكانَ الذى نُظِرَ إليه وهو فيه من قِبَل جاكْ مُوبِل وفُورْتُونه شاسَّان ومُوريس برُوتُو ، ومن قِبَل الضارعةِ العينين الوطنيةِ رُشْمُورَ التى هى سببُ نَصْبه محلَّفاً فكافأها على هذا بالحكم عليها بالإعدام ، والآن يَرَى سيطرةَ تمثالَىْ شالْيه ومارَا النصفيين ، وسيطرةَ تمثالِ برُوتُوسَ النصفىِّ الذى استشهد به ، ذات يوم ، على مِصْطبة القضاة الجالسين فوق ثلاثة كراسٍ مصنوعة من خشب الكابلىِّ ومُنَجَّدةٍ بالمُخْمل الأُتْرِخىِّ [1] الأحمر ، والآن لا يَجِدُ تغييراً فى الفُؤُوس ولا فى الجُرَز ولا فى القَلانس الحُمْرِ المعمولةِ من ورق الجُدُر ، ولا فى الإهانات التى يُوَجِّهُها من مقاعد الحُضَّارِ إلى المحكوم بإعدامهم مستمعاتٌ صاخبات ، ولا فى روح فُوكْيه تِنْڤيل العنيد المُجِدِّ الذى كان يُحَرِّك أوراقَه القتَّالةَ غَيُوراً و يُرْسِل إلى المِقْصَلةِ أصدقاءه بالأمس كقاضٍ كاملٍ .

و يُعَرِّف البوابُ الخيَّاطُ الوطنىُّ رِمَا كل والنجارُ الشائبُ فى ميدان تِيُونڤيل والعضوُ فى لَجنة الرَّقابة بقسم البُونْ نُوف ، الوطنىُّ دُبُون ، بالمُصَوِّر والمحلَّفِ السابق فى المحكمة الثورية والعضوِ السابق فى مجلس الثورة العام : غَمْلانْ إيڤارِسْت ، و يَشْهَدان فى مقابل ورقة مئة الفَلْس التى يَقْبِضانها من القِسْم ، ولكن بما أنهما

(١) نسبة الى مدينة أترخ الهولندية المشهورة بصنع المخمل .

يرتبطان فى الطَّلِيل بصلات الجِوَار والصداقة فإنهما يَشْعُران بضِيقٍ من وقوع نظره عليهما ، ومع ذلك فقد كان الجَوُّ حارًّا ، وكانا عطشانيْن فانطلقا لتناول قَدَحٍ من الخمر .

ويَبْذُل غَمْلانُ جُهداً فى ارتقاء عَرَبة المحكوم عليهم ، فقد أضاع دماً غزيرًا وكان جُرْحُه يؤلمه كثيراً ، ويَضْرِب الحُوذِىُّ حِصانَه الهزيل بالسَّوْط ويسير المَوْكِب بين السُّخْرِية الصاخبة .

ومِن النساء مَن عَرَفْن غَمْلانَ فقُلْنَ صارخاتٍ :

« إلى حيث أَلْقَتْ يا شِرِّيبَ الدَّم ، إلى حيث أَلْقَتْ أيُّها السَّفَّاحُ بثمانيةَ عشرَ فرنكاً مُيَاوَمةً !... عادَ لا يَضْحَك ، انظُرْنَ إلى هذا النَّذْل الشاحب ! » .

وهؤلاء النسوةُ هنّ اللائى كُنَّ يَشْتُمْنَ المؤتمِرين والأريستوقراطيين والمتطرفين والمعتدلين الذين أرسلهم غَمْلانُ وزملاؤه إلى المِقْصلة .

وتتحول العَرَبةُ إلى رصيف المُورْفُونْدُو ، وتَبْلُغ البُون نُوف وشارعَ المُونِّه وئيدةً ، وتتوجَّه إلى ميدان الثورة ، إلى مِقْصَلة رُوبِسْپِير ، ويَعْرَج الحِصان ، ويَمَسُّ الحُوذىُّ أذنيه بالسَّوْط مَسًّا خفيفاً باستمرار ، ويَعُوق سيرَ الخُفَراءِ جُمهور النُّظَّار المبتهجُ المنتعش ، ويُهَنِّئُ الشُّرَطَ بتعويق خَيْلهم ، وتزيد الشتائم فى زاوية شارع أُنُورِه ، ويَقِفُ فِتْيانٌ عند نوافذ المطاعم الواقعة فوق طبقة المنازل الدنيا ويَهْتِفُون والمناشفُ بأيديهم :

« أكلَة لحوم البشر ! شاربو الدم ! عفاريت ! » .

وبما أن العربة كانت قد تَوَرَّطت فى رُكامٍ من الأقذار ولم تُنْشَلْ منه فى يَوْمى الاضطراب الأخيرين فإن فؤادَ الشبيبة الزاهية كان يطير سروراً من منظرها :

« العربة المُوحِلة ! ... اليعاقبة فى المِرْحاض ! » .

ويُفكِّر غَمْلان ، ويَظُنُّ أنه يُدْرِك ، ويقول فى نفسه :

« أموت بإنصاف ، من العَدْل أن نتلقى هذه الإهانة المُوَجَّهة إلى الجمهورية التى كان يَجب علينا أن ندافع عنها ، لقد كُنَّا ضِعافاً ، وهانا نحن أولاء نُجَرَّمُ بتسامحنا ، لقد خُنَّا الجمهورية ، وها نحن أولاء نَلْقَى نصيبَنا ، وقد أذنب الطاهرُ النزيهُ بحِلْمه ولُطفه فمُحِيَت آثامه بشهادته ، وقد خُنْتُ الجمهوريةَ مثلَه فهَلَكت ، ومن العَدْل أن أموت معها ، وقد حَقَنْتُ الدمَ ، فلَيُسْفَكْ دمى ! ولْأَهْلِكْ ! جزاءً وِفاقاً ... » .

وإنه ليُفكِّر هكذا إذ يُبْصِر علامة « مصوِّر الغرام » ، فتَجْرِى فى فؤاده سيولٌ من المَرارة والحلاوة هَرْجاً مَرْجاً .

وكان المخزن مقفلاً ، وكانت شِباكُ نوافذِ الطبقة التى هى فوق الدنيا نازلةً تماماً ، فلما مَرَّت العَرَبةُ أمام النافذة اليُسرى ، أمام نافذة الغرفة الزرقاء ، أقصت يَدُ امرأةٍ لابسةٍ خاتماً فضِّيًّا على بِنْصرها طرفَ الشبكة وألقت على غَمْلانَ قَرَنْفُلةً حمراء ، لم تَسْطِع يداه المُوثَقتان أن تُمْسِكاها ، ولكن مع هِيامِه بها كرمزٍ وصورةٍ لتَيْنك الشفتين الحمراوين المُعَطَّرتين اللتين كان يُرَطِّب بهما فَمَه ، وتَنْتفخ عيناه دموعاً ، وبينما كان غائصاً فى فُتُون الوَداع هذا رأى انتصابَ الساطُور الدَّمِىِّ فى ميدان الثورة .

٢٩

كان نهر السِّين يَنْقُل جَليدَ نِيڤُوز[١] ، وكانت بِرَكُ التِّويلرِى والجداول والعيونُ جامدةً ، وكانت رِيحُ الشمال تُثِير فى الشوارع أمواجاً من الصَّقيع ، وكانت الخيل تُخرِج من مَناخِرها بخاراً أبيضَ ، وكان الأهـلون ينظرون ، وهم يَمُرُّون ، إلى موازين الحرارة على باب صانعى النَّظَّارات ، وكان أحد المستخدمين يَمْسَح البخارَ من زُجاج « مصوِّر الغرام » ، فيُلْقى محبُّو الاطلاع نظرةً على الصُّوَر المطبوعة المرسومةِ على أحدث طِراز ، ومن هذه الصُّورِ صورةُ رُوبِسْپِير وهو يَعْصِر قلباً على قَدَحٍ ، كما يُعْصَر الليمون ، ليشربَ دمَه ، ومنها قِطَعٌ رمزية ، كالثعابين ذاتِ الرؤوس السبعة والأفاعى والغيلان الـكريهة ، يُغْرِيها الطاغيةُ رُوبِسْپِيرُ بفرنسة ، ومنها ، أيضاً ، مؤامرةُ رُوبِسْپِير ، والقبضُ على رُوبِسْپِير ، وإعدام رُوبِسْپِير .

وفى ذلك اليوم يَدْخُل فليپ دِمَاهِى « مُصَوِّرَ الغرام » بعـد الغَداء حاملاً محفظته تحت ذراعه ، ويأتى الوطنىَّ جانْ بليزَ بلَوْحٍ نَقَشـه بالتنقيط ، يأتيه بـ « انتحار رُوبِسْپِير » ، الذى جعله مِنْقاشُه قبيحاً ما أمكن ، ولم يكن الشعب الفرنسىُّ مُشْبَعًا بَعْدُ من جميـع تلك الآثار التى خُصِّصَتْ لمعايبِ ، وفضائحِ ، هذا الرجلِ الذى يَحْمِل أوزارَ الثورة الفرنسية كاملةً ، ومع ذلك فإن بائع الصُّـور المطبوعة العارفَ بالجمهور يُخْبِر دِمَاهِى بأنه سَيَعْهد إليه فى نَحْت موضوعاتٍ حربية .

---

(١) نيڤوز : الشهر الرابع من السنة الجمهورية (ما بين ٢١ ديسمبر — ١٩ ينـاير) .

« تُعْوِزنا الانتصاراتُ والفُتُوحُ والسيوفُ وباقاتُ الرِّيش والقُوَّادُ ، فنحن ذاهبون إلى المجد ، وأَشْعُر بهذا فى نفسى ، ويَخْفِق قلبى عند نبأ مفاخر جيوشنا الباسلة ، ويَنْدُر ألاَّ يَشْعُرَ جميع الناس بأمرٍ أَشْعُر به ، والذى نحتاج إليه هم الغُزَاة والنساء ، هم مارْس[1] وڤِينُوس[2] » .

— أيها الوطنىُّ بِلِيز ، لايزال يوجد عندى رسمان ، أو ثلاثة رسوم ، لغَمْلانَ كنتَ قد سلَّمتهما إلىَّ لأَحْفِرَها ، أهما ضرورِيان ؟

— كلاَّ .

— وإنى إذ أَذْكُر غَمْلانَ أقول : إننى مَرَرت أمسِ من شارع التَّنْپل فوجدتُ عند بائع المُنَوَّعات ، الذى يَقَعُ حانوتُه تجاه مَخْزَن بُومَارْشِه ، جميعَ رسوم هَذا التَّعِس ، وجدتُ هنالك رَسْمَه أُورِسْتَ وإِلِكْتِر ، وجدتُ رأسَ أُورِسْتَ ، الذى يشابه غَمْلانَ ، جميلاً حقًّا كما أُوَكِّدُ لكم . . . وجدتُ الرأسَ والذراع رائعيْن . . . وقد قال لى بائعُ المُنَوَّعات إنه لم يُزْعَجْ ببيع هذه الرسوم إلى مصوِّرين يُصَوِّرون فوقَها . . . فيا غَمْلانُ المسكينُ ! كان يُمْكِنه أن يَغْدُوَ نابغةً من الطِّراز الأول لو لم يُعْنَ بالسياسة .

الوطنىُّ بِلِيز : « له نَفْسُ مجرمٍ ، وقد كَشَفْتُ أمرَه فى هذا المخزن حينما كانت غرائزُه السفَّاحَةُ مكبوتةً ، وهو لم يَغْفِر لى ذلك قَطُّ . . . آه ! كان هذا لئيماً » .

دِمَاهى : « ياهَذا الغلام المسكين ! لقد كان صادقاً ، والمتعصبون هم الذين أضاعوه » .

---

(١) مارس : اله الحرب كما جاء فى الأساطير .

(٢) فينوس : الهة الجمال كما جاء فى الأساطير .

بليزُ : « أرى ألاَّ تدافعَ عنه يادِمَاهِى !... فالدفاعُ عنه متعذر » .

دِمَاهِى : « كَلاَّ ، لا يُمْكن الدفاعُ عنه أيها الوطنىُّ بليز » .

ويُرَبِّت الوطنىُّ بليزُ دِمَاهِى الجميلَ على كَتِفه ، ويقول له :

« لقد تَغيَّرَ الزمن ، ويُمْكن أن تُسَمَّى « بارْبَارُو » ، وبما أن مجلس العهد يستدعى الأَطِلَّة . . . كما أرى ، فيمكنك ، يادِمَاهى ، أن تَحْفِر صورةً لشارْلُوت كُورْدَاى » .

وتَدْخُل المخزنَ امرأةٌ طويلةٌ جميلةٌ سمراءُ مُدَّثِرَةٌ بفَرْوَةٍ وتُحَيِّي الوطنىّ بليز بتحية قلبية ذاتِ معنى ، وهذه المرأة هى جُولْيَة غَمْلان ، ولكنها لاتُدْعَى بهذا الاسم المفضوح ، بل « تُسَمَّى الوطنيةُ الأَيِّمُ شاسان » ، وكانت تَلْبَس تحت مِعْطَفها قميصاً أحمرَ إكراماً لقمصان الهَوْل الحُمْر .

وكانت جُولْيَة تَشْعُر بنُفُورٍ من عشيقة إيڤارِسْت فى بدء الأمر ، لمَقْتِها كلَّ مَنْ كان ذا صلةٍ بأخيها ، غير أن الوطنيةَ بليز قد غَمَرتْ ، بعد موت إيڤارِسْت ، أمَّه المسكينة بأَنْعُم « مُصَوِّر الغرام » ، غير أن جُولْية قد لجأت إلى « مُصَوِّر الغرام » أيضاً ، ثم وجدت مكاناً لها فى محلِّ الأزياء بشارع اللُّونبَار ، ومما كان يجعلها موضع عطفِ الشبيبة الزاهية شعرُها القصيرُ « على زِىِّ الضحية » ووضعُها الأريستوقراطىُّ وحِدادُها ، ويُقَدِّم جانْ بليزُ ، الذى تركتْه روزْ تِڤِنَانُ تقريباً ، بعضَ الواجبات إليها فتَقْبَلُها ، ، وكانت جُولْية تُفَضِّل أن تَلْبَس ثيابَ الرجل كما كانت تَصْنَع فى الأيام الفاجعة ، فخاطت لها ثوباً رجُولِيًّا جميلاً ، وصارت تَقْصِدُ ، حاملةً عصاً كبيرةً ، حانةَ سيڤر أو حانةَ مُودُون لتناول العَشاء مع إحدى فتيَات الأزياء ، وما كانت لتَسْلُوَ مَوْتَ الشابِّ الذى تَحْمِلُ اسمَه ، فلا تَجِدُ جُولْيَة

المُذَكِّرَةُ ما يُخَفِّفُ بؤسَها فى غير فَوَرانها ، فإذا مالاقت يعاقبةً أثارت عليهم السابلة بعويلها ، ولم يَبْقَ لديها غيرُ وقتٍ قصيرٍ تَخُصُّ به أُمَّها التى تَقْضِى نهارَها كلَّه وحيدةً فى غرفتها تاليةً دعاءَ المِسْبَحة فلا تَشْعُر بألَمِ ما هى مُثْقَلَةٌ به من خاتمةِ ابنها الفاجعة ، وقد أصبحت رُوزُ صاحبةً ملازمةً لإلُودية التى كانت تُجارِى حَمَواتِها .

وتسأل الوطنيةُ شاسَّان : « أين إلُودْية ؟ »

ويُظْهِر جانْ بِلِيزُ أنه لا يَعْرِفه مطلقاً ، ويَجْعَل من هذا مِنْهاجاً له .

وقد حضرت جُولْيَة حتى تذهبا معاً لزيارة تِقنَان فى مُونْسُو[1] حيث تَسْكُن هذه الممثلةُ بيتاً صغيراً ذا حديقةٍ إنكليزية .

وكانت تِقنَان قد تَعَرَّفت فى الكُونْسِيرْجِيرى بمتعهدٍ كبيرٍ للجيش ، بالوطنىِّ مُونْفُور ، وكانت أولَ من خَرَج من هذا السجن لشفاعةِ جانْ بِلِيزَ فيها ، فنالت تَوْسِعَةً من الوطنىِّ مُونْفُورَ الذى لم يَكَدْ يُطْلَق حتى أخذ يَمِيرُ الجيشَ ويضارِب على الأَرَضِين فى حَىِّ پِيپِينِير ، وقد أقام مهندسو البناء ، لُودُو وأُولِيفِيه وڤالِّى ، بيوتاً جميلةً عليها ، فارتفعت أثمان هذه الأَرَضِين ثلاث مرات فى ثلاثة أشهر ، وقد كان مَونْفُورُ عشيقَ تِقنان منذ أيام سجن اللُّكْسَنْبُرْغ ، فوَهَب لها بيتاً صغيراً قريباً من تريڤُولِى وشارعِ الرُّوشِه ، بيتاً ثميناً وإن لم يُكَلِّفْه غالياً لكَسْبه أضعافاً مضاعفةً ثمناً للقسائم المجاورة ، وكان جانْ بِلِيزُ رجلاً ظريفاً ، وكان يرى الصَّبْر على ما لا يُمْكِن منعُه ، فترك تِقنَانَ لمُونْفُورَ من غير تخاصُم .

وتَنزِل إلُودْية إلى « مُصَوِّر الغرام » مُتَبَرِّجةً بعد قليل من وصول جُولْية ،

---

(١) مونسو : متنزه جميل فى باريس .

ومع أن الوقت كان بارداً جداً فقد كانت عاريةً بثوبها الأبيض تحت مِعْطفها، وقد صار وجهُها شاحباً وقَوَامُها ناحلاً، ونَظَراتُها ذابلةً مع دلالةٍ على الشَّهْوة.

وتَذْهب المرأتان إلى تِفنان التى تنتظرهما، ويرافقهما دِمَاهى لِمَا كان من سؤال الممثلة إياه عن زخرفة منزلها، ويُحِبُّ إلوديةَ التى كادت تعزِم فى ذلك الحين على عدم تَرْكِه يزيد ألماً، ولما مَرَّت المرأتان بالقرب من الرِّجَام حيث دُفِن تحت طبقةٍ من الكلس مَنْ أُعْدِموا فى ميدان الثورة قالت جُولْية:

« هذا يطاق فى أيام البرد، غير أن الربيع إذا ما حَلَّ سَمَّمت الروائحُ التى تَنْبَعث من هذه الأرض نصفَ باريس ».

وتستقبل تِفنانُ صديقتيْها فى رَدْهةٍ على الطراز القديم رُسِمَتْ متكآتها وكراسيّها من قبل داڤيد وسُتِرت جُدُرُها بنقوشٍ بارزة رومانية اسْتُنْسِخت فوق التماثيل والشماعد البرُنزية المنقوشة، وكانت تَلْبَس شعراً مستعاراً مُزَرْفناً [1] أشقرَ تِبْنِيًّا، وكانت الشُّعور المستعارة ملائمةً لذوق ذلك الزمن، فيُوضَع منها اثنا عشرَ أو ثمانيةَ عشرَ فى سِلَال الزواج، وكان ثوبها المصنوع على الزىِّ « الڤينوسىِّ » يشتمل على جميع بدنها كالقِراب.

وتَضَعُ مِعْطفَها على كَتِفيها وتأتى بصديقتيْها وبالخفَّارِ إلى الحديقة التى رَسَمها لها لُودُو والتى لا تَعْدُو الآن كونَها خَوَاءَ أشجارٍ عاريةٍ أو كِسَراً مصنوعةً من الجِبْس، ومع ذلك فإنها تُرِى فيها كهفَ فِنْغال [2] وبيعةً [3] قُوطِية وناقوساً ومعبداً وسَيْلاً، وتقولُ مشيرةً إلى باقة صَنَوْبرٍ:

---

(١) زرفن شعره: جعله كالزرافين، وهى الحلق الصغيرة.
(٢) فنغال: كهف مشهور باسكتلندة.
(٣) البيعة: المعبد للنصارى.

« أريد أن أقيم هنالك نُصْباً تذكاريًّا لسيِّىء الحظِّ برُوتُو دِيزِلِّت ، فلم أكُ غيرَ مكترثةٍ له ، وقد كان أنيساً ، وقد ذبحه الغيلان فبكيتُه كثيراً ، ستَنْقُشُ لى جَرَّةً على عَمُودٍ يا دِماهى » .

ثم تُضيف إلى ذلك قولَها :

« يا لَلْخَسارة ! ... لقد أردت أن أقيم حفلةً راقصة ، غير أن جميعَ الكمانيَّة احْتُجِزُوا لثلاثة أسابيعَ مُقَدَّماً ، وفى جميع الليالى يُرْقَصُ فى منزل الوطنىِّ تالْيان » .

ويُتناوَلُ العَشاء ، ويَذْهبُ الصواحبُ الثلاثُ مع دماهِى إلى مَسْرحِ فِيْدُو فى عَرَبة تِقِنان ، وفى هذا المسرح تَجَلَّى جميعُ ما فى باريسَ من أناقة ، فقد كانَ النساءُ مُمَشَّطاتٍ « على الزِّىِّ القديم » أو « على زِىِّ الضَّحِية » ولابساتٍ ثياباً مُفَتَّحَة أُرجوانيةً أو بَيضاً ذاتَ صفائحَ ذهبيةٍ صغيرة ، وقد كان الرجال لابسين قبَّاتٍ [1] سُوداً عاليةً جدًّا ورَبَطاتٍ بيضاً واسعةً ساترةً لأذقانهم .

ويدلُّ الإعلان على الروايتين : « فِيدْر [2] » و « كلب البستانىِّ [3] » ، ويطلب جميعُ من فى المَسْرَح نشيدَ « يقظة الشعب » العزيزَ على المُتَحذلقين والشُّبان المزدهين .

ويُرْفَع الستار فيَظْهَر على المسرح رجلٌ صغيرٌ قصيرٌ بَدِين ، يَظْهَر لَاىُ المشهورُ وهو يُنْشِد بصوته الجميل الصادح :

الشعبُ الفرنسى ، شعبُ الإخوان ! ...

---

(١) Collets

(٢) اسم رواية لراسين .

(٣) اسم رواية للوب دوفيغا ، وهذا شاعر اسبانى (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) .

ويَبْلُغ التصفيق من الشِّدَّة ما يَرِنُّ معـه بِلَّوْرُ الثريَّا ، ثم يُسْمَعُ ضجيج ، ويُجيبُ بنشيد المَرْسِلْيزَ وطنيٌّ من الحُضُور لابسٌ قُبَّعَة مدوَّرَة :

هَلُمُّوا يا بني الوطن ! . . .

ويُخْنَق هذا الصوتُ بصُراخِ سُخْرِيَةٍ ، وتتعالى أصوات :

« ليَسْقُط الإرهابيُّون ! قُتِلَ اليعاقبة ! »

وينادَى لَائُ فيَعُود إلى نشيد التِرْمِيدُوريين[1] :

الشعب الفرنسيّ ، شعب الإخوان ! . . .

وكان يُشاهَد فى جميع المسارح تمثالُ مارا النصفيُّ على عَمُودٍ أو على قاعدةٍ ، وكان هـذا التمثالُ النصفيُّ يقوم فى مَسْرَح فِيْدُو على قُوَيْعِدةٍ من ناحيـة الحديقة بارزةٍ أمام إطار حجريٍّ مُغْلِقٍ للرَّدْهة .

وبينا كانت الفِرقة تعزف مفتتِحةً « فِيـدْر وإِيپُوليت » إِذْ أشـار شابٌّ متحذلقٌ إلى التمثال النصفيِّ بطَرَف عصاه وقال صارخاً :

« ليَسْقُط مارا ! ليَسْقُط مارا ! »

وتَسُودُ الضَّوْضاءَ أصواتٌ بليغة قائلةٌ :

« إن من العار أن يَبْـقى هذا التمثالُ النصفيُّ قائماً » .

— إن القبيحَ مارا يسيطر فى كلِّ مكان مُخْزِياً إيانا ! ويَعْـدِل عددُ تماثيله النصفيةِ عددَ الرؤوس التى كان يريد قَطْعَها .

— يا له من عُلْجُومٍ[2] سامٍّ !

---

(١) نسبة الى الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية .
(٢) العلجوم : الضفدع الذكر .

— مُتَنَمِّر !

— ثُعْبانٌ أسود !

ويَصْعَد رجلٌ أنيقٌ من الحضور فى طرفِ شُرْفتـه بغتةً ويَدْفَع التمثالَ النصفىَّ ويَقْلِبه ، ويَسْقُط الرأسُ الجِبْسِىُّ على الموسيقيين مُحْدِثاً صوتاً جافياً بين هُتـافات الحُضَّار الذين يُنْشِدون « يقظة الشعب » وهم وُقُوف :

الشعبُ الفرنسىُّ شعبُ الإخوان ! . . .

وتُبْصِر إلُودية الفارسَ الظريف وكاتبَ النائب العامِّ الصغيرَ بين أكثر المُنْشدين حماسةً ، تُبْصِر عاشقَها الأول : هَنْرى .

ويَتِمُّ التمثيلُ ، ويستدعى دِمَاهى الجميلُ عَرَبةً ذاتَ دُولابَيْن ويُوصِل الوطنية بِليزَ إلى « مصوِّر الغرام » .

ويتناول المتفنِّن يدَ إلودية بين يديه ويقول :

« ألا تعتقدين أننى أُحبك يا إلودية ؟ » .

— أعتقد ذلك ما دمتَ تُحبُّ جميعَ النساء .

— أُحبهنَّ فيكِ .

وتبتسم :

« سأَحْمِل عِبْئًا عظيماً على الرَّغم من الشعور المستعارة السُّود والشُّقْر والصُّهْب المثيرة ، وأُعِدُّ نفسى لجَعْلِ جميعَ النساء فىَّ من أَجْلكَ » .

— أُقْسِم لكِ يا إلُودْية ...

— ماذا ؟ أَقْسامٌ أيها الوطنىُّ دِمَاهى ؟ إمَّا أن تكون ساذجاً كثيراً ، وإما أن تَظُنَّنى ساذجة كثيراً .

لم يَجِدْ دِماهى جواباً ، وتُهنِّىء نفسَها بأنها أطارت لُبَّه فائزةً .

ولما كانا فى زاويةِ شارعِ اللُّوَا سَمِعا أناشيدَ وأصواتاً ، وأبصرا أشباحاً تهتزُّ حولَ كانونٍ ، أبصرا زمرةً من الظُّرَفاء كانت تُحَرِّق تمثالاً خشبيًّا لصديق الشعب بُعَيْدَ خروجها من دار التمثيل الفرنسىّ .

ولما صارا فى شارع أُنُورِه صَدَم الحوذىُّ بقُبَّعته ذاتِ القُرنتين تمثالاً مُضْحكاً لِمارَا مُعلَّقاً تحت مصباح .

ويُسَرُّ الحوذِىُّ بهذه المصادفة ويتوجَّه إلى البُرْجوَازِ ويَذْكُرلهم كيف أن بائع الكُرُوش والأمعاء فى شارع مُونْتُورْغُوى لَطَخ بالدم عَشِيَّةً رأسَ مارَا قائلاً : « إن هذا هو ما يُحِبُّه » ، وكيف أن الصِّبيان البالغين من العُمر عشرةَ أعوامٍ أَلْقَوْا بنصفه الأعلى فى البالوعة فهتف أبناء الوطن قائلين : « هذا هو پانْتِيُونُه ![1] » .

وكان يُسْمَع فى تلك الأثناء إنشادُ جميعِ الطَّبَّاخين وبائعى اللمُونادة :

الشعب الفرنسىّ ، شعبُ الإخوان ! ...

وتَصِلُ إلُودية إلى « مصوِّر الغرام » وتقول وهى تَثِبُ من العربة :

« مع السَّلامَة ! » .

بيد أن دِمَاهى يُبْدِى من التذلُّل الناعم والإلحاف العَذْبِ ما لم تُقْدِمْ معه على إغلاق الباب دُونَه ، فقالت :

« مَضَى الوقت ، فلا تَمْكُثْ غيرَ دقيقة » .

وتَنْزِع مِعْطفَها فى الغرفة الزرقاء وتبْدُو بثوبها الأبيض المصنوعِ على الزِّىِّ القديم رَيَّا فاترةً وتقول :

---

(١) البانتيون : مدفن العظماء بباريس .

« قد تكونُ شاعراً بالبَرْد فسأُوقِد النار ، وهى مُهَيَّـأة » .

وتَقْدَح وتَضَعُ فى المَوْقِد عُوداً مشتعلاً .

و يَضُمُّها فِليب بين ذراعيه بتلك اللطافة التى تدلُّ على القوة فتَشْعُرُ بلذةٍ عجيبة ، وهى تُفْلِت قائلةً بعد تَثَنٍّ بين القُبَـل :

« دَعْنى » .

وتَـنْزِع كِسْوَة رأسها أمام مرآة المَوْقِد على مَهْلٍ ، ثم تَنْظر ، مع السَّوْداء ، إلى الخاتَم الذى يحيط بِنِصْرها ، تنظرُ إلى هـذا الخاتَم الفضىِّ الصغير الذى صار لا يُمَازُ فيـه وجهُ مارا الدارسُ المسحوقُ ، تَنْظُر هـذا الخاتَمَ إلى أن يَغْشَى الدمعُ نَظَرَها ، فتُخْرجه برفْقٍ وتَقْذِفه فى اللَّهَب .

وهنالك تَطْرَح نفسها بين ذراعى فِليب ساطعـة بالعَبَرات والابتسام جميـلةً عن رقةٍ وغرام .

وكان الليل قد تقدَّم حينما فتحت الوطنية بليزُ باب المنزل لعشيقها وهى تقول له مُخَافِتةً بين الظلام :

« مع السلامة ياحبيبى ! فهذه هى الساعة التى يَدْخُل المنزل فيها أبى ، فإذا سمعتَ وَقْعَ قَدَمٍ على الدَّرَج فاصْعَدْ إلى الطبقة العليا مُسْرِعاً ، ولا تَـنْزِل إلَّا بَعْـد زوال الخَطَر ، وانقُرْ نافذةَ البَوَّاب ثلاثَ مَرَّاتٍ حتى يُفْتَحَ لك بابُ الشارع ، مع السلامة يا حياتى ، مع السلامة يا روحى ! »

وكان آخرُ الجَمْر يَلْمَع فى المَوْقِد ، وتَدَعُ إلودية رأسَها السعيـدَ التَّعِبَ يَهْبِط على الوِسادة .

تصويبات

ص	س	صواب
٢٨	٤	المُسوَّى
٣٢	١٥	سوداءَ
٣٣	١١	المُصَوِّرُ
٣٣	١٩	البستونى
٥٤	١٨	كحُبِّ
٦١	١٣	يَنْفَدُ
٦٣	٥	والواقع
٨١	١٦	قَطُّ
٩٢	١٤	رُوبسپيرُ
١٢٧	٦	المهاجر مسيو
١٣٤	٤	النازل
١٣٧	١	والكُولينات
١٤٨	١٦	مساواةَ
١٥٢	٦	والأدباءِ
١٦٠	٤	ولا بُدَّ من
١٧٧	١٤	ليس عليه
١٨٨	٥	منضوحاً
٢١٩	٧	دائمةُ
٢٤٩	١٤	يَتَفَلَّتَ
٢٥٨	١٦	مُغْنًى كثيراً

للأستاذ المترجم :

(١) حضارة العرب (طبعة ثانيـة) ... ... لغوستاف لوبون
(٢) حضارات الهنـد ... ... « «
(٣) روح الجماعات ... ... « «
(٤) السنن النفسـية لتطور الأمم ... ... « «
(٥) روح التربية ... ... « «
(٦) حيـاة الحقائق ... ... « «
(٧) الآراء والمعتقدات ... ... « «
(٨) روح الثورات والثورة الفرنسـية ... ... « «
(٩) روح الاشتراكية ... ... « «
(١٠) روح السياسة ... ... « «
(١١) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ... ... « «
(١٢) النيـل ... ... لإميـل لودفيغ
(١٣) البحر المتوسـط ... ... « «
(١٤) كليوپاترة ... ... « «
(١٥) بسمارك ... ... « «
(١٦) نابليون ... ... « «
(١٧) ابن الإنسان ... ... « «
(١٨) الحيـاة والحب ... ... « «
(١٩) حيـاة محمد ... ... لإميـل درمنغم
(٢٠) تاريخ العرب العـام ... ... لسـيديو
(٢١) الآلهـة عطاش ... ... لأناتول فرانس
(٢٢) أصول الحقوق الدسـتورية ... ... لإيسمن

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

PQ
2254
D5
1952

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة